##PAGE=9##

الجزء الثالث

محتويات الكتاب

الحاكم بأمر اللّه ١١

الإمام السادس عشر و الخليفة السادس ١٣

النظم الإدارية فى الدولة الفاطمية ۴۴

السجلات الحاكمية ٨۶

الحركة الأدبية و الفكرية فى عهد الحاكم بأمر اللّه ٩٨

أوضاع المغرب فى عهد الحاكم بأمر اللّه ١٢٣

الظاهر لإعزاز دين اللّه ١٢٧

الإمام السابع عشر و الخليفة السابع ١٢٩

الاضطرابات الداخلية ١٣٧

التطلعات الفاطمية نحو المشرق ١۴٢

الإسماعيلية فى اليمن ١۴۵

طلائع الدعوة ١۴٧

الأسرة الصليحية ١۴٩

المستنصر باللّه ١٨۵

الخليفة الفاطمى الثامن و الإمام الثامن عشر ١٨٧

الانهيار الكبير ٢١٩

بداية النهاية ٢٢١

فهرس الاعلام ٢٤٣

فهرس الأماكن ٢٤٩

فهرس القبائل و العائلات و الفرق ٢٥١

المراجع ٢٥٣

##PAGE=11##

الحاكم بأمر اللّه

##PAGE=13##

الامام السادس عشر و الخليفة السادس

يعتبر الإمام الحاكم بأمر اللّه من أغمض الشخصيات السياسية التى عرفها العالم، و لا نغالى إذا ما قلنا: إنه لغز القرون، و سر العصور، و البحر العميق الذى لم يستطع الفكر سبر غوره و معرفة مورده، و لقد أثيرت حول حياته، و مماته الأقوال الخيالية، كما نسجت الحكايات و الأساطير بالنسبة لطريقة حكمه، و الأساليب التى اعتمدها إبان اضطلاعه بشؤون الخلافة، و كل هذا اتخذ منه البعض أداة للتندر، معادة للتسلية، و إنه لمن الغريب أن يمدحه بعضهم، و يرفعه إلى ذروة المجد بينما يتناوله الآخرون بالنقد و التجريح، و الطعن فى نسبه، و شخصيته و سلوكه بما يتنافى و الآداب و الأخلاق.

اسمه: المنصور، لقبه الحاكم بأمر اللّه، و كنيته: أبو على ... ولد فى القاهرة المعزية سنة ٣٧٥ ه:

والدته هی: أم ولد، و تتحدر من أسرة مسيحية عريقة تذهب بنسبها إلى الطائفة الملكية- القبطيّة، و كان والده الخليفة العزيز باللّه قد تزوجها فاتحا بذلک عهدا جديدا من التحرر الدينى و الطائفى، و العادات، و التقاليد خاصة، و قد تميزت هذه الزوجة بثقافتها، و آدابها، و أهليتها، و جمالها، و مكانتها فى قومها.

تولى الخلافة بعد وفاة والده العزيز باللّه سنة ۳۸۶ ه مباشرة، و كان له من العمر أحد عشر عاما.

توفى فى ظروف غامضة سنة ۴۱۱ ه. فتكون مدة حكمه خمسة و عشرين عاما، و عمره ستة و ثلاثين عاما. كل ما نعرفه عن صباه ...

أن أباه أحسن تعليمه، و تهذيبه، فلما مات الإمام العزيز بالله انتقلت الخلافة و الإمامة معا إليه.

##PAGE=14##

كان والده الخليفة العزيز باللّه فى طريقه إلى الشام على رأس جيشه الجرّار للتصدى للروم الذين دفعوا بجيوشهم إلى تلک البلاد. فعاثوا فيها فسادا و خرابا، و تشاء الأقدار أن يصاب العزيز باللّه بمرض فجائى خطير ذكر أنه «الحمّى» الدماغية فى مدينة «بلبيس» و لما عرف أن الإصابة مميتة، و أن لا أمل بالنجاة، أمر بإحضار ولده الحاكم بأمر اللّه من القاهرة لتوديعه الوداع الأخير، و عند ما حضر نصّ عليه بالخلافة و الإمامة على مسمع من كبار رجال الدولة، و الوزراء، و القوّاد.

و تروى المصادر نقلا عن المؤرخ المصرى الأمير المسبحى، أصدق المؤرخين، و أكثرهم دقة فى إيراد «الأخبار و الروايات و نقدها، و تحليلها، و كان صديقا للإمام الحاكم بأمر اللّه. قال:

«قال لى الحاكم و قد جرى ذكر والده العزيز: يا مختار استدعانى والدى قبل موته، و عليه الخرق و الضماد، فاستدنانى و قبلنى و ضمّنى إليه و قال:

و اغمّى عليک يا حبيب قلبى، و دمعت عيناه ثم قال: امض ... و العب فأنا فى عافية.

قال: فمضيت و التهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب، إلى أن نقل اللّه سبحانه و تعالى العزيز إليه. قال: فبادر إلىّ برجوان و أنا فى أعلى جميزة كانت فى الدار فقال: انزل ويحک، اللّه اللّه فينا و فيک. قال: فنزلت فوضع العمامة بالجوهر على رأسى، و قبّل لى الأرض و قال: السّلام عليک يا أمير المؤمنين و رحمة اللّه و بركاته. قال: و أخرجنى حينئذ إلى الناس على تلک الهيئة فقبل جميعهم الأرض لى و سلّموا علىّ بالخلافة.

لم يبک الإمام الحاکم بأمر اللّه رغم صغر سنه و لم يهن أمام المصاب، بل أمر باتخاذ التدابير السريعة لنقل جثمان أبيه إلى القاهرة، و تمّ ذلک بسرعة. حيث سار هو على رأس الموکب الکبير الذى شارک فيه جيش مصر بکامله ... و کان يرتدى ثياب الخلافة متقلدا سيفه، و على رأسه المظلة، و کان صابرا متجلدا، متهيبا جلال الموت.

و عند ما وصل الموکب إلى القاهرة ... خرجت الجماهير الحزينة لاستقبال جثمان الخليفة العظيم الذى أحبوه من کل قلوبهم ...

و کانوا يذرفون الدموع، و ينتحبون أسى، و يندفعون وراء الجثمان بغية لمسه، أو تقبيل النعش المحمول على الأکف.

و عند وصول الموکب إلى القصر. أمر الإمام الحاکم بأمر اللّه قاضى القضاة محمد بن النعمان، بأن يتولّى غسله، و الصلاة عليه، ثم دفن

##PAGE=15##

[1]

إلى جانب والده الإمام المعز لدين اللّه فى إحدى حجرات القصر، وفق المراسيم التقليدية المعمول بها فى الدولة الفاطمية.

و فى اليوم الثانى جلس الإمام الحاکم بأمر اللّه فى الإيوان الکبير، و حوله کبار رجال الدولة يتقبل التعازى، و المبايعة، و کان أول بيان أذاعه على الرعية فى أنحاء الدولة:

«أن الأمن موطّد ... فلا کلفة، و لا مؤونة، و لا خوف على النفس، أو المال، و على الناس أن ينصرفوا إلى أعمالهم بحرية، و اطمئنان».

و هکذا جلس الخليفة الحاکم بأمر اللّه على عرش الخلافة يعالج الأمور، و يصارع الأحداث و ما أکثرها فى تلک الفترة.

کان الإمام الحاکم بأمر اللّه ذا بنية قويّة متناسبة طولا و عرضا.

فمظهره يدل على أنه من أولئک الجبابرة الأوائل ... مبسوط الجسم ...

---

[1] تامر، عارف، تاريخ الاسماعيليه،4جلد، رياض الريس للکتب و النشر – لندن، چاپ: اول،1991 م.

فارع الطول ... بارز الصدر ... مهيب الطلعة ... له عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما خضرة ذات نظرات حادة مروعة كنظرات الأسد، فلا يستطيع الإنسان- أى إنسان- التحديق أو إطالة النظر فيهما ... و له صوت جهورى، قوى، مرعب، يحمل الروع إلى سامعيه.

قالوا فى وصفه:

كان منظره يشبه منظر الأسد ... عينان لهما بريق غريب ... إذا نظر المرء إليه يتملكه الرعب، و يرتعد هلعا لعظم هيبته، و كان صوته مخيفا كالرعد.

و الحقيقة:

فهو سليل أسرة من الجبابرة العرب الأقوياء الأصحاء الذين عاشوا فى الصحراء، يقارعون الأحداث، و القوى الطبيعية، و يفيئون إلى ظلال العز، و المجد، و الأنفة، و لكنهم، و مع كل أسف يذهبون فى منتصف العمر، عند ما تكون زهورهم فى بدء تفتحها ... فوالده الإمام العزيز باللّه كان أيضا عظيم القامة، عريض المنكبين، و قد اشتهر باقتناص الأسود بمفرده، و هكذا جده الإمام المعزّ لدين اللّه، و هكذا الإمام المنصور باللّه.

إذن فالحاكم بأمر اللّه ورث هذه الخواص الطبيعية البديعة ... و من الواضح أنه لم يبددها فى شهوات النفس، و متطلبات الجسد التى كثيرا ما ينغمس فيها الملوك، و الأمراء، و أبناء القصور، بل حافظ على

كل ما يسمونه صحة و عافية، و استخدم بالإضافة إلى كل ذلك القواعد الطبيعية و الطبية، و التقليل من المأكل، و المشرب ... و مما تجدر الإشارة إليه ... أن والده الإمام العزيز باللّه توفى و هو فى الثالثة و الأربعين من عمره، و توفى جده الإمام المعز لدين اللّه و هو فى السادسة و الأربعين، و توفى المنصور باللّه و هو فى الثانية و الأربعين، و توفى القائم بأمر اللّه و هو فى الخامسة و الخمسين.

جاء فى أحد المصادر التاريخية: أن رجلا دفع لاغتيال الإمام الحاكم بأمر اللّه ... فتمكن من الدخول عليه ... لأن الإمام الحاكم بأمر اللّه كان يفتح أبواب قصره للناس، و لا يحتجب دونهم ... و عند ما نظر إليه سأله عن حاجته؟ فاضطرب الرجل، و ارتعدت فرائصه، ثم القى المدية من يديه، و شرع بالبكاء، مقرا بذنبه، معترفا بجريمته.

أجل ... ارتقى الحاكم بأمر اللّه ذروة الفضائل حتى بلغ غاية الشرف الكامل، و ظهرت مثاليته، فيما أخذ به نفسه من زهد و تقشف، بالرغم مما ورثه من الملک العظيم، و العز، و الجاه، و النعيم. فلقد رفض هذا النعيم الذى آل إليه من آبائه و أجداده، و تناسى حق نفسه، و حق شبابه و أسرته عليه، فأعتق المماليک و العبيد، و ملكهم أمر نفوسهم، و أعطاهم تعويضات خدماتهم، و عاش كما يعيش أى فرد من رعيته، و ألغى الحفلات العامة، و المآدب الكبرى التى كانت تقام فى قصر الخلافة فى المناسبات و الأعياد، و فى أواخر أيامه كان طعامه و شرابه مقتصرين على ما تدعو الحاجة إليه. و من المشهور عنه أنه نهى عن تقبيل الأرض بين يديه، و لثمها، و الانحناء، أو السجود على الأرض كما ألغى استعمال كلمة «مولانا» و اكتفى بأن يقال له:

«السّلام على أمير المؤمنين و رحمة اللّه و بركاته»

و كذلک منع حرس القصر فقد ألغى مظاهر التكريم، و قرع الطبول، و أداء التحية فى ذهابه، و إيابه.

لم يكن الحاكم بأمر اللّه يعمل على تكديس الأموال فى خزائنه و توفير الأرزاق، و الممتلكات لأفراد عائلته و خاصته. بل كان يأخذ ما تحتويه هذه الخزائن فيوزعها على الفقراء، و المساكين، و المحرومين، و يتكرم بها على كل من يطلبها باستحقاق و كان يحمل كل يوم مقدارا من المال يوزعه على من يعترضه من المحتاجين فى خروجه.

و كان من عادته الجلوس عند نوافذ القصر فى وقت محدّد، فيأتيه الفقراء الذين يعرفون وقت جلوسه، فيغدق عليهم الصدقات و المعونات، و لم يكن يوزع المال وحده بل الكساء أيضا و قيل إنه أمر بصنع قماش شعبى للفقراء كان يسمّى «طراز العامة» و كان مخصصا لهؤلاء الذين عاشوا من هباته، و عطائه. و يروى عنه إنه قال لعمه مرّة:

«يا عم ... أحب أن أرى النعم عند كل الناس ظاهرة، و أرى عندهم الفضة، و الذهب، و الجواهر، و الخيل، و اللباس، و الضياع، و القصور، و أن يكون ذلک كله من عندى».

و قيل إن ناظر المالية توقف مرة عن صرف الإعانات خوفا من اختلال ميزانية الدولة ... فكتب إليه يقول:

«الغربة مذلة الأعناق، و الفاقة مرة المذاق، و المادة من اللّه الرزاق، فأجرهم على عوائدهم فى الإنفاق ... ما عندكم ينفد، و ما عند اللّه باق».

و عرف عن الحاكم بأمر اللّه أنه أعطى الضياع، و العقارات، و الأملاک العائدة ملكيتها للدولة أولا فأولا، و لمن كان يلتمسها من الرعية، و يتعهد بإصلاحها. و دفع الرسوم المترتبة عليها للدولة، كما أمر بالتنقيب، و استخراج الكنوز الدفينة من الآثار المصرية القديمة لصرفها على الناس، و الاستفادة من ثمنها. و يشهد له التاريخ بأن يده لم تمتد طيلة حياته إلى أخذ مال أحد، أو الاستيلاء على أملاک أحد ...

و يروى أن أحد ولاة الشام و هو «جيش بن الصمصامة» أوصى بتركته التى تزيد على المائتى ألف دينار إلى الحاكم بأمر اللّه. فجلبها أبناؤه، و وضعوها أمامه ... فأخذ الإمام الحاكم الوصية و ألقى نظرة عليها، ثم أعادها إلى أبناء الوالى الراحل ... و قال لهم بحضرة وجوه الدولة:

«لقد وقفت على وصية أبيكم رحمه اللّه ... و ما وصّى به إلىّ من عين و متاع و إنى قابل به، و لكنى أتنازل عنه لمن هم أحقّ به منى ... فخذوه هنيئا مباركا هدية منى».

و فوق هذا فقد خفّف الضرائب عن الناس. و سهر على راحتهم، و أبعد الظلم عنهم، و كأنى به كان يفعل ذلک، و لسان حاله يقول:

أصبحت لا أرجو و لا أتقى إلّا إلهى و له الفضل

جدّى نبيّى و إمامى أبى و دينى الإخلاص و العدل

أجل ... كان الحاكم بأمر اللّه جوادا كريما، و إلى جانب الجود، و السخاء، و الزهد فى المال، كان يجانب الخمرة و النساء، و يحرمها على رعاياه، و لم يذكر التاريخ أنه كان فى حياته، و إبّان خلافته يتصف بما يتصف به معظم الطغاة الذين عرفهم التاريخ.

«و على العموم ... فالإمام الحاكم بأمر اللّه كان لغزا يصعب استجلاؤه، و بحرا يستحيل سبر غوره، و عقليته متوقدة عسيرة الفهم. وصفه العلّامة الألمانى «ميكلر» فقال:

«إنه من أعجب، و أغمض الشخصيات التى عرفها التاريخ .. و زاد على قوله: إن من يقرأ أقوال المؤرخين المتأخرين، و أساطيرهم، و رواياتهم، عن الخليفة الفاطمى الإمام الحاكم بأمر اللّه، يصاب بالدهشة و يخرج بنتيجة صحيحة هى:

إنهم لم يفهموه، و اعتبروه مجنونا فقط. و قد جرى رأيهم فيه مجرى الحقيقة، و لكن توجد ثمة شواهد واضحة على أن هذا الأمير هو أعجب من أنجبت أسرته ... فقد كان أشدهم إثارة للأساطير من حوله، و إن حجابا كثيفا قد أسبغ على صورته، فلا نستطيع أن نظفر منها إلّا بلمحات، و من الواضح أن الإمام الحاكم بأمر اللّه لم يكن شخصية وضيعة ساذجة، و إنما كان لغز عصره و فيلسوف زمانه، و ذهنا نيّرا بعيد الغور، وافر الابتكار، جم العطاء، و عقليته سمت على مجتمعها، و تقدمت عصرها، و كان عليها أن تتبوأ مكانها اللّائق فى التاريخ».

و قال المؤرخ المقريزى:

«إن جملة القوانين التى أصدرها الإمام الحاكم بأمر اللّه، جاءت بدافع الشعور الدينى لإصلاح النفوس، و الأخلاق، و تطهيرها من رذائل المجتمع».

و قال ابن خلدون:

«إن ما رمى به الحاكم بأمر اللّه غير صحيح، و لا يقبله العقل السليم».

و قال الدكتور جمال الدين سرور، و هو من المعنيين بالأدب الفاطمى:

«ليس هنالک ما يثبت أن الحاكم بأمر اللّه ذهب فى معتقداته الدينية إلى حد الخروج على قواعد الإسلام».

و قال محمد عبد اللّه عنان ... «دون أن يدرى» و هو من الذين تهجموا على الإمام الحاكم بأمر اللّه و الفاطميين:

«لقد ظلم التاريخ الحاكم بأمر اللّه، كما ظلم غيره من المصلحين، فالحاكم

بأمر اللّه كان مصلحا على طريقته، و كان يرمى بما يصدره من قوانين و أحكام إلى تحقيق غايات خفيت على العامة لأنها تتعلق بسياسة الدولة العليا، و من هنا كان الريب فى حكمتها، و كانت القسوة فى تطبيقها».

و قال عباس محمود العقّاد:

«كان الإمام الحاكم بأمر اللّه يمنع تقبيل الأرض بين يديه، و لا يرضى أن تلثم يداه و ركابه، و أمر ألّا يزيد الناس فى السلام حين يدخلون عليه ... على قولهم:

السّلام على أمير المؤمنين، و رحمة اللّه و بركاته، و هذه فضيلة قلما شاهد العالم الإسلامى ما يماثلها لدى الخلفاء المسلمين الآخرين».

و قال المستشرق الألمانى شتروطمان:

«إن الحاكم بأمر اللّه الفاطمى أعاد إلى أذهان العالم الإسلامى بتقشفه، و بلبسه الخشن من الثياب، و إقلاعه عن الملذات الجسدية، و سهره على راحة شعبه ... سيرة الخلفاء الراشدين العظماء، و خاصة جده الإمام على بن أبى طالب».

و قال الدكتور محمد كامل حسين أستاذ الأدب الفاطمى فى جامعة القاهرة:

«ما أحوجنا إلى حكم تتمثل فيه الجرأة فى الحق، و العدالة، و النزاهة، و الشدة فى تطبيق القانون كحكم خليفة مصر الفاطمى الحاكم بأمر اللّه».

و قال المستشرق دوزى:

«إن قوانين الحاكم بأمر اللّه لم تك سخيفة كما صوّرها لنا الرواة الذين دأبوا أن يقدموا لنا شخصية هذا الخليفة بغير حقيقتها. إنما كان الحاكم أسطورة التاريخ الذى لم يستطع أحد أن يفهم مقاصده، و أن ينفذ إلى واقعه».

و حدثنى المرحوم الدكتور طه حسين أثناء اجتماعى إليه فى القاهرة سنة ١٩٥٨:

«أن التاريخ لم ينصف الإمام الحاكم بأمر اللّه. و أكّد لى: أنه سيتخذ من سيرة حياته الشيقة الغريبة موضوعا لكتاب سيكتبه عنه إذا ما أمدّ اللّه بعمره».

و مهما يكن من أمر ... فإن الحاكم بأمر اللّه، و بإجماع آراء المؤرخين كان عظيما من العظماء، و يكفى أن تكون الدولة الفاطمية قد نعمت فى إبّان حكمه بالرخاء، و الثروة الطائلة، و الازدهار الاقتصادى بما

يفيض عما وصفه المؤرخون، و ذلک لأن الحاکم کان مقتصدا فی النفقات بما ألغاه من المراسیم، و التقالید، و بما منعه من البذخ، و الأبهة.

و هو یعد، الخلیفة المؤمن الذی أحب البساطة فی العیش، و الذی کان یقصده ذوو الحاجات أثناء تجواله سواء فی اللیل، أو فی النهار لرفع الظلامات، و قضاء الحاجات، و الطلبات التی کان یقضیها بنفسه، و کان زاهدا متقشفا فی مظاهره العامة، دؤوبا علی الصلاة، و العزلة، و الانقطاع إلی اللّه.

و من المشهور عنه:

أنه کان یکتفی عند خروجه من القصر بالرکوب علی فرس بسرج، و لجام عادی محلّی، بالفضة، و بنود ساذجة، و مظلة بیضاء بلا ذهب، و عمامة دون جوهر و أنه ترک رکوب العماریات، و الخیل، و البغال المسوّمة مدفوعا بالبساطة، فتارة کان یرکب علی فرس، و تارة علی حمار أبیض.

لقد وصفه بعض الغلاة الخارجین علی سنن الشرائع، و القوانین الإلهیة، بأنه فوق مرتبة البشر و أساؤوا إلیه حین قالوا: إنه متصل بعالم الغیب، و إن روح اللّه قد حلّت فیه ... فحاربهم و استنکر زعمهم، و تبرأ منهم علی رؤوس الأشهاد، نافیا عن نفسه بأن تکون له هذه الصفات، و أکّد أکثر من مرة- لهؤلاء الغلاة بأنه لیس إلّا إماما للمسلمین، و خلیفة للنبیین. فهو مؤمن باللّه، و منقطع لعبادته، و زاهد فی الحیاة ... کما کان جده الإمام علی بن أبی طالب.

و ذکر أحد المؤرخین المصریین:

«أن أمیر المؤمنین قد أسبغ علی الناس نعمه، و لم یوفّر شیئا منها لنفسه، و لم یبخل علی أحد بجزیل عطائه، و لم یشارکهم فی شیء من أحوال هذه الدنیا .. ثم أحیا سنن الإسلام و الإیمان، و بنی المساجد و شیدها، و زخرفها، و أقام الحج و الجهاد. و عمّر بیت اللّه الحرام، و أقام دعائم الإسلام، و فتح بیوت أمواله، و أنفقها فی سبیل اللّه و مرضاته».

الخلیفة الشاب فی وجه الأحداث

لم تکن مصر القاعدة الأولی فی الدولة الفاطمیة فحسب ... بل کانت

أسطع جوهرة فى تاج هذه الدولة، و أعلى ذروة فى بناء الإمبراطورية الكبرى الشاسعة ذات الأطراف الممتدة من المحيط الأطلسى حتى حدود العراق. و قيام الدولة الفاطمية الفتيّة فى هذه البقعة من الأرض، و انتقالها من المغرب إلى مصر يعتبر بداية عصر ذهبى جديد قام على دعائم من القوة، و العزة، و المكانة. فمصر فى عهدها الفاطمى الجديد أصبحت بخصبها و نعمائها، و فيض مواردها أعظم دعامة لدولة الفواطم، بل أعظم قاعدة لهذا الصرح الباذخ المنيف الذى وصف بأنه أزهى عصور مصر الإسلامية، هذا إذا لم يكن أسطعها جميعا، غير أن هذا العصر الذهبى كثيرا ما كان مدعاة إلى التفكير و التأمل ... فبينما نراه وضّاحا، و زاهرا فى بعض نواحيه، نراه مظلما قائما فى بعض الجوانب الأخرى، و ما ذلك إلّا لأن الخلافة الفاطمية كانت غامضة فى كثير من مواقفها، و مترددة فى بعض أعمالها. تتراوح بين القوة، و الضعف، و الهجوم، و الدفاع- الشدة، و اللين- الانتقام، و التسامح، مما يصعّب على المؤرخين استجلاء ذلك الغموض، و قد يكون سبب ذلك مواقف الخلفاء الفاطميين أنفسهم، و تربيتهم، و عبقريتهم، و إجراءاتهم الجديدة، أو قل ثورتهم التى بدت غريبة على المجتمع، و متقدمة على العصر فأعمالهم، و تصرفاتهم، و طريقة حكمهم مدعاة على التساؤل و التأمل، بسبب إشاعة الحكايات، و اختراع الأساطير، و ظهور المعارضة المحافظة، و الرافضة لكل جديد و صالح.

فقصد الإمام الحاكم بأمر اللّه الخليفة الفاطمى السادس كان غامضا، و ما زال العالم حتى فى عصرنا الحاضر يوليه الكثير من الاهتمام، و العناية، و التفكير. فالحاكم بأمر اللّه ولى الخلافة، و له من العمر أحد عشر عاما، و خمسة أشهر، و ستة أيام.

ستّ الملك

ولد للإمام العزيز باللّه من زوجته هذه «أم ولد» ولد سمى لولاية العهد باعتباره الابن الأكبر، و كان يدعى «محمدا» و لكنه توفى فى حياة أبيه، ثم ولد له آخر هو الحاكم بأمر اللّه و بنت هى «ست الملك» ... و هذه الأميرة لعبت دورا مهما فى أحداث مصر فى ذلك العهد، و كانت حازمة، عاقلة، و قوية العزم، بصيرة بالأمور، و كان والدها الإمام العزيز باللّه يحبها و يؤثرها، و يستمع إليها، و يعمل بنصائحها فى كثير من الأمور، و كان لها أيضا بالإضافة إلى كل ذلك أثر بارز فى توجيه

سياسة الخليفة خاصة نحو أخوالها النصارى. فكلما هبّت عواصف السخط و الاضطهاد عليهم ... تدخلت لتلطيف الأجواء، و إزالة الظلم، و إيجاد أجواء التسامح. و هنا نرى من واجبنا أن نقول كلمة ننصف بها هذه السيدة التى تناولها المغرضون بالتهجمات. فقالوا: إنها ابنة الإمام الخليفة العزيز باللّه، و لكن من أم نصرانية، بينما الحاكم بأمر اللّه كان من أم غيرها. و جاء فى

أسطورة ثانية فيها الكثير من المغالطات، و الجهل، بالتاريخ أن «ستّ الملک» ولدت فی المغرب سنة ٣٥٩ ه. و أن والدها الإمام العزيز باللّه جاء بها إلى الديار المصرية عند ما رافق والده الإمام المعز لدين اللّه من المغرب إلى مصر، و حبذا لو أن هؤلاء المؤرخين عادوا إلى صوابهم، و فكروا قليلا قبل إقدامهم على تدوين وقائع التاريخ. فمن الواضح أن ولادة الإمام العزيز باللّه وقعت فی المغرب سنة ٣٤٤ ه. و قدومه إلى مصر حدث سنة ٣٦١ ه.

فمتى تزوج، و كيف أنجب «ست الملک» و هو فی الخامسة عشرة، و قبلها بعامين «الأمير محمد»؟ من جهة ثانية من أين جاء بهذه الفتاة النصرانية القبطية إلى المغرب؟ و كلنا يعلم أن طائفة الأقباط لم يكن لها أی نشاط بارز فی المغرب الإفريقی.

إن التاريخ الصحيح .. يرفض المزاعم التافهة السخيفة التی لا تقوم على أی دليل، و التی ذهبت إلى تشويه التاريخ الإسلامی، و التلاعب بحقائقه و واقعه.

الإمام الحاكم بأمر اللّه هو شقيق «ست الملک» من أم نصرانية مصرية، و ليس فی هذا أی خرق للمبادىء الإنسانية، أو خروج عن دائرة الدين، و الآداب.

أجل ... إن الخليفة الفاطمی الخامس العزيز باللّه منح ولده الحاكم بأمر اللّه ولاية العهد منذ أن كان صغيرا، أی بعد وفاة شقيقه الأكبر «محمد» ... و تذكر المصادر الفاطمية أنه أوصى قبل موته بولی عهده الوحيد ثلاثة من كبار رجال الدولة و هم:

برجوان الصقلی أمينه الخاص، و كبير خزانه ... و الحسن بن عمار وزيره و أمير قبيلة كتامة المغربية، و محمد بن النعمان قاضی قضاة الدولة ... و قد عهد بالوصاية الفعلية إلى الأول و هو «برجوان».

برجوان و بن عمار

كان يلقب «أبو الفتوح» و هو خصی أبيض صقلی من أواسط أوروبا، و هو من «الأرقاء» الذين وفدوا على مصر فی فترات متقطعة، و كانت مهماتهم تنحصر بالخدمة فی قصور الخلفاء، و الأمراء، و قد رباه، و اصطفاه الإمام العزيز باللّه، ثم ولّاه شؤون القصر فی أخريات عمره، و خلع عليه لقب «الأستاذ» كما عهد إليه بمهمات كبرى، و أولاه ثقته، و عطفه، و محبته.

أما الحسن بن عمار فكان رجلا قوی الشكيمة، وافر العصبة، معتزا بنفسه و بإمارته، على «كتامة» و الجيش المغربی، و لكن برجوان بحكم ظروفه، و ظبيعة منصبه فی القصر كان أوثق اتصالا بالخليفة.

فلم يلبث أن نشب الخلاف بين الرجلين، و اشتدت المنافسة بينهما إلى حد الاصطدام الكلامى فى بعض الأحيان.

و كان الحسن بن عمار وقتئذ يتبوأ منصب الوزارة الأولى، و يشرف على شؤون الدولة فالإمام العزيز باللّه هو الذى اعتمده لهذا المنصب، و منحه لقب «أمين الدولة» و هو أول لقب من نوعه فى الدولة الفاطمية، و عند وفاة الإمام العزيز باللّه ظنّ أن الفرصة سنحت له، و أن الجو قد خلا ... فحصر مهمته بإعادة نفوذ المغاربة المسلوب، و إرجاع اعتبارهم إلى سابق عهده و خاصة نفوذ قبيلة «كتامة» الذى تضاءل كثيرا بفعل تدابير الخليفة الإمام العزيز باللّه. و اعتماده قوة ثانية تعيد التوازن إلى الدولة و هى «المشارقة» كما ذكرنا.

و فى تلك الفترة ظهر «ابن عمار» بمظهر الطاغية المتجبر المطلق الإرادة، فكان يدخل القصر، و يغادره ممتطيا فرسه، ملزما جميع الناس بالترجل، و تقبيل ركابه، و أغلق أبواب منزله و لم يفتحه إلّا للخاصة، و الأكابر من بنى قومه، كما أغدق الأموال، و الأعطية على كتامة خاصة، و ولّى أحداثهم وظائف الدولة، و قسّم بينهم سلطاتها.

فعاثوا فسادا فى شؤونها، و مرافقها، و كثر اعتداؤهم على الناس، و على أموالهم ... كل هذا و ابن عمار يساعدهم، و يمدهم، و يغض الطرف عن أعمالهم، و عبثهم، و امتدت يده أخيرا إلى المشارقة. فاتخذ قرارا سريا بإبعادهم، واحدا بعد الآخر، بالرغم من إرادة «ست الملك» التى كانت تتبع سياسة والدها الإمام العزيز باللّه القاضية بالإبقاء على الحالة الراهنة، و التوازن بين الفريقين بالنسبة للدولة.

##PAGE=24##

أدرك برجوان ما يتهدده، و جماعته من المخاطر، فكتب إلى منجوتكين، و استدعاه مع قواته من الشام للوقوف بوجه مؤامرة ابن عمار، و الحد من تصرفاته. و من جهة أخرى فإن ابن عمار علم بما أقدم عليه برجوان للإيقاع به. فأذاع على الناس بيانا بأن منجوتكين قد خرج على الخليفة الحاكم بأمر اللّه، و قام بثورة انفصالية ضد الدولة الفاطمية، و أن بلاد الشام قد خرجت عن حكم خليفة مصر الفاطمى، و أنه فى صدد الزحف إلى مصر بعد إكمال استعداده لإرجاعها، و تأديب «منجوتكين»، و بالفعل جهز جيشا كثيفا من المغاربة، و زحف قاصدا الشام. فالتقى منجوتكين فى عسقلان و دارت بينهما معارك طاحنة انهزم فى نهايتها منجوتكين، و تمزّقت قواته، و لكن ابن عمار رضخ أخيرا لمداخلات ست الملك، و أصدر أمرا بالعفو عن منجوتكين، و إعادة الاعتبار إليه، و كانت خطة «ست الملك» تقضى بالإبقاء على هذا القائد المظفّر الذى انتصر فى أكثر من معركة على الروم.

بعد هذا الحدث الرهيب اشتدّ ساعد كتامة، و بالغ رجالها فى الاستئثار بالسلطة، و النفوذ، و كثر فسادهم، و طغيانهم، و بادر ابن عمار إلى أعوان برجوان فعزلهم عن مناصبهم، و منهم «جيش بن الصمصامة» والى طرابلس فى ذلک الوقت، و عرف الناس فى تلک الأيام أن كفة «كتامة» قد رجحت، و أن نفوذ برجوان، و المشارقة أخذ يتضاءل يوما بعد يوم، و لكن الداهية برجوان صبر على المحنة، و قبع فى مكانه لا يحرک ساكنا، و لكنه فى الوقت نفسه كان ساهرا، و حذرا يرقب ابن عمار، و يتلمس الفرصة السانحة لأخذ الثأر، و إسقاط مخططاته، و عند ما سنحت له الفرصة بدأ يدس الدسائس، و يؤلب زعماء الجند الناقمين، و خاصة المصريين، فلم يمض عام حتى تمكن من تأليف جبهة قوية ضمّت منجوتكين و ابن الصمصامة، و غيرهما من الزعماء الناقمين المعارضين. ثم وقع الانفجار المنتظر حين و ثبت جماعة كبيرة من الجند و الأهلين بتحريض من برجوان على الكتاميين فى ظاهر القاهرة المعزية، و كان ذلک سنة ٣٨٧ ه. فأثخنوا فيهم، مما اضطر ابن عمار إلى الخروج من القاهرة، و التخفى حينا بعد فشله الذريع فى إخماد الفتنة، و إنقاذ جماعته، تاركا الميدان لمنافسه. و هنا قبض برجوان على زمام الأمور، و لكنه خاف من العواقب، و حسب حسابا لعودة المغاربة إلى المسرح من جديد. ففاوض ابن عمار على

الصلح، و عند ما تمّ ذلک ردّ إليه اعتباره، و ولّاه منصبه، و منحه امتيازاته الأولى مصانعة لكتامة، و ضمانة لسكوتها، و نزولا عند إرادة ست الملک، و لكنه فى الوقت نفسه ظلّ مستأثرا بكافة السلطات داخل القصر، و خارجه، و اختار لمعاونته رجلا نصرانيا يدعى «فهد بن ابراهيم» عرف بذكائه، و دهائه، و مقدرته، ففوّض إليه أمر التوقيع، و حل قضايا الناس، بينما لزم هو الخليفة الحاكم بأمر اللّه، و أقام معه بالقصر الحاكمى يسهر على توجيهه، و يستأثر لديه بكل سلطة، و نفوذ، و قد استبدّ بكل أمر فى الدولة، فاستقرت و هدأت فى تلک الفترة.

أجل ... لم يزل برجوان يتقدم فى حكمه، و يتبوأ ذروة القوة، و النفوذ، زهاء عامين و نصف العام، و فى خلال تلک المدة وقعت عدة ثورات، و قامت بعض الاضطرابات فى الشام، و المغرب، و حاول بعض الحكام الإقليميين، و الزعماء المحليين الخروج على الدولة الفاطمية، فسيّر برجوان جيشا إلى الشام بقيادة «جيش بن الصمصامة» فقاتل الثوار فى عدة مواقع، و أخضعهم تباعا، و استعاد دمشق، كما اشتبک مع الروم البيزنطيين فى معارک عديدة شمالى الشام، و كانوا قد انتهزوا فرصة الاضطرابات الداخلية فى قلب الدولة الفاطمية، فأغاروا على الثغور بتأييد من الخارجين، و الحمدانيين، و لكن القائد «جيش» هزمهم، وردهم إلى ما وراء الحدود.

و سيّر برجوان جيشا آخر إلى برقة لقمع الثورة التى أضطرمت فيها من قبل بعض القبائل، فأعاد النظام إليها، و أخضع القبائل الثائرة، و ولّى عليها «يانس الصقلبى» كما عيّن قوادا آخرين من المشارقة بحكم الولايات و الثغور التابعة للدولة الفاطمية مثل

«ميسور الخادم» لطرابلس و «يمن الخادم» لغزة و عسقلان ... و هكذا فعل بالنسبة لمصر، فإنه عيّن العديد منهم فى الوظائف الكبرى و الإدارات العامة، و خاصة فى القصر. و فى تلك الفترة جنح الروم بعد هزائمهم المتكررة إلى السلم، و عقدوا معاهدة صداقة مع الدولة الفاطمية، وقعها الإمبراطور «باسيل الثانى» و قد ذكر أن البطريک أرسانيوس و هو خال الإمام الحاكم بأمر اللّه لعب دورا، بارزا فى هذا المجال.

و نعود إلى الخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه ... فبعد مضى ما يقارب الأعوام الأربعة بدأ يعى ما يجرى حوله .. فكان موقفه من هذه

الأحداث التى تجرى فى دولته بدافع من الطامعين، و الجشعين، و المتآمرين، لا يخرج عن كونه موقف الصبر، و التريث، و مراقبة الأمور بحذر و يقظة شديدين ... فبرجوان كان يحجبه عن الاتصال برجال الدولة المخلصين، و يخفى عليه الكثير الكثير من الشؤون العامة و الخاصة، أما أمّه و شقيقته ست الملک فكانتا ترعيان الفتى، و هو ينمو، و يترعرع فى ظل هذه الوصاية الخطرة، و لكنهما كانتا عاجزتين عن إقصاء برجوان عن الوصاية، لأنه حرّم عليهنّ التدخل فى شؤون الدولة، و حتى الاتصال بأحد من الرجال المخلصين للأسرة الفاطمية، و لكن الشاب النابه شعر أخيرا بخطورة الأحوال، و لم يلبث أن فطن إلى موقف برجوان، و استئثاره بالسلطة، و استبداده بكل شىء و أنه يذهب فى طغيانه و تعسفه حدا بعيدا، و يثير حوله، و فى داخل دولته، الاضطرابات، و القلاقل، و كان هذا يزيد فى عدد خصومه فى داخل البلاد و خارجها، و يعدّهم فى النهاية إلى تقويض سلطانه، و كيانه.

و لكن برجوان من جهته كان يعتقد أن الجو قد صفا و خلا له ...

فاستسلم إلى الراحة، و انكب على ملاهيه، و ملذاته، يقضى أوقاته فى مجالس الأنس، و الطرب، و الغناء، و لم يفطن إلى ما وقع فى نفس الأمير الفتى و ما طرأ عليه من التبديل، و التطور. فاستمرّ يعامله معاملة الطفل المحجور عليه، و يبالغ فى حجبه بحجة حمايته، و الحرص على راحته، و ذهب فى استهتاره إلى حد إهانته فى بعض المواقف، و إهماله و التنكر له، و الاستخفاف به، و كأنى به قد نسى أن «ست الملک» هذه الأميرة القويّة المقيمة فى القصر الحاكمى تراقب الأحداث بيقظة و انتباه، و أنها تأبى أن تجعل من شقيقها دمية يحركها برجوان، كما يشاء، كما كان ابن الأخشيد فى عهد كافور ... و هنا اتخذت قرارا يقضى بقتله، و تخليص الدولة من شروره و آثامه، فأوعزت إلى شقيقها الإمام الحاكم بأمر اللّه أن يستدعى «الحسين بن جوهر الصقلى» قائد القواد، و يعيده إلى منصبه، و كان الإمام العزيز باللّه قد عين الحسين قائدا أعلى للجيش بعد وفاة والده

القائد الكبير جوهر الصقلى، و اصطفاه، و أولاه ثقته و عطفه ... فلما مات الإمام العزيز باللّه أبعده برجوان عن القيادة، و قلّده ديوان البريد و الإنشاء، و عند ما استجاب الإمام الحاكم بأمر اللّه إلى طلب ست الملك أدرك

##PAGE=27##

برجوان أن الأمور انعكست ضده، و أنه أصبح يعيش فى ظل الأخطار، و أن الأمور لم تعد فى صالحه ... فاستعدّ للأمر، و اتخذ الاحتياطات اللازمة التى تكفل له النجاة من المؤامرات التى يحيكها ضده الأعداء.

نهاية الطاغية

فى مساء أحد الأيام ... طلب الإمام الحاكم بأمر اللّه إلى برجوان أن يركب معه فى رحلة للنزهة، و انتظره فى قصر اللؤلؤ ... و هو متنزه خاص بالخلفاء الفاطميين شيّده الإمام العزيز باللّه .. و موقعه على الخليج شرقى البستان الكافورى، و كانوا يصلون إليه من ممر تحت الأرض، متصل بالقصور الأخرى، دون أن يراهم أحد. و أخذ الإمام الحاكم بأمر اللّه معه ريدان- الصقلبى حامل المظلة، و هو من أعدى أعداء برجوان.

و عند ما وصل برجوان إلى القصر تقدّم منه ريدان فقبل يديه و ركبتيه، و اعتذر إليه عن انشغاله عنه، و كان فى الوقت نفسه يتحسّس ثيابه خوفا من أن يكون لابسا درعا من الفولاذ كما هى عادته، فلما تأكد أنه لا يلبس شيئا رماه أرضا، و ضربه بحديدة على قلبه، ثم طعنه طعنة مميتة فى عنقه بسكين حادة، ثم لم يلبث أن انقضّ عليه جماعة كانوا قد أعدّوا خصيصا للفتك به، فأثخنوه طعنا بالخناجر، و احتزوا رأسه، و دفنوه فى المكان الذى قتل فيه، و كان ذلك سنة ٣٩٠ ه. و فى تلك الساعة خرجت والدة الإمام الحاكم بأمر اللّه، و شقيقته ست الملك من القصر خوفا على الإمام الحاكم بأمر اللّه، فأمرهن بالرجوع و لما عاد إلى القصر كان خبر مقتل برجوان قد ذاع فى كل مكان، فاضطرب الناس و هرعوا إلى القصر يستفسرون عن الأمر .. فأشرف الإمام الحاكم بأمر اللّه على الجموع و خاطبهم قائلا:

إن برجوان عبدى .. استخدمته فنصح، فأحسنت إليه، ثم أساء فى أشياء عملها فقتلته، و أنتم ما لكم و لهذا ... ثم توجه إلى المغاربة و قال:

«و الآن أنتم شيوخ دولتى، و أنتم عندى الآن أفضل ما كنتم فيه مما تقدّم» ثم التفت إلى المشارقة، و قال:

«أنتم تربية الإمام العزيز باللّه، و مقام الأولاد. و ما لأحد منكم عندى إلّا ما

##PAGE=28##

يؤثره و يحبه، فكونوا على رسومكم. و انضوا إلى منازلكم». فدعوا له و قبلوا الأرض و انصرفوا.

اتخذ الإمام الحاكم بأمر اللّه سلسلة من التدابير لتوطيد الأمور ..

فاستدعى فهد بن ابراهيم و هدأ من روعه، و أقره فى منصبه، كما أمر بمصادرة أموال برجوان و ثروته و كانت وافرة طائلة و انطوت صفحة الرجل الذى تطاول و شمخ حتى حدثته نفسه بما هو ليس أهلا له.

و هكذا فإن الإمام الحاكم بأمر اللّه، و بعد أربعة أعوام أى لما بلغ الخامسة عشرة استطاع أن يطوى مرحلة الحداثة، و أن يبدأ عهده الفعلى مضطرم النفس و الأهواء، وافر الذكاء، و الجرأة، و العزم، و أخذ ينظر، و يفكر بما تحتاجه دولته، و منها تعيين قائد عام للجيش، و رئيس فعلى للدولة يأخذ صلاحيات برجوان، فوقع اختياره كما ذكرنا على «الحسين بن جوهر الصقلى» قائدا للقواد. فاستدعاه، و خلع عليه، و قلده النظر فى التوقيعات و أصدر أمره أن لا تبلغ إليه المهام، و الظلامات إلّا فى مكتبه فى القصر، و ألّا يقصد أحد داره، و ألّا يخاطب بغير لقبه الرسمى، دونما تعظيم أو تفخيم، و ألّا يمنع أحدا من مقابلة الخليفة، أو الاتصال به. و هكذا أصبح الحسين بن جوهر .. و صهره عبد العزيز بن محمد بن النعمان الذى خلف أباه فى منصب قاضى قضاة الدولة أعظم رجلين فى الدولة الفاطمية.

فى هذه المرحلة ... قبض الإمام الحاكم بأمر اللّه بيديه على شؤون الدولة العليا ... فنظّم مجلسا ليليا كان يحضره أكابر الخاصة، و رجال الدولة، و قواد الجيش و المسؤولون عن المال و الاقتصاد، و كانت الغاية منه دراسة الشؤون العامة للدولة و بحثها و النظر فى الأحداث المستجدة على الساحة، و كانت هذه أول مظاهر تعلّق الإمام الحاكم بأمر اللّه بالليل، و اتخاذه حجابا لستر الأعمال، و الأفعال، و تقرير الأمور، و فى تلك الفترة توفى «جيش بن الصمصامة» والى الشام فعيّن مكانه «فحلا بن تميم». و لما توفى هذا الأخير، عين بعده «على بن جعفر بن فلاح» و هو ابن القائد الذى فتح الشام فى عهد الخليفة الإمام المعز لدين اللّه، و فى تلك الفترة أيضا قرر الإمام الحاكم بأمر اللّه إقصاء الهشارقة عن مراكز الدولة الهامة، و تمكين المغاربة من العودة إلى مناطق النفوذ و الحكم، كما كانوا فى عهد جده الإمام المعز لدين اللّه.

##PAGE=29##

و هذه الخطوة الجريئة كان لا بد منها فى مثل هذه المواقف خاصة، و ذلك لكى يخلص له حكم مصر وحده، و ليستقل بالرأى دون أن يكون هناك من ينازعه الأمر، فأبعد برجوان عن الجيش، و القصر من جهة، و من جهة ثانية كان يخطط للقضاء على

«الحسن بن عمار» زعيم كتامة، و كان مثل برجوان مخربا أنانيا ظالما لا يهمه إلا نفسه ... يساعد المجرمين، و يستأثر بأموال الدولة، و يعتبره الأتراك المشارقة عدوهم الأكبر، فقد كمن له جماعة منهم فى أحد الشوارع و قتلوه .

أشاعت هذه الحادثة الرعب لدى الكتاميين. فتجمعوا و أتوا إلى القصر كاشفين رؤوسهم طالبين من الخليفة العفو، و الأمان، متنصلين من أعمال الحسن بن عمار و من أفعاله و جرائمه. فقبل الحاكم بأمر اللّه التماسهم، و كتب لهم عهدا بذلك ... و من الجدير بالذكر أن الإمام الحاكم بأمر اللّه بعد مقتل برجوان، ولّى ابن عمار الوظائف الرئيسية فى الدواوين و الولايات، و الإدارات، فرجع إلى سابق عهده، فعزل المصريين من وظائف الدولة، و قتل بعضهم. و توقف عن صرف الرواتب للمشارقة. فضلا عن إساءته معاملتهم، مما اضطر أكثرهم إلى الهرب إلى الشام.

اعتبر المؤرخون عصر الخليفة الفاطمى السادس الإمام الحاكم بأمر اللّه، عصرا غنيا بالأحداث، و الاضطرابات الداخلية العنيفة فى المشرق و المغرب، و فى الداخل أحيانا. إذ ترك الإمام العزيز باللّه لولده الصغير الحاكم بأمر اللّه دولة واسعة كبرى مترامية الأطراف تشمل المغرب بتمامه، و مصر، و الشام، و غيرها من الأمصار، فكانت بحاجة إلى المزيد من السهر، و العناية، و التنظيم، و بذل الجهود فى سبيل توطيد الأمن، و الاستقرار ... ففى الشام القرامطة، و الحمدانيون، و القبائل التى تقف إلى جانبهم من جهة، و من جهة أخرى الدولة البيزنطية، أو روما الشرقية التى كانت فى تلك الفترة تحتل مركز القوة، و العظمة و خاصة فى عهد الإمبراطور باسيل الثانى المعاصر للخليفتين الفاطميين العزيز باللّه، و الحاكم بأمر اللّه. فتلك الدولة البيزنطية انتهزت فرصة الاضطرابات التى أثارتها غزوات القرامطة المتكررة إلى الشام، و فلسطين و اضطراب أحوالها، و اصطدام الفاطميين برغبة الأهلين بعدم الرضوخ، و الاستسلام

لدولتهم، فانحدروا إلى بلاد الشام، و مدوا أيديهم إلى داخلها، و شجعوا كل حركة تقوم ضدهم، كما تحالفوا مع «الحمدانيين»، و نتج عن ذلك دخولهم فى معارك و حروب، ذكرنا بعضها فى الأجزاء السابقة.

الفاطميون و الحمدانيون

أما علاقة الحمدانيين بالفاطميين، فكانت فى أغلب المراحل تتسم بالحقد و العداء. و على الرغم من أن الحمدانيين كانوا فرقة شيعية فإن كلا منهما كان يريد الاستئثار بالحكم. فالحمدانيون أخذوا على عاتقهم مهمة الحفاظ على إمارتهم فى حلب، و ما يجاورها، و الفاطميون يهدفون إلى السيطرة التامة على كل بلاد الشام، و خاصة حلب لاتخاذها قاعدة لشن هجماتهم على العباسيين فى بغداد من جهة، و على الروم من جهة ثانية ... و على الرغم من أن الحمدانيين فى بداية، الأمر، تظاهروا برغبتهم

فى مساعدة الفاطميين، و عرضوا ذلک فى كتاب أرسلوه إلى القائد جوهر الذى حوله بدوره إلى الإمام المعز لدين اللّه قبل أن يأتى إلى مصر، و لكن الإمام المعز لدين اللّه لم يقبل هذا العرض فهو يعرف نوايا الحمدانيين، و لا يمكن الاعتماد عليهم ...

فكتب إلى قائدة جوهر الصقلى كتابا أوضح فيه موقفه منهم جاء فيه:

«و أما ما ذكرت من أن جماعة من بنى حمدان، وصلت إليک كتبهم يبذلون الطاعة و يعدون بالمسارعة فى المسير إليک. فاسمع لما أذكره لک:

احذر أن تبتدىء أحدا من آل حمدان بمكاتبة ترهيبا، أو ترغيبا، و من كتب إليک كتابا منهم فأجبه بالحسن الجميل و لا تستدعه إليک و لا تمكن أحدا منهم من قيادة جيش، و لا ملک طرف ... فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم. و ليس لهم فيها نصيب. يتظاهرون بالدين و ليس لهم فيه نصيب، و يتظاهرون بالكرم و ليس لواحد منهم كرم فى اللّه، و يتظاهرون بالشجاعة و شجاعتهم للدنيا لا للآخرة. فاحذر كل الحذر من الاستناد إلى أحد منهم».

و مهما يكن من أمر ... فإن الإمارة الحمدانية فى حلب، و منطقة الجزيرة كانت تشغل مركزا استراتيجيا مهما بين العباسيين و الفاطميين، و قد حرص الحمدانيون على الحفاظ على هذه المواقع للدفاع عن إمارتهم، إذ كانوا يعلمون أن الفاطميين يعملون على السيطرة على كل بلاد الشام، و خاصة حلب و مناطق الفرات، و هذا ما

##PAGE=31##

شجع الحمدانيين على مساعدة القوى المناوئة للفاطميين، و خاصة القرامطة فى عهد الحسن الأعصم، و أفتكين التركى، و ذلک ليحولوا دون نجاحهم فى تحقيق أهدافهم.

و قد ثبت أن صداقة وثيقة قامت بين القرامطة، و الحمدانيين منذ عهد ناصر الدولة بن حمدان، و تدعمت فى عهد ولده أبى تغلب الذى لم يكتف بتقديم الأموال، و المعدات للقرامطة، و إنما قدم إليهم الجنود ...

كل هذا و يجب أن لا يغرب عن بالنا إقدام الحمدانيين على عقد معاهدة مع البيزنطيين و فيها يتجلى غضبهم على الفاطميين.

و نعود إلى ما نحن بصدده ... فقد عرضنا فى الصفحات الأولى تفاقم الأحداث فى الشام فى أواخر عهد الخليفة العزيز باللّه، و اعتزام هذا الخليفة مباشرة الحرب بنفسه، كما فعل عند ما تصدّى لأفتكين و الحسن الأعصم، و لكن الموت عاجله فى بلبيس، و هو على رأس جيشه كما ذكرنا، و بعد هذا الحدث الكبير لم يتمكن الإمام الحاكم بأمر اللّه من إتمام مهمة والده، إذ كان تحت

وصايۀ برجوان، و ابن عمار اللّذين تزعّم كل منهما فرقۀ خاصۀ لمقارعۀ الفريق الثانى، و لم يخطر ببالهما توطيد الأمن فى المناطق الخاضعۀ للدولۀ الفاطميۀ، بل كان همّ كل منهما الانتصار، و سحق عدوه. و قد رأينا كيف انتهى ذلک الصراع المرير الذى كلف الدولۀ الكثير من الأموال، و الضحايا، و أضاع عليها الفرص لإتمام رسالتها بغزو بغداد، و القسطنطينيۀ معا و إقامۀ الإمبراطوريۀ الفاطميۀ الكبرى ... أما الوقائع التى وقعت فى تلک الفترۀ فنلخصها بما يلى:

فى سنۀ ٣٨٨ ه. اضطرمت الثورۀ فى صور ضد الحكم الفاطمى بزعامۀ بحار مغامر يدعى «علاقۀ» فقبض على زمام الحكم فيها، و ضرب السكۀ باسمه، و نقش عليها هذه العبارۀ: «عز بعد فاقۀ للأمير علاقۀ».

و ثار فى الرملۀ فى الوقت نفسه زعيمها «المفرج بن دغفل الجرّاح».

فأرسل برجوان إلى فلسطين جيشا كبيرا بقيادۀ «جيش بن الصمصامۀ»، و جيش هذا كان جنديا جريئا باسلا و قائدا مشهودا له بالذكاء و المقدرۀ، و هو من زعماء كتامۀ المغربيۀ الذين انضموا إلى برجوان ضد ابن عمار الذى كان ينافسه، فسار إلى الرملۀ و استولى

##PAGE=32##

عليها، و أخضع ثوارها، و طارد المفرج، و ضيّق عليه حتى أذعن أخيرا لطلب الأمان، فعفا عنه، و أمنه، و من هناک توجه إلى صور، و كان علاقۀ قد استنجد بالإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى، و وعده بتسليم صور إليه، فاستجاب إليه . و أرسل المدد فى البحر، و لكن وحدۀ من الأسطول الفاطمى أعطيت الأوامر بالتصدى للبيزنطيين، فسارت إلى صور بقيادۀ الحسين بن ناصر، وفائق الخادم، فحاصرا صور من البر و البحر، و نشبت بين الفريقين معارک عنيفۀ انتهت بانتصار الجيش، و الأسطول الفاطمى، و سقطت صور فى أيديهم، و أسر «علاقۀ» الذى أرسل فيما بعد إلى القاهرۀ حيث أعدم. و مما تجدر الإشارۀ إليه ... أن أكثر سفن الأسطول البيزنطى وقعت فى أسر القوات الفاطميۀ، و كان ذلک سنۀ ٣٨٨ ه.

أما عن علاقۀ بنى الجرّاح الفلسطينيين بالفاطميين ... فهى علاقۀ متقلبۀ لم تكن تثبت على حال ... فتارۀ كانوا يقفون إلى جانب الفاطميين، و يساعدونهم فى حروبهم، و تارۀ أخرى ينضمون إلى أعدائهم، و سبب ذلک رغبتهم الحصول على المال بأيۀ طريقۀ كانت.

و يجب أن لا ننسى أن زعيمهم حسّان بن الجرّاح رافق الحسن الأعصم القرمطى فى هجومه على مصر. و لما أغراه الإمام المعز لدين اللّه بالمال ترک حليفه، و كان سببا فى هزيمته، و من جهۀ أخرى ... فإن هذه القبيلۀ استغلّت فيما بعد وفاۀ الخليفۀ

الفاطمى الحاكم بأمر اللّه، فهاجم أفرادها أطراف البلاد المصرية حتى وصلوا إلى الفرما- و عاودوا الكرة مرة ثانية سنة ۴۱۵ ه. حين اختلفوا مع أنوشتكين الذى جاء إلى فلسطين كوال من قبل الفاطميين. فهاجموه، و اضطروه إلى الهرب ثم زحفوا حتى وصلوا إلى العريش.

لقد كانت العوامل العامة، و الخاصة هى التى تدفع بنى الجراح إلى الوقوف هذا الموقف أثناء حكم الفاطميين لبلاد الشام، فقاموا بثورات فى الرملة و طبرية، و كانت علاقتهم بالفاطميين على وجه العموم تتأرجح بين العداء و الصداقة. فمرّة يساعدونهم، و مرّة أخرى يقفون فى وجههم و ينضمون إلى أعدائهم، متبعين فى ذلک ما تمليه عليهم مصالحهم الذاتية، و خاصة المادية منها و قد ثبت أن الإمام الحاكم بأمر اللّه استعان بمفرج بن دغفل بن الجرّاح فى حروبه مع أبى ركوة فى المغرب، و قد استجاب مفرج لطلب الإمام الحاكم بأمر اللّه، و أرسل

أولاده الثلاثة على رأس أعداد كبيرة من العرب المحاربين الذين قدر عددهم بستة عشر ألف من الفرسان و المشاة.

أما جيش بن الصمصامة ... فقد سار من صور باتجاه دمشق، و كان عليها سليمان بن جعفر الابن الثانى للقائد جعفر بن فلاح فاتح الشام على عهد الخليفة الإمام المعز لدين اللّه، و كان الحسن بن عمار قد عينه عليها إثر انتصاره على منجوتكين و اليها السابق، فنزعه جيش من الولاية و أجبره على الفرار، ثم عمل على قمع الفتنة التى أثارها سليمان فى دمشق قبل فراره ... و بعد أن وطّد سلطة الدولة، و اصل سيره إلى «أفاميا» و هى بلدة على مقربة من مدينة حماه، و هناک التقى بالروم، فنشبت بينهما معركة كبرى هزم فيها الفاطميون فى اليوم الأول ...، و فى اليوم الثانى صمدت فى وجه الروم كوكبة من الفرسان بقيادة «بشارة الإخشيدى» و تمكن أحد الجنود الفاطميين الفدائيين من اختراق الصفوف، و الحواجز، و الوصول إلى المعسكر البيزنطى، و الوثوب على قائد جيشهم المسمّى «الدوقس» فقتله. و على إثر ذلک وقع الاضطراب، و عمّت الفوضى صفوف الروم، فاتخذها الفاطميون فرصة سانحة لتعديل مواقفهم، فحملوا حملة بارعة عليهم، و مزقوهم شر ممزق، و ظلوا يطاردون فلولهم المشردة حتى أبواب أنطاكية. و من الجدير بالذكر أن أبناء «الدوقس» و كبار القواد، قد أسروا فى تلک المعركة، و أرسلوا إلى مصر .. و كان ذلک سنة ۳۸۹ ه ثم افتدتهم حكوماتهم بعد ذلک.

بعد هذه الانتصارات الحاسمة، عاد جيش إلى دمشق، و عسكر فى ظاهرها، فلاحق العصاة، و المخالفين، حتى قبض عليهم. و بسط حكم القانون على المدينة، بيد أنه لم يلبث أن اضطر إلى مواجهة خطر الروم البيزنطيين مرة ثانية، و ذلک أن باسيل الثانى لما رأى باسيل ما حلّ بجيشه من الفشل، و الهزيمة ... قرّر أن يسير إلى الشام بنفسه، فجاء و عاث فسادا و خرابا فى ساحلها ما بين بيروت و اللاذقية، و هنا استصرخ «جيش» الدولة الفاطمية، فأرسلت إليه المدد من كل صوب، و كان باسيل قد قصد

طرابلس عازما على احتلالها ... و لكن «جيش» أعدّ كل شيء للقائه، و نشبت بينهما معارک عنيفة فی البر و البحر. و تشاء الظروف أن تصل إلى باسيل و هو فی غمرة الصراع أنباء مزعجة عن تحركات «بلغارية» على حدود دولته،

##PAGE=34##

فاضطرّ إلى الارتداد ميمما و جهة الشمال، و فی تلک الفترة مرض «جيش» و توفی سنة ۳۹۰ ه فخسرت الدولة الفاطمية ألمع، و أخلص قائد فاطمی بعد جوهر الصقلی و خلفه «فحل بن تميم» فی ولاية الشام. فساد الهدوء و الاستقرار حينا من الزمن.

أما برجوان فقد رأى أن يهادن الروم لكی يتفرغ لمعالجة الأحداث الداخلية، و القلاقل التی تفاقمت بسبب مواقف الحسن بن عمار.

فأرسل إلى الإمبراطور باسيل يقترح عليه عقد الصلح و المهادنة فاستجاب لدعوته، و أرسل سفيرا من قبله إلى القاهرة حيث انضمّ إليه بطريرک القدس «أريسطيس» منتدبا من قبل ابن شقيقته الإمام الحاكم بأمر اللّه، و بعد إتمام المفاوضات، و الاتفاق على الشروط، سافر البطريرک إلى القسطنطينية للتوقيع على بنود المعاهدة مع القيصر، و هذه المعاهدة حددت مدتها بعشر سنوات. أما أريسطيس فأقام فی عاصمة بيزنطة كسفير للفاطميين مدة أربعة أعوام حتى توفی فيها.

هذا فی المشرق، أما فی المغرب فقد عصفت بالدولة الفاطمية آنئذ العواصف، و خاصة فی طرابلس الغرب التی أعلنت الثورة على الدولة الفاطمية. فأرسل برجوان قوة كبيرة بقيادة «يانس الصقلی» لإعادة سلطة الخلافة الفاطمية ... و من الجدير بالذكر أن المغرب الأدنى المؤلف من مدينتی طرابلس، و برقة، و ما يتبعهما كانتا فی ذلک الوقت تحت حكم «باديس بن منصور الصنهاجی» ... و غير خاف على متتبع التاريخ الفاطمی ... أن الخليفة الرابع الإمام المعز لدين اللّه حينما ترک المغرب قاصدا مصر سنة ۳۶۱ ه. استخلف على المغرب «يوسف بن زيری الصنهاجی» أو «بلكين» كما كانوا يسمونه، فقام بمهمته على أكمل وجه، وساس أمور الدولة بحزم، و وطّد سلطان الحكم، و لكنه فی أيامه الأخيرة طلب من الخليفة الإمام العزيز باللّه أن يضيف إليه ولاية طرابلس الغرب، و كان الإمام المعز لدين اللّه قد أراد الاحتفاظ بها، و ضمها إلى مصر، فأجابه الإمام العزيز باللّه إلى ملتمسه، و استخلفه عليها، و لما توفی بلكين خلفه ابنه المنصور، فأقرّه أيضا الإمام العزيز باللّه إلى ولايته الجديدة، ثم خلف «باديس» والده المنصور سنة ۳۸۶ ه. فبعث إليه الإمام الحاكم بأمر اللّه بالعهد، و الخلع المعتادة ... فجدّد البيعة للإمام الخليفة، و لكن يبدو أن آل

##PAGE=35##

زیری طمحت نفوسهم، و أرادوا أن یستأثروا بالسلطة کاملة، و أن یجعلو من الفاطمیین فی المغرب مجرد اسم لا صلاحیات لهم، و لا وجود، و لما کانت طرابلس الغرب تجاور مصر من ناحیة الغرب، فإن الفاطمیین خافوا علیها من أطماع أولئک البرابرة الأشداء الطامعین، و لذلک قرر برجوان استردادها و تحصینها، و إقامة فرقة من الجیش فیها حتی تصبح درعا یقی مصر شر العدوان و الغزوات المحتملة، فتفاهم مع حاکمها المغربی، و بعث إلیها «یانس الصقلی» کما ذکرنا، و لکن بادیس استراب بتلک الحرکة المفاجأة، و بعث الجند لمقاتلة یانس الذی لم یستطع الصمود. فانهزم فی أول معرکة و سقط قتیلا، فاضطر الإمام الحاکم بأمر اللّه إلی إرسال جیش آخر بقیادة یحیی ابن علی الأندلسی، فخاض مع المغاربة معارک عدّة اضطر فی نهایتها إلی الانسحاب، و ترک طرابلس و بعد خطوب، و أحداث، و مناورات، استطاع بادیس أن یستعیدها، و أن یبسط حکمه و سلطته علیها.

عودة الی الشام[٢]

بعد أن قبض الخلیفة الإمام الحاکم بأمر اللّه علی زمام الأمور فی الدولة الفاطمیة، توفی «فحل بن تمیم» والی الشام، فعیّن مکانه «علی ابن جعفر بن فلاح» ثم عین بعده تموصلة بن بکار سنة ٣٩٣ ه.

فتوفی بعد مدة قصیرة، فخلفه «مفلح اللحیانی» الذی تمکن من إعادة الهدوء، و الاستقرار إلی بلاد الشام، و خاصة بعد عقد المعاهدة الفاطمیة، البیزنطیة، کما ذکرنا، و لکن فی سنة ٤٠٠ ه. عادت الاضطرابات من جدید، و نقم الإمام الحاکم بأمر اللّه علی آل المغربی، و هم أسرة قویة من الأعیان و الوزراء کان لها شأن یذکر فی الدولة الفاطمیة، ففرّ عمیدهم الوزیر أبو القاسم بن المغربی إلی الشام، و کان کبیرهم أبو الحسن بن علی المغربی قد خدم الخلیفة الإمام العزیز باللّه وزیرا فی الشام أیضا، کما اشترک فی محاربة بنی حمدان أمراء حلب. و لما تولی الإمام الحاکم بأمر اللّه الخلافة- و کان أبو الحسن و ولده أبو القاسم و هما من جلسائه و خاصته، قد اشترکا فی موآمرة ترمی إلی الإطاحة بالحکم- حکم علیهما بالموت، و لکنهما فرا

قبل تنفیذ الحکم، و لجآ إلی حسان بن مفرج بن الجرّاح زعیم عرب فلسطین، فأغریاه بالخروج، و الثورة، و کان موقف آل الجرّاح متأرجحا بین التأیید و المعارضة فثار حسان، و زحف علی الرملة، و استولی علیها، و قتل والیها، کما عاث جنده فسادا

[٢] (*) راجع کتاب 5 الحاکم بأمر اللّه، محمد عبد اللّه عنان.

فيها، و اجتمع التمردون آنئذ، و اتفقوا على استدعاء الحسين بن جعفر الحسينى أمير الحرمين، و المناداة به خليفة، علويا مكان الإمام الحاكم بأمر اللّه، و أطلقوا عليه اسم: أمير المؤمنين ... الراشد لدين اللّه.

فنزع هذا ما كان بالكعبة من ذهب، و فضة، و ضرب نقودا باسمه، و أوعز إلى أبى القاسم المغربى لتحريض سائر القبائل الحجازية على خلع طاعة الفاطميين، و سار فى جمع كبير منهم إلى الرملة .. و هنا اضطر الإمام الحاكم بأمر اللّه إلى إرسال الجيوش إلى فلسطين بقيادة «يارتكين» العزيزى، فهزم، و أسر ثم قتل. و بعد ذلك استفحل أمر بنى الجرّاح، و بسطوا نفوذهم على جنوبى الشام، و حاصروا حصون السواحل، فرأى الإمام الحاكم بأمر اللّه أن يأخذهم باللين، و المصانعة، و بعث إليهم الأموال، و التحف، و الهدايا، فاستجابوا إليه، و عقدوا الصلح، و عادوا إلى الطاعة، أما الحسين بن جعفر الحسينى، فرجع إلى مكة خوفا من سوء العاقبة بعد أن اعتذر إلى الإمام الحاكم بأمر اللّه، فقبل اعتذاره. ثم إن الحاكم بأمر اللّه رأى أخيرا أن يستميل آل المغربى إليه، فأصدر أمانا للوزير أبى القاسم، و لكنه آثر المضى، و الإقامة فى بغداد ... و هكذا عاد الهدوء و عادت السكينة إلى بلاد الشام.

... و كان سقوط حلب فى أيدى الفاطميين، و زوال إمارة بنى حمدان من أعظم الأحداث فى عصر الإمام الحاكم بأمر اللّه. فبنو حمدان كما ذكرنا، استعانوا بالبيزنطيين للإبقاء على إمارتهم و سلطانهم.

و استمروا فترة يؤدون الجزية لإمبراطور القسطنطينية. و لم يفلح الفاطميون فى عهد العزيز باللّه فى فتح حلب.

و لكن الصلح الذى عقده برجوان مع البيزنطيين، أرسى قواعد الهدوء فاستتب الأمن فى شمالى الشام. و نجت الإمارة الحمدانية من الفاطميين و لو إلى حين.

و من الأحداث البارزة فى ذلك العهد أن أمير حلب فى أوائل عهد

الإمام الحاكم بأمر اللّه كان «أبا الفضائل بن حمدان» الملقب ب «سعد الدولة» و هذا الأمير الحمدانى استمرّ فى حكمها بمعاونة وزيره المشهور لؤلؤ ... و لما توفى سعد الدولة، وثب لؤلؤ على ولديه أبى الحسن، و أبى المعالى. و انتزع الولاية لنفسه منهما و حكم باسمهما، ثم نقل الحكم إلى أسرته، فأرسل ولدى سعد الدولة مع سائر أفراد البيت الحمدانى إلى القاهرة تقربا إلى الفاطميين و اتقاء لخصومتهم».

توفى لؤلؤ عام ۳۹۹، فخلفه ابنه منصور الذى اعترف بسلطان الخليفة الحاكم بأمر اللّه، و أقام الدعوة له سنة ۴۰۲، و لقبه الإمام الحاكم بمرتضى الدولة. و بهذا العمل وصل نفوذ الفاطميين إلى حلب مما ساعد على إزالة سلطة الحمدانيين عنها.

قاوم أهل حلب حكم منصور لجوره و عسفه، و لما عجز عن الاحتفاظ بسلطانه فى حلب رحل عنها إلى أنطاكية، فتسلم نواب الخليفة الحاكم بأمر اللّه حكم حلب، و فى عام ۴۰۷ أسند الخليفة الحاكم ولايتها إلى أمير من بنى حمدان يدعى عزيز الملك فاتك، فاستمر فى حكمها تحت طاعة الإمام الحاكم حتى وفاته سنة ۴۱۱ ه، بعدئذ استأثر بحكم حلب لنفسه، غير أن غلاما له يسمى بدرا قتله و حلّ محله فى حكم حلب ثم سلمها فيما بعد إلى الخليفة الظاهر، و بذلك انتهى سلطان الحمدانيين فى بلاد الشام.

ثورة أبى ركوة

إن أعظم حدث وقع فى مصر الفاطمية فى عهد الخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه و أشده خطرا على كيان الدولة هو قيام ثورة «أبى ركوة» و غزواته لمصر ... تلك الغزوات التى كادت تزعزع أسس الدولة الفاطمية، و تقضى على الخلافة الحاكمية الفاطمية. و المطلعون على أحوال تلك الفترة يقولون إن أبا ركوة قد أعاد للأذهان ثورة «أبى مخلّد بن كيداد الخارجى» فى المغرب فى عهد الخليفتين الفاطميين، القائم بأمر اللّه، و المنصور باللّه.

ينحدر أبو ركوة من سلالة الأمويين الأندلسيين. و ذكر: بأن سبب التسمية تعود إلى أن أبا ركوة كان يحمل بصورة دائمة ركوة ماء لوضوئه و ذلك حسب الطريقة الصوفية. أما سبب مجيئه إلى الشرق فغير واضح، فحينما حجر المنصور بن أبى عامر– الملقب بالقائد،

و المتغلب على حكومة قرطبة فى عهد الخليفة هشام المؤيد باللّه الأموى و تتبّع زعماء بنى أمية و فروعهم، و ذلك للتخلص منهم، فرّ «الوليد» أبو ركوة فيمن فرّ من أعضاء أسرته خوفا من القتل، و كان عند مغادرته لقرطبة فى نحو العشرين من عمره. فاجتاز المغرب الأقصى، و أقام فى القيروان حينا يعلم الصبيان، ثم سار بعد ذلك إلى مصر فدرس فيها الحديث، ثم نزح إلى برقة، و استقرّ فى بطون «بنى قرة» و هى أقوى قبائلها العربية، و هناك افتتح مدرسة لتعليم الصبيان، و اتشح بثوب من الورع و التقوى، و اجتذب إليه الناس بما كان يظهره من النسك، و الوعظ، و ذلاقة اللسان، و نبل الأخلاق.

إن بعض المؤرخين يشك فى نسبته للأمويين، و يؤكد أنه من الخوارج، أو من بقايا فروع أبى مخلّد بن كيداد الذى تقدم ذكره.

و مهما يكن من أمر، فإنه لما قطع مرحلة التجوال و الدرس و الاتصال ... رأى أنّ الفرصة أصبحت سانحة للعمل و للدعوة ...

فكشف عن شخصه، و أظهر نسبته مدعيا أنه ابن أخى هشام المؤيد الأموى، و زعم أنه يملک مصر، و يقيم الإمامة على أسس من التقوى و العدل ... و من المعروف ... أن بلاد المغرب، و قبائله الساذجة كانت دائما و أبدا مهدا خصبا لبث الدعوات الدينية، و الاستجابة إليها.

فاستجاب إليه بنو قرة، و التفّ حوله البدو القاطنون فى أنحاء برقة ..

هذا و يجب أن لا نغفل حوادث بنى قرّة و ما أصابهم من الضغط و المطاردة و الإرهاب فى عهد الإمام الحاكم بأمر اللّه، و كان قد أمر بقتل البعض منهم، و سجن البعض الآخر ... و هذا ما جعلهم يستجيبون إلى أبى ركوة بمجرد أن دعاهم، و هكذا هرعت بطون برقة و قبائلها من سائر النواحى يستجيبون له و اتفقوا على أن يكون لأبى ركوة، و أنصاره ثلث الغنائم، و لبنى قرّة و حلفائهم الثلثان.

فى هذه الأثناء شعر والى برقة من قبل الفاطميين «إينال الطويل» بخطورة هذه الثورة الصارمة، فهمّ بقمعها قبل استفحال شرها، فأبو ركوة لم يتوقف، بل بادر إلى تعبئة قواته، و تزويدهم بكافة المتطلبات القتالية، و بعد أن أتمّ كافة استعداداته، زحف بجيشه على برقة. فخرج قائد حاميتها «إينال» للقائه، و اقتتل الفريقان قتالا ضاريا فى «رمادة». و بالنتيجة هزم جيش إينال هزيمة منكرة و استولى

«أبو ركوة» على خيول أعدائه و سلاحهم، و دخل برقة ظافرا، و بسط حكمه عليها دون معارضة، و كان ذلک سنة ٣٩٥ ه.

احتل «أبو ركوة» برقة، و بادر إلى قطع الدعوة الفاطمية من الخطبة، و التشهير بائمّة الفاطميين و لعن الحاكم بأمر اللّه و آبائه، و تلقّب بالثائر باللّه و ضرب السكّة باسمه، و دخلت الناس فى طاعته، لما أظهره من عدل، و لتفنّنه فى الكلام.

بادر الحاكم بأمر اللّه. و قد أقلقته أنباء برقة، فأرسل الإمدادات إلى إينال فخرج أبو ركوة للقائه فالتقى الفريقان فى واد قفر، و كان ثوار أبى ركوة قد طمسوا آباره. فأجهد العطش جيش الفاطميين، و وقع ما لم يكن يخطر على بال حينما أخذ عدد من الضباط المغاربة، و المصريين الناقمين على حكم الإمام الحاكم بأمر اللّه يتسللون إلى جيش أبى ركوة معلنين رغبتهم بالانضمام إلى قواته لمحاربة الفاطميين، فازداد بهم قوة على قوة.

دارت الدائرة على الجيش الفاطمى– للمرة الثانية. فمزقوا شر ممزق، و فى نهاية المعركة أسر قائدهم إينال و أعدم. و عاد أبو ركوة إلى برقة يجرّ أذيال النصر، و قد امتلأت يداه بالغنائم و الأسلاب.

فاستفحل أمره، و ازدادت هيبته، و سلطانه، و أخذ، بعد تلك الانتصارات السريعة، يتطلع إلى امتلاك مصر. و شجعه على ذلك عدم استقرار الأمور داخل الدولة الفاطمية، و فرار بعض القادة العسكريين، و الزعماء الناقمين على سياسة الإمام الحاكم بأمر اللّه و التحاقهم بأبى ركوة أمثال «الحسين بن جوهر الصقلى» قائد قواد الجيش الفاطمى الذى فرّ من القاهرة، و لجأ إلى طرابلس الغرب فى ظروف غامضة، و كان زعماء المغاربة فى تلك الأثناء قد نزعوا ثقتهم من الإمام الحاكم بأمر اللّه، و أخذوا يتربصون به و يخططون للقضاء على الدولة التى رعتهم، و وفرت لهم أسباب الحياة الراغدة.

أما أبو ركوة، فقد اتخذ من كل هذا مادة لبناء قواته، و فرصة سانحة لإرسال سراياه إلى الصعيد أولا، فعاثت فسادا فى القرى و المزارع، و نهبتها، و قتلت أهلها، و لم تلق أية مقاومة، و عند وصوله إلى هذه النقطة، وجد أن الطريق إلى مصر أصبح مفتوحا فاندفع بجموعه الثائرة نحو داخل الصعيد، و فى تلك الفترة اتفق مع شركائه على

اقتسام تراث الدولة الفاطمية، فجعل من مصر دولة تابعة له، و خصّ عرب بنى قرة بالشام.

لم يهن الإمام الحاكم بأمر اللّه، و لم تضعضعه الأحداث، و وصول أبى ركوة إلى صعيد مصر، و إنما اقض مضاجعه الخيانة الكبرى التى اقترفها قائد القوات «الحسين بن جوهر» و بعمله هذا ضرب الرقم القياسى بالخيانة، كما سبق لوالده أن ضرب المثل بالإخلاص للدولة الفاطمية.

و لم يكن زحف أبى ركوة على مصر و تهديدها أقل خطرا من زحف القرامطة على القاهرة، و هجوم الخوارج على «المهدية» فى عهد الخليفتين الفاطميين المنصور باللّه، و القائم بأمر اللّه، و لكن القوى الثلاث كان ينقصها فى كل مرة النظام، و الوحدة، و التناسق فى الرأى، و العمل، و القيادة الحكيمة، و فقدان الهدف ... أضف إلى ذلك أن جيش أبى ركوة كان خليطا من البدو، و المرتزقة، و المتعصبين الذين لا تربطهم أية رابطة سوى رابطة النهب، و السلب.

عمل الإمام الحاكم بأمر اللّه على استقدام الجيش الفاطمى الذى كان يتمركز فى الشام، كما طلب من بنى الجرّاح الفلسطينيين إمداده بقوة من عربهم، فاستجابوا لطلبه، و أرسلوا إليه ألوف الفرسان الذين انضموا إلى الجيش الفاطمى الذى عهد الحاكم بأمر اللّه بقيادته العامة إلى «الفضل بن عبد اللّه» و هو من القواد المجربين، فزحف سنة ٣٩٦ ه باتجاه «كوم شريك» و هى قرية تقع على مقربة من الإسكندرية، و هناك التقى بأبى ركوة فدارت بين الفريقين معارك طاحنة قتل فيها أعداد من الجانبين لا تحصى،

و لما رأى الفضل كثرة جموع الغزاة و شجاعتهم، لجأ إلى الخديعة، و تفاهم مع بعض زعماء بنى قرة بعد أن منحهم الأموال، و العطايا بطريقة سرية ليكونوا له سندا، و ليتجنبوا القتال ما استطاعوا، و استمرّت المعارك بين الفريقين، و لم ينفع خروج ذلك العدد من بنى قرة من الميدان.

رجحت كفة المهاجمين الغزاة. فارتدّ الفضل بجيشه صوب القاهرة، و عند وصول الأخبار إلى العاصمة الفاطمية، ذعر الناس، و سرى الخوف، و كان أبو ركوة حينئذ قد بلغ صحراء الهرم ... و هنا أرسل الإمام الحاكم بأمر اللّه جيشه الاحتياطى، و عهد بقيادته إلى «على بن

جعفر بن فلاح» و لكنه و منذ المعركة الأولى لم يستطع الثبات أمام الجحافل الزاحفة المندفعة ... و عند عودته ... كان الإمام الحاكم بأمر اللّه قد أعاد تنظيم جيش الفضل من جديد، فأمره بالتصدى للجيوش الزاحفة. و فى هذا الوقت، و لأسباب لم تعرف بعد ارتدّ أبو ركوة صوب صحراء الفيوم ... فتبعه الفضل بقواته، بعد أن كان قد نظمها تنظيما دقيقا، و عززها بالمدد، فاستؤنف القتال، و دارت رحى المعارك بضراوة.

كان لا بد لأبى ركوة من خوض المعركة الأخيرة التى أعدها، و جهّز لها الفضل كل شىء، و فى نهايتها هزم أبو ركوة. و تمزقت جموعه، و لكن الفضل لم يترك لها الفرصة لإعادة تجمعها فتبعها، و سدّ عليها منافذ الهرب، و فى تلك الفترة كان يرسل للقاهرة برؤوس القواد، و الزعماء، الذين خانوا مصر الفاطمية، و فضلوا اللجوء إلى الثوار. أما أبو ركوة فقد ارتد جنوبا، و لكن الفضل ظلّ يطارده حتى حدود بلاد النوبة و هناك قبض عليه، بفضل معونة ملك النوبة روفائيل، فحمله إلى القاهرة أسيرا.

بعد تلك الانتصارات الحاسمة التى حققها القائد فضل ... كان لا بدّ له من الرجوع إلى القاهرة. فخلع عليه الخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه، و غمره بعطفه، و أقيمت الاحتفالات، و المهرجانات فى طول البلاد و عرضها. أما أبو ركوة، فجىء به إلى الإمام الحاكم بأمر اللّه، و عند ما وصل خرّ ساجدا، و قبّل الأرض، و التمس الصفح، و قدّم إليه رقعة عليها هذه الأبيات:

فررت فلم يغن الفرار و من يكن — مع اللّه لم يعجزه فى اللّه هارب

و و اللّه ما كان الفرار لحاجة — سوى فزع الموت الذى أنا شارب

و قد قادنى جرمى إليک برمتى — كما خرّ ميت فى رحى الموت سارب

و اجمع كل الناس إنک قاتلی فيا ربّ ظن ربما فيک كاذب

و ما هو إلّا الانتقام و ينتهی و أخذک منه واجب لک واجب

بيد أن الإمام الحاكم بأمر اللّه لم تأخذه بالثائر أية رأفة، فأمر بمعاقبته و التنكيل به، باعتباره سبب خراب العديد من المدن، و القرى، و تشريد سكانها، فضلا عن الضحايا التى سقطت فى ميادين القتال ... مضافا إلى ذلک تكبيد الدولة الفاطمية الأموال،

##PAGE=42##

و نفقات القتال، و الأنكى من كل هذا إعادة لعن «أهل البيت» على المنابر، فطيف به فى شوارع القاهرة فى هيئة زرية. و من ورائه «سعدان» مدرّب يصفعه كلّما رفع رأسه، و لما مرّ الموكب بمنظرة الذهب حيث كان الإمام الحاكم بأمر اللّه جالسا مع أركان الدولة لمراقبته، استغاث أبى ركوة بالحاكم بأمر اللّه، فلم يصغ إليه ...

و هكذا لم يصل إلى ظاهر القاهرة إلّا جثة هامدة و هناک قطع رأسه و صلب فى الميدان الكبير. و أسدل الستار على الشخصية المقامرة التى أقضت مضاجع الدولة الفاطمية.

باديس يحافظ على ولائه

و ننتقل ... بعد هذا العرض إلى المغرب، لنرى موقف حكامه آل زيرى المنتدبين من قبل الفاطميين. فهؤلاء لم تذكر المصادر التاريخية أنهم تحمسوا للفاطميين، أو ناصروهم أثناء ثورة أبى ركوة، بل كان موقفهم يكتنفه الغموض و التريث. و أغلب الظن أنهم كانوا يرغبون، و يتمنون سقوط دولة الإمام الحاكم بأمر اللّه، و ذلک لكى يصفو لهم جو المغرب ... هذا من جهة و من جهة ثانية، فإنهم فى تلک الفترة لم يخفوا امتعاضهم من معاملة الخليفة الفاطمى للمغاربة خاصة، فقد ذكر أن «باديس بن زيرى» لما وصل إلى القاهرة سنة ٣٩٦ ه و كان فى طريقه إلى الحج، و كانت ثورة أبى ركوة فى تلک الفترة على أشدها، جلس فى حضرة الإمام الحاكم بأمر اللّه فسأله عن رأيه فى أبى ركوة؟ فعظم باديس حاله، و ذكر قواته، و كثرة جموعه ... و كان الإمام الحاكم بأمر اللّه يصغى إليه، و هو صامت لا يردّ. و عند أوبته من الحج أخرّه الحاكم بأمر اللّه بضعة أيام فى القاهرة، ليشهد الأفراح التى أقيمت بمناسبة الانتصار على أبى ركوة، و ليرى بعينه مصير هذا الثائر العنيد المتعصب ... و كان الإمام الحاكم بأمر اللّه يقصد من ذلک إدخال الرهبة إلى قلبه، و إعطاءه درسا مبطّنا عن مصير كل من تحدثه نفسه بالخروج على إرادته. و عصيان أوامره.

و مهما يكن من أمر ... فإن المغرب ظلّ مرتبطا برباط الودّ التقليدى بالدولة الفاطمية. ففى سنة ۴۰۰ ه. زحف باديس إلى طرابلس الغرب، و أخرج منها قبيلة زناتة، و فى سنة ۴۰۱ ه أرسل الإمام الحاكم بأمر اللّه هدية إلى باديس، و ابنه المنصور، فتلقياها بالبنود،

##PAGE=43##

و الطبول، و فى سنة ۴۰۴ ه وصلت سجلات من الإمام الحاكم بأمر اللّه بإضافة برقة، و ما يجاورها إلى باديس، و فى سنة ۴۰۵ ه أرسل باديس هدايا للخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه، كما أرسلت أخته هدية ثمينة إلى الأميرة ست الملک، و كل هذا يدل على أن آل زيرى ظلوا على عهدهم بالحفاظ على ارتباط المغرب بالدولة الفاطمية. أما صقلية فحافظت أيضا على ولائها للدولة الفاطمية بفضل سياسة الكلبيين، و خاصة فى عهد يوسف و ابنه جعفر، و كان الإمام الحاكم بأمر اللّه قد منح يوسف لقب ثقة الدولة، و ولده جعفر تاج الدولة، و لما ألغى الإمام الحاكم بأمر اللّه جميع الألقاب فى دولته الفاطمية، أبقى على هذين اللقبين– ... و من الجدير بالذكر أنه سنة ۴۰۵ ه. قام المغاربة فى صقلية بثورة، و لكن جعفر تغلب عليهم، و عند ما عادوا ثانية اشترطوا على يوسف إبعاد ابنه جعفر إلى مصر، فأرسله إلى الإمام الحاكم بأمر اللّه، و ولّى بدلا عنه ابنه الثانى أحمد المعروف بالأكحل، و قد ظلّ على ولائه للفاطميين، و لم يتغير حتى آخر حياته.

##PAGE=44##

النظم الادارية فى الدولة الفاطمية

امتازت الدولة الفاطمية، و خاصة فى عهد الإمام الحاكم بأمر اللّه بنظمها الجديدة الفريدة و الغريبة على المجتمع. و هذه النظم التى سبقت عصرها ابتدعها الخلفاء الفاطميون الذين تميزوا بثقافتهم الواسعة و بعد نظرهم. فكانت الوزارة و هى أول رتبة أوجدها الفاطميون فى عهدى المعز لدين اللّه، و العزيز باللّه، و قد عرف بأن الخليفة كان يتولّى بنفسه إدارة جميع الشؤون الإدارية، و المالية، و العسكرية دون مساعدة أحد إلّا بعض رؤساء الدواوين. و من المعروف أيضا أن أول وزير فى الدولة الفاطمية أخذ صنعه الوزارة الرسمية هو «يعقوب بن كلّس» و ذلک سنة ۳۶۸ ه. و من ذلک الحين قامت الوزارة، التى كانت تسمى أسماء أخرى ... فتارة يسمّى رجل الدولة الأول بعد الخليفة وزيرا، و تارة وسيطا، و أخرى سفيرا، و فى بعض الأحيان أمينا أو قائدا.

أما الصلاحيات فواحدة، و هى لا تخرج عن كونها مهمة يضطلع بها كبير رجال الدولة، و المرجع الأعلى، و صاحب الحق بالتوقيع عن الخليفة، و البت فى جميع الشؤون الهامة على يد مختلف الكتاب، و أصحاب الدواوين.

و فى أواخر عهد الإمام الحاكم بأمر اللّه أعيدت صفة الوزارة، فتولاها لأول مرة «على بن جعفر بن فلاح» و ذلک سنة ۴۰۸ ه. و لقب وزير الوزراء ذو الرئاستين الأمير المظفّر قطب الدولة. و استمرّت مهمة الوزارة على حالها حتى أواخر عهد الخليفة الفاطمى الثامن الإمام المستنصر باللّه ... و كان يتولاها فى الغالب رجال مدنيون، أو أصحاب أقلام إلّا فى الظروف الاستثنائية، فكان يعهد فيها إلى رجال السيف مثل برجوان، و الحسين بن جوهر الصقلى قائد القواد، و الحسن بن عمار، و على بن صالح الروزبارى. و إلى جانب الوزارة، كانت ثمة عدة مناصب عسكرية، و إدارية عليا منها: وظيفة صاحب الباب، أو صاحب الحجاب، و هذا يلى الوزير الأول فى المرتبة، و كان له صلاحية النظر فى المظالم، و هذا المنصب لم يكن موجودا إلّا فى ظل الوزارة المدنية. أما فى وزارة أصحاب السيف فكان الوزير الأول هو الذى يتولّى النظر فى المظالم.

و منها وظيفة «الاسفهسلار» و هو القائد الأعلى للجيش، و كان منوطا به النظر فى أمر الجند، و جميع الشؤون العسكرية كتنقلات الضباط، و القواد، و إعداد الكتائب، و توزيعها فى المناطق، و تهيئة الحملات الحربية، و غير ذلک.

و هناک مجموعة من الموظفين المختصين بخدمة الخليفة خاصة مثل:

حامل المظلة، و حامل السيف، و حامل الرمح ... و يتبع هؤلاء حملة السلاح أو الركابية، و صبيانهم، و هى فرق من الحرس الملكى ... و كان هناک أيضا ولاية القاهرة، و ولاية مصر «الفسطاط» و هذان المركزان مرتبطان مباشرة بالوزير الأول.

نظام الدواوين

و أما الدواوين فهى تمثل مختلف الوزارات فى عصرنا ... و كانت تشمل: ديوان الإنشاء و المراسلات، و يتولاها أشخاص من ذوى المكانة و الأمانة ... فضلا عن أن المفروض فيهم القدرة على الكتابة، و امتلاک ناصية اللغة العربية، و لهؤلاء الكتاب رئيس يعرف بكاتب الدست الشريف، و ينعت بالأجل، و مهمته النظر فى المكاتبات الصادرة، و الواردة، و الرد عليها بعد عرضها على الخليفة، و استشارته فى كثير منها، و يعاونه عدد من أكابر الكتاب ... منهم:

صاحب التوقيع بالقلم الدقيق فى المظالم، و هو يلى الرئيس فى المرتبة، و له عند الخليفة مكانة خاصة، لأنه جليسه و قارئه، و يأتى بعده صاحب التوقيع بالقلم الجليل، و مهمته الإشراف على تنفيذ ما يوقع به صاحب القلم الدقيق، و كانت المظالم ترفع أولا

إلى صاحب القلم الدقيق، فيوقع عليها بما يقتضيه أمر الخليفة، أو الوزير الأول، أو بما يراه هو، ثم تحمل إلى صاحب القلم الجليل، فيفصل فيها ما أجمله الأول، و بعدئذ تحمل إلى الخليفة فيوقع عليها، ثم تسلم إلى أربابها تمهيدا لتنفيذ ما فيها.

و هناك أيضا ديوان الجيش، و الرواتب، و لا يتولاه سوى المسلمين المقربين جدا من الخليفة، و صاحبه يكون مرجعا لشؤون الجند، و الخيل، و الإقطاعات، و يلحق به ديوان الرواتب، و هو مختص بالنظر فى الأرزاق، و الجرايات، و ديوان الإقطاع، و هو المختص بالنظر فى شؤون الإقطاعات، و ديوان الجهاد، و يقال له ديوان العمائر، و يختص بالنظر فى أمر الأساطيل البحرية الحربية، و المدنية، و إنشائها،

##PAGE=46##

و تسييرها، و الإنفاق على رجال البحر ... و من المعروف أنه كان للدولة الفاطمية عناية خاصة بإنشاء الأساطيل، و حماية الثغور، و لا سيما سواحل بلاد الشام التى كانت عرضة للغزوات البيزنطية.

و بعد هذا يأتى ديوان المجلس، و هو مرجع الدواوين كلّها، و فيه كتّاب عدّة يختص كل منهم بمجلس منفرد، و يتولّى صاحبه التحدث فى شؤون الإقطاعات و الأرزاق لدى الخليفة مباشرة، و ديوان النظر، و هو ديوان المال، و يتولاه عادة وزير ثقة تعود إليه صلاحية النظر فى شؤون الأموال العامة للدولة، و ضبط الداخل و الخارج، و المحاسبات، و ديوان التحقيق، و يختص بالمقابلة على الدواوين الأخرى، و مراجعة أعمالها، و التحقق من انتظامها كما يدل على ذلك اسمه، و ديوان الأحباس، أو الأوقاف، و يختص بالنظر فى شؤون الأحباس العامة و الخاصة، و الإشراف على غلتها، و إنفاقها فى وجوهها الشرعية، و ديوان المواريث، و يختص بشؤون المواريث، و ضبط أحكامها، و كان فى الدولة الفاطمية أيضا ثلاثة دواوين إدارية لها أهميتها ... و هى:

ديوان الصعيد، و ديوان أسفل الأرض، أو الوجه البحرى، و ديوان الثغور و يعنى كل منها فى شؤون الأقاليم الإدارية التى تدخل فى اختصاصه.

و أما الوظائف الدينية فكان أهمها، و أعظمها قدرا:

منصب قاضى القضاة، فقاضى القضاة هو أعظم زعيم دينى فى الدولة، يعينه الإمام فإليه ترجع الأحكام الشرعية فى المعاملات، و العبادات، و الحدود. و أعنى بذلك الشؤون الدينية، و المدنية، و الجنائية، و النظر فى شؤون السكة «دار الضرب»، فضلا عن شؤون المساجد، و أئمتها، و موظفيها، و سائر المتصرفين فيها، و كان اختصاصه يشمل مصر، و الشام، و المغرب، و الحرمين، و

مركزه العام فى القاهرة «المعزية» و له نواب يختارهم للقضاء فى الأقطار الأخرى، و عادة يصدر مرسوم تعيينه من الخليفة بالذات. هذا إذا كان الوزير من رجال القلم، أما إذا كان من وزراء السيف، فإن مرسوم تعيينه يصدر من الوزير مباشرة.

و من الوظائف الدينية الهامة منصب المحتسب، و اختصاصه الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر على قاعدة الحسبة، و يدخل فى

اختصاصه الإشراف على الآداب العامة، و مراقبة أماكن اللهو، و النساء العابثات، و ضبط شؤون المكاييل، و الموازين، و مراقبة أحوال المطاعم، و المشارب العامة، و مطابقة أسعارها، و نظافتها، و السهر على نظافة المساجد، و إنارتها و حمايتها من غشيان الباعة، و المتطفلين، و تنفيذ السجلات الخاصة بالذميين، و فيما فرض عليهم، و تأديب المخالفين، و زجرهم، و له نواب فى سائر الأقاليم، يقومون عنه بمثل هذه المهام، و كانت أعمال الحسبة تسند أحيانا إلى متولى الشرطة، و الظاهر أن نظام الحسبة يشبه فى كثير من الوجوه نظام النيابة العامة فى عصرنا. فالمحتسب يشبه فى مركزه، و اختصاصه فى بعض الوجوه مركز النائب العام.

و هناك أيضا، و كالة بيت المال، و يتولاها رجل ثقة من رجال الاختصاص، و يفوض إليه الخليفة النظر فى شؤون المالية، و بيع ما يرى بيعه، أو ابتياعه من المتاع، و النظر فى شؤون الرقيق، و إنشاء ما يحتاج إليه الخليفة من الأبنية، و السفن، و ما يختص به.

و كان إلى جانب كل هذه المناصب، و الاختصاصات ... مناصب تختص بخدمة الخليفة، و القصر، و قد أشرنا إليها .. و أهمها:

حامل المظلة و السيف، و الرمح ... بيد أن أهمها وظائف الأساتذة «المحنكين» و منهم صاحب المجلس، و هو الذى يتولّى الإشراف على المجلس الذى يجلس فيه الخليفة، و إخطار رجال الدولة بحضوره، و هذا المنصب يشبه إلى حد ما منصب مدير المراسيم فى عصرنا، ثم صاحب الرسالة و هو الذى يتولّى إبلاغ رسالة الخليفة إلى الوزير، أو غيره من كبار رجال الدولة. ثم متولى القصر و هو الذى يشرف على شؤون القصر بوجه عام، و صاحب الدفتر المعروف بدفتر المجلس، و هو المتحدث على الدواوين الجامعة لشؤون الخلافة. و حامل الدواة أى دواة الخليفة و يتولى زمام الأقارب، و هو المشرف على شؤون الأسرة الفاطمية، و أعضائها، و زمام الرجال، و هو المختص بإعداد طعام الخليفة، و النظر فى شؤون الخدم، و مستخدمى القصر، و عبيد الخليفة، و هناك الطبيب الخاص، و يعاونه عادة أطباء آخرون ينتقيهم بنفسه، و يكونون تابعين له ... ثم قرّاء الحضرة و هم

الذين يقرأون بحضرة الخليفة. أما الشعراء فيتبعون ديوان الإنشاء. و قد أنشئت فى عهد الخلافة الفاطمية، و لأول مرة هيئة رسمية خاصة، مهمتها

##PAGE=48##

النظر فى شؤون الأسرة العلوية التى تنتسب إلى «البيت النبوى» و عرفت هذه البيئة يومئذ، أى بعهد الخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه «بنقابة الطالبيين»، و فى العصور المتأخرة عرفت «بنقابة الأشراف» و لا تزال قائمة فى بعض البلدان الإسلامية حتى يومنا هذا، و كان يتولّى النظر بشأنها أحد أكابر شيوخهم و أجلهم قدرا، و مهمته تنحصر بالسهر على صحة الأنساب، و التصديق عليها، و رعاية شؤون أفراد الأسرة، و قضاء مصالحهم، و عيادة مرضاهم، و السير فى جنائزهم، و العمل على توثيق أواصر الوفاق و المحبة فيما بينهم.

الحاكم بأمر اللّه و النهضة الثقافية

ازدهرت العلوم و الثقافة ازدهارا كليا فى مطلع القرن الرابع الهجرى.

ففى تلك الفترة رفع البويهيون، و الحمدانيون لواء العلم و الأدب فى المشرق، كما ساهم العباسيون، و الأندلسيون فى ذلك، و لكن الفاطميين كانوا أكثر رغبة، و اندفاعا فى هذا السبيل، و ما ذلك إلّا لأنهم يعتقدون بأن كل نهضة علمية لا يمكن لها أن تصل إلى مستوى السبق و الازدهار، إلّا إذا تولتها أيدى أحفاد الرسول الكريم محمد (ص) ثم إن الإسماعيليين كانوا يعتقدون أيضا بأن الإمام هو المصدر للعلم، و للعرفان، و أنه هو «المعلم». فالخليفة الفاطمى الثالث المنصور باللّه مثلا اشتهر بسعة اطلاعه، و لم تشغله مهام الخلافة، و أعباء الحكم عن البحث، و التأليف، و قد ثبت أنه كثيرا ما كان يحتم على ابنه و ولى عهده المعز لدين اللّه بأن يتوفر على الدرس، و التحصيل، و التزود من العلم و إنه كان حريصا أيضا على حث العلماء على الاستزادة من العلوم، و مواصلة البحث و الدراسة.

و مكتبة الفاطميين التى كانت فى المنصورية بالمغرب، ثم انتقلت إلى القاهرة المعزية، كانت زاخرة بالكتب، و مفتوحة الأبواب لكل طالب و راغب، و من المشهور عن الخلفاء أنهم كانوا يعقدون المجالس العلمية، و الندوات الثقافية، فيحضرها رجال الدولة، و العلماء، و الأدباء، فيظهرون مقدرتهم، و إلمامهم بالفلسفة، و علم التأويل- و الفقه، و الحديث، و الطب، و الهندسة، و علم الفلك.

و بالإضافة إلى كل ما تقدم فقد كان لهم مجالس خاصة، تسمّى مجالس الحكمة، و هى خاصة بتعاليم الدعوة الإسماعيلية، ففيها كان

##PAGE=49##

الدعاة يتولون شرح ما غمض من كتب الباطن، و التأويل، و الفلسفة، و الإلهيات. و كانت هذه المجالس جزءا من مخططات الدولة، و لها أثرها البارز فى سير الدعوة فى الأقطار الإسلامية بحيث كان يختار للاضطلاع بها دعاة عباقرة، و لهذا نستطيع القول بأن الفاطميين قد ضربوا بسهم وافر فى تنظيم شؤون دعوتهم، فنمت نموا مضطردا، و أنجبت رجالا أفذاذا سبقوا عصورهم، و قدموا للعالم الإسلامى أروع النتائج الفكرية، و أغزر الثمرات العلمية.

أجل ... كانت مصر نصيرة العلوم و الآداب، و خاصة فى عهد الدولة الإخشيدية و لكن الفاطميين جاؤوا ليضيفوا إلى ذلك اهتمامات أوسع مدى. فلما قامت دولتهم فى مصر شغلت بادىء ذى بدء بتوطيد ملكها الفتى. فكان اهتمامها بالحركة العلمية محدودا.

دار الحكمة

بيد أن الحركة الفكرية لم تلبث أن ازدهرت عقيب الجامعة الفاطمية الكبرى «الأزهر» التى بناها القائد جوهر الصقلى بإيعاز من الخليفة الإمام المعز لدين اللّه، ثم أقيمت فيها فيما بعد بأمر الخليفة الإمام العزيز باللّه، حلقات التدريس كما نظمت مجالس الحكمة فى القصر الإمامى، و فى جامعة الأزهر أيضا . و أنشأ الخليفة الحاكم بأمر اللّه «دار الحكمة»، و هى أول مجمع علمى أو أكاديمية تأسست فى العالم الإسلامى، و قد كانت تلقى فيها المحاضرات على الطلاب من مختلف المذاهب، و تغطى جميع أصناف العلوم و الفنون.

و يجب أن لا يغرب عن بالنا ما كان للوزير يعقوب بن كلّس من أثر بارز فى توجيه الأزهر وجهته الجامعية، و قد أدرك الحسن بن زولاق المصرى عميد الحركة الأدبية فى عصر الأخشيديين أثر الدولة الفاطمية فى هذا المجال، فأخذ بقسطه فى زعامة تلك الحركة، و تولّى رعايتها فى عهد الخليفتين المعز لدين اللّه، و العزيز باللّه.

و مما يجب أن يدوّن أن المعز لدين اللّه أولى ابن زولاق عطفه، و تقديره،- من جهته، فإن ابن زولاق عرف قدر الإمام المعز لدين اللّه، فوضع عنه كتابا قيما. و لكن هذا الكتاب لم يعثر له على أثر.

و من جهة ثانية ... فإن الإمام الحاكم بأمر اللّه أولى الحركة العقلية قسطا كبيرا من اهتمامه و رعايته، فأجزل المخصصات لدار الحكمة،

##PAGE=50##

و زوّدها بخزائن الكتب القيمة، و عقد مجالس المناظرة للعلماء، و للأدباء، و غمرهم بصلاته، و قرّب إليهم عددا من أقطاب المفكرين و الأدباء المشهورين فى ذلك العصر. أمثال: الأمير المسبحى، و محمد ابن القاسم بن عاصم شاعره و جليسه، و كان من أشعر شعراء العصر، أبى الحسن على بن محمد الشابشتى صاحب كتاب «الديارات» و غيرهم.

تشجيع العلماء

و لا بد لنا، و نحن نتحدث عن الحركة العلمية فى عهد الإمام الحاكم بأمر اللّه، من الوقوف قليلا عند العلّامة الرياضى، و المهندس الكبير «الحسن بن الهيثم» الذى اشتهر بكتابه «علم المناظر فى البصريات»، و هذا الكتاب ترجم إلى اللاتينية، و صار كتابا مدرسيا فى أوروبا، و من المعلوم أن ابن الهيثم كان يعيش فى دمشق عند ما سمع الحاكم بأمر اللّه عن لسانه كلاما مؤداه:

«لو سمح لى خليفة مصر الإمام الحاكم بأمر اللّه الفاطمى لعملت فى النيل عملا يغنى مصر».

فبعث بطلبه، و لما جاء إلى مصر زوّده فى كل ما يحتاج إليه، و أرسله إلى موقع الشلالات فى أسوان، و هناك أجرى دراسات واسعة، ثم عاد إلى القاهرة، و عند ما مثل أمام الإمام الحاكم بأمر اللّه أعلن له بصراحة استحالة نجاح المشروع فشكره الإمام الحاكم بأمر اللّه على صراحته. و أبقاه فى مصر قريبا من دار الحكمة، مشمولا بعطفه، و رعايته.

و يجب أن لا يسهى عن بالنا بأن الإمام الحاكم بأمر اللّه طلب إلى عامله فى حلب، أن يرسل إليه أبالعلاء المعرى الشاعر الفيلسوف، و لما اعتذر بسبب مرضه، أمر أن يترك له ريع الدولة من بلدة معرة النعمان السورية طيلة حياته.

و أرسل الإمام الحاكم بأمر اللّه بطلب الفيلسوف الكبير «أحمد حميد الدين الكرمانى» الذى كان يعيش فى العراق، و عند ما حضر، حصر مهمته بإلقاء سلسلة من المحاضرات فى دار الحكمة لتعريف خصائص الإمامة، و معرفة مرتبة الأئمة، و محاربة العناصر التى حاولت تشويه مبدأ التوحيد و هو المبدأ الإسلامى الأساسى الذى

##PAGE=51##

كان الإمام مسؤولا عن حمايته و الدفاع عنه. فقام بالمهمة على أكمل وجه، و فى القاهرة وضع رسالة «مباسم البشارات» و «الرسالة الواعظة» و هى تهدف إلى الاعتدال بالاعتقادات الفاطمية، و إلى سلوك الطريق الصحيح. و الكرمانى الذى سنتحدث عنه فى الصفحات الآتية من موسوعتنا، هو حجة العراقين، و من أعظم الفلاسفة الذين أنجبتهم الدعوة الإسماعيلية، فكتابة «راحة العقل» فى الإلهيات من أعظم الكتب التى خرجت من المدرسة الفلسفية الإسلامية الإسماعيلية.

و من العلماء البارزين فى ذلك العصر «على بن يونس الفلكى» المعروف «بابن يونس» و قد عرف أن الإمام الحاكم بأمر اللّه قربه، و محضه عطفه ... و كان والده «العزيز باللّه» قد أقام له مرصدا على جبل المقطم، حيث تمكن من أن يرصد منه كسوفين للشمس، و لهذا العالم كتاب «الزيج الحاكمى» الذى كتبه تخليدا لذكرى الإمام الحاكم بأمر اللّه ... و من الجدير بالذكر أن ابن يونس هو أول من اخترع «بندول» الساعة، و ليس «غاليلو» كما ذكر.

و من الأمور التى تستدعى النظر، علاقة الحاكم بأمر اللّه بابن سينا و والده الذى كان من دعاته، و هذا ما سنوضحه أيضا.

إذن نستطيع القول باطمئنان أن الإمام الحاكم بأمر اللّه قد رعى العلم، و قرّب العلماء، و تعهد النهضة الفكرية و هى صغيرة، و لم يزل بها حتى أوصلها إلى الذروة، و جعلها مهوى لأفئدة العلماء الآخرين من الأقطار الأخرى الذين وفدوا إلى مصر للإسهام بهذه الحركة الأدبية الكبرى.

النهضة العمرانية

لم تشغل الخليفة الفاطمى الإمام الحاكم بأمر اللّه، الأحداث الجسام، و الاضطرابات التى كانت تعصف فى دولته من حين لآخر سواء فى الداخل أو الخارج عن الأعمال العمرانية، و المآثر الخيرية الجليلة، و تجميل عاصمة ملكه القاهرة «المعزّية» فقد عنى بتجديد الجامع الأزهر و أدخل عليه الإصلاحات، و التحسينات الضرورية، كما أنشأ جامعة «دار الحكمة» و «دار العلم» بالإضافة إلى مسجده

المعروف بجامع الحاكم، أو الجامع الأنور ... و كان والده الإمام العزيز باللّه قد بدأ ببنائه، و لكنه مات قبل الفراغ منه و لما فرغ الإمام الحاكم بأمر اللّه من عمارته عنى بفرشه و تأثيثه عناية فائقة، و زيّنه بالستور الفخمة، و التنانير الفضيّة، و ذكر أنه صلّى فيه لدى افتتاحه، و كان يوما مشهودا من أيام مصر الخالدة.

و أنشأ جامع راشدة، و أشرف بنفسه على تأثيثه، و تزيينه أيضا، كما صلّى فيه لدى افتتاحه، و خطب فى الناس، و هكذا بالنسبة لجامع المقس، و بنى فى جبل المقطم مصلّى عرف بمصلّى العيد، و كان يختلف إليه من حين لآخر، عند ما يؤثر العزلة، و الانقطاع للعبادة و التأمل.

و فى سنة ۴۰۳ ه. أمر الحاكم بأمر اللّه بإحصاء المساجد التى لا مورد لها، فوجد ثمانمائة و ثلاثين مسجدا فى جميع أنحاء مصر، فأصدر أمره بأن ترصد لها النفقات الضرورية، كما أجرى فيها الشعائر. و فى سنة ۴۰۵ ه. وقف عدة مزارع، و قرى، و أراض على القراء، و الفقهاء، و المؤذنين، و موظفى المساجد، و حفارى القبور، و العاملين فى المصحات العامة، و المستشفيات، كما وقف على الأزهر «دار الحكمة» و قسما من أملاكه الخاصة، و خصها ببعض ما كان يرد إليه من الجهات الأخرى، و هى أموال الزكاة الخاصة.

و من المآثر المشهورة للإمام الحاكم بأمر اللّه ... أنه أغدق المنح على الأساتذة المولجين بدار الحكمة، و خصصّ لهم ما يكفل الحياة. أما قصر اللؤلؤ على الخليج، فكان قد بناه والده الإمام العزيز باللّه، و جعله منتجعا خاصا، و عند ما جاء الحاكم بأمر اللّه أدخل عليه التحسينات.

وزراء الحاكم بأمر اللّه

رأينا أن نأتى هنا على أسماء الوزراء الذين عملوا فى دولة الإمام الحاكم بأمر اللّه الفاطمية، مع لمحة موجزة عنهم، و ذلك لكى لا تفوت القارىء الكريم أية شاردة أو واردة من تاريخ الدولة الفاطمية فى عهد الخليفة الكبير.

۱- على بن عمر العداس: مغربى الأصل، كان من ضمن القائمين على أمور الخراج. و فى أيام الخليفة الإمام المعز لدين اللّه ضمن كورة

بوصير سنة ۳۶۴ ه. و بعد ذلك ولّاه الإمام العزيز باللّه الوساطة، و قد جاء هذا بعد وفاة يعقوب بن كلّس، و لم يلقبه بالوزير، و قد مكث فى منصبه هذا مدة عام كامل. كان ينظر فى شؤون المالية، و يشرف على العمال. و أمر أن لا يصرف شىء إلّا بتوقيعه. ظلّ فى عمله بديوان الاستيفاء طيلة خلافة الإمام الحاكم بأمر اللّه.

٢- جعفر بن الفضل بن فرات: اختلف المؤرخون على المدة التى قضاها فى الوزارة بعهد الإمام الحاكم بأمر اللّه، كما اختلفوا فى الشخص الذى خلفه فى الوزارة، و لكن من المؤكد أنه عزل من وظيفته فى أول شهر تولّى فيه الإمام الحاكم بأمر اللّه شؤون الخلافة.

٣- الحسن بن عمّار: لقبه الإمام الحاكم بأمر اللّه بأمين الدولة ...

هو شيخ قبيلة كتامة المغربية، و سيدها دون منازع، و أول من أعطى لقبا من رجال الدولة الفاطمية .... كان مستبدا، و ظالما، و قام بتصرفات شاذة منتهزا صغر سن الإمام الحاكم بأمر اللّه.

٤- برجوان «أبو الفتوح»: خصى أبيض من الصقالبة البلقانيين ... تربى فى قصر الخلافة، و صار قيّما على الحاكم بأمر اللّه. وقف بوجه ابن عمار، و خاض معه جملة معارك حربية و سياسية ... انتهى نهاية مؤثرة.

٥- الحسين بن جوهر الصقلى: هو ابن القائد الكبير جوهر الصقلى فاتح مصر و بلاد الشام و موطّد دعائم الدولة الفاطمية فى المغرب ... لقبه الإمام الحاكم بأمر اللّه بقائد القوّاد، و أعطاه صلاحيات مطلقة للحكم، و لكنه انحرف و فرّ إلى صفوف أبى ركوة الثائر كما أسلفنا.

و عند ما انهارت الثورة فرّ إلى دمشق و اختبأ فيها، و لكن الإمام الحاكم ظلّ يلاحقه حتى قبض عليه و أعدمه.

٦- صالح بن على الروزبارى: عراقى الأصل، التحق بخدمة الفاطميين، و تقلّد ديوان الشام، ثم تولّى بعد ذلك الوساطة بعد عزل الحسين بن جوهر. لقبه الإمام الحاكم بأمر اللّه بثقة ثقات السيف و القلم.

٧- منصور بن عبدون: نصرانى تولّى ديوان الشام. اتهم

بالاختلاس. تولّى الوزارة، بعد عزل صالح بن على، ثم عزل أخيرا بتدبير من الحسين بن جوهر.

٨- أحمد بن محمد القصورى: أحد كتاب الدولة البارزين، و الأغلب أنه عراقى، ظلّ فى الوزارة عشرة أيام.

٩- زرعة بن عيسى بن نسطورس: هو ابن الوزير عيسى بن نسطورس، و هو من النصارى القلائل الذين ظلوا فى منصبهم بعد وفاة الإمام الحاكم بأمر اللّه.

١٠- الحسن بن طاهر الوزّان: كان متوليا بيت المال، لقّب بأمين الأمناء، و تسلّم مسؤولية الوزارة، و كان حريصا على أموال الدولة.

١١- الحسن و عبد الرحمن أبناء أبى السيّد: أقامهما الإمام الحاكم بأمر اللّه فى الوساطة بعد أن ضمنا أموال الدولة، و حرصا عليها، و لكنهما لم يبقيا فى عملهما سوى إثنين و ستين يوما.

١٢- على بن جعفر بن فلاح: من أجلّ الوزراء الكتاميين المغاربة، و من أشهر قواد الدولة الفاطمية، هو و أخوه سليمان، و هما نجلا القائد جعفر بن فلاح الكتامى المغربى الذى فتح الشام فى عهد الإمام المعز لدين اللّه، و كان ابن عمار قد أرسلهما إلى الشام لحرب منجوتكين عند ما أزمع هذا القائد مهاجمة مصر بتحريض من برجوان. و قد ظلّا يديران شؤون بلاد الشام حتى قوى ساعد برجوان، فحرّض عليهما الجند. و لقد استعان الإمام الحاكم بأمر اللّه بعلى بن جعفر فى إقرار النظام فى الشام بعد فتنة آل الجراح.

ثم قلّده فيما بعد الوساطة، و أضيفت إليه ولاية الإسكندرية، و تنيس، و دمياط، و الشرطتان العليا، و السفلى، و الحسبة ... قتل على اغتيالا ...

أما سليمان فقد ذكر أنه انتهى نهاية غامضة.

١٣- صاعد بن عيسى بن نسطورس: ثالث شخص من آل نسطورس ... تولّى الوساطة

١٤- المسعود بن طاهر الوزّان: حلّ محلّ شقيقه فى ولاية بيت المال فترة قصيرة، و بعده حلّ محله عمار بن محمد.

١٥- عمار بن محمد: اختاره الإمام الحاكم بأمر اللّه، و ذلك سنة

٤١١ ه أخذ البيعة للخليفة الظاهر لإعزاز دين اللّه بن الحاكم بأمر اللّه. كما دبّر شؤون الخلافة بتفويض من الأميرة «ست الملك» بعد وفاة الإمام الحاكم بأمر اللّه.

الحاكم بأمر اللّه و المجتمع

اتفق المؤرخون جميعهم، على أن الإمام الحاكم بأمر اللّه كان مولعا بالتجوال وحيدا، و مغرما بالسير منفردا فى شوارع عاصمة دولته القاهرة «المعزية» و عبر أزقتها، و أسواقها، و ساحاتها فى الليل، و أحيانا فى النهار، و غرضه من ذلک دراسة أحوال الشعب، و طريقة معيشته، و حياته، و الوقوف على غذائه، و كسائه، و ما يفكر فيه، فمثل هذا التجوال، و التفقد يزيحان النقاب عن وضع شعبه، و ما تشكو منه الطبقات، و خاصة الفقيرة المحرومة.

و إننا عند ما نراه يصدر أوامره بتعليق المصابيح على أبواب الحوانيت، و الدور، و الأمكنة العامة الأخرى فى عاصمة دولته، فلكى تبدو المدينة فى الليل، و كأنها شعلة مضيئة مما يسهل عليه الاستطلاع و المراقبة، و الاطلاع على كل ما يجرى على ساحة بلده.

يروى أن الإمام الحاكم بأمر اللّه خرج مرة متخفيا تحت جنح الظلام، فطاف بين المنازل، و شاهد حلقات الرقص، و ما يمارس فيها من خلاعة و فجور ... و زار الحمامات العامة فرأى الرجال، و النساء معا، و فى الشوارع كانت الجرائم الأخلاقية ترتكب على قارعة الطريق، و فى الزوايا دون وازع ... أما السكارى فكانوا يترنّحون فى الشوارع، و بعضهم يسقط إعياء فى الوحول، و على الأرصفة.

أجل ... كان الشعب المصرى فى ذلک العصر، أى عصر الإمام الحاكم بأمر اللّه، يعيش حياة الرغد، و الرفاهية، و البساطة فى العيش. فالدولة الفاطمية سهرت على راحته، و أمنت له الرخاء، و العمل، و ضمان الازدهار، و الحياة الأفضل، و شاركت الطبيعة فى العطاء، بأن منحت الأرياف، و الأراضى كل ما تتطلبه من المياه، فأعطت المواسم الجيدة، و توفرت الخيرات، و أصبحت الحياة العامة تسير على غاية ما يرام، لهذا اتخذ الناس من المصابيح فى اللّيل فرصة للخروج إلى مواطن اللهو، و السحر، و القصف، و الغناء، و قضاء السّهرات الصاخبة فى المنازل.

##PAGE=56##

و هكذا سطعت ميادين القاهرة المعزية بالوقود، و الزينات، و غصّت بصنوف اللهو، و المرح، و أنفقت فى هذا السبيل الأموال الوفيرة فى المآكل. و المشارب، و السماع، و معاقرة الخمرة، و ظهرت النساء فى المجتمعات بكثرة، و تدفق تيار المجون، و الغواية، و الفجور صاخبا عاتيا فجرف أكثر الناس، و أصبحت القاهرة «المعزية» بأنوارها الساطعة، و مناظرها الخلّابة، و ملاهيها العابثة.

هذا و يجب أن لا ننسى قدوم الأفواج التى لا تعد من الغرباء، سواء من المشرق أو من المغرب إلى القاهرة للعيش فيها، و مشاركة أهلها حياتهم، و أرزاقهم، و من الجلى الواضح أنهم وجدوا الحرية المطلقة أمامهم تمنح لكل الناس. فعاثوا فسادا، و

مارسوا أعمال السرقة، و النهب، و ارتكاب الجرائم، و علّموا المصريين الكثير، الكثير من دروس الفساد، و المجون، و تدنى الأخلاق.

المصلح الاجتماعى

و فى هذه الصفحات من الموسوعة سأتخطى حدود التاريخ ... و ليسمح لى القارىء أن أخرج عن النطاق المألوف، و أرمى جانبا الصفحات التى كتبت عن الإمام الحاكم بأمر اللّه، لأن هذه الصفحات جاءت كما نرى خالية من أية دراسة موضوعية، أو تحليل مفيد عن هذا المصلح الاجتماعى الذى ضرب الرقم القياسى بخدماته لامتة، و إصلاحاته للمجتمع الذى عاش فيه ... تلك الإصلاحات التى سبقت عصره، وفاقت كل ما كان قبلها، و بعدها و لكن كان حاله حال كل مصلح اجتماعى يأتى إلى أمة غير أمته فى عصر غير عصره.

لقد كان الإمام الحاكم بأمر اللّه عالما، و طبيبا، و فيلسوفا، و كان رجل دولة، و سياسيا ماهرا، و مخططا بارعا لا يعادله أحد فى عصره، و لكن و مع كل أسف لم يقدره المجتمع الغارق فى الجهل حقّ قدره، و لم يفهمه الشعب الذى أولاه محبته، و عطفه، و هكذا التبس عليه، و ضاع فى متاهات الظلام. و كلّ ما فعله أقطاب ذلك المجتمع أنهم راحوا يستنبطون الأفكار، و الخيالات، و يخترعون الروايات، و الأساطير، عن هذا العبقرى الخارق الذى كانت حياته أطراف ما قرأناه، و سمعناه، كما أن فى وفاته كل ما يثير النفوس، و يوقظ الشعور، و يجعل الإنسان فى موقف الحيرة، و الاستغراب لا

يعرف كيف يقوّم الحوادث، و الأحداث، و لا كيف يهتدى إلى الحقيقة المحتجبة وراء سجف الغيب.

لقد أجمعت المصادر التاريخية على القول: بأن الإمام الحاكم بأمر اللّه منع أكل «الملوخية، و الجرجير، و الترمس، و المتوكلية. و أكدت هذه المصادر أن سبب هذا المنع قضايا دينية، و رواسب عالية قديمة كان الإمام الحاكم بأمر اللّه حريصا على الأخذ بها، و تطبيقها، و تتلخص بأن السيدة عائشة زوجة الرسول الكريم «محمد» (ص)، كانت تحب الجرجير، و أن معاوية بن أبى سفيان الأموى كان يحب الملوخية ... إلخ. و ما أشبه ذلك من الأقوال التافهة و الرخيصة التى لا نعتقد أن الإمام الحاكم بأمر اللّه ينحدر إلى حدّ التفكير بها، أو مجرّد التحدث عنها، أو جعلها أداة للانتقام بعد مضى مئات الأعوام. و إنى لا أدرى ما هى الأسباب التى حملت المؤرخين على اللجوء إلى ترديد مثل هذه الأقوال السخيفة فى كتبهم، كما إنى حتى الآن لم أعثر على مصدر يذكر أن السيدة عائشة كانت تحب الجرجير، أو أن معاوية كان يفضل الملوخية.

و الواقع أن الإمام الحاكم بأمر اللّه كان طبيبا أو عالما بعلم النبات، و لذلک فقد أدرک بخبرته أن الإكثار من كل هذه النباتات يزيد فى كميات دم الإنسان و يقوى فيه الغريزة الجنسية. و يغيّر الواقع النفسى، و يضفى قابلية النزوع نحو الشر.

و كان الشعب المصرى، يفضل هذه النباتات على كل غذاء، خاصة عند ما يتناولها خضراء، و لذلک فإنه يمكن القول إن تدبير الإمام الحاكم كان منطلقا من حرصه على مصلحة شعبه فقط.

و كان الإمام الحاكم بأمر اللّه قد منع أكل «الدلنيس» و هو نوع من الصدف الصغير الموجود بكثرة على شواطىء الأنهار، و كان الناس يأكلون ما بداخله نيئا و مملحا ... و قد ثبت أنه يورث الدودة الوحيدة فى الأمعاء، و هذا المرض شاع و كثر فى الدلتا المصرية فى ذلک العهد ... إذن فالحاكم بأمر اللّه لم يكن مجنونا، أو جاهلا، عند ما حرّم أكله، و الاتجار به.

و منع الإمام الحاكم بأمر اللّه ذبح الأبقار السليمة إلّا فى أيام عيد الأضحى ... لما ذا؟ أ ليس من حق هذا الخليفة الساهر على مصالح

رعيته أن يحافظ على هذا الحيوان الأليف الذى يؤدى أجل الخدمات للمزارعين فى مجال حراثة الأرض ... هذا فضلا عن إمدادهم بالطاقة الكبرى من الحليب و السمن، و الألبان.

و منع صيد السمک الذى لا قشر له، و كذلک حرّم بيعه. و المعروف أن هذا النوع كان فى طريقه إلى الانقراض فى ذلک العصر، علما بأنه من الأنواع المرغوبة النادرة.

أما القوانين الإصلاحية الأخرى التى أصدرها الخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه بشأن النساء، و استئصال البغاء، و إشاعة الآداب العامة فى المجتمع، فقد كان يقصد منها إزالة الطابع السيء عن أكبر عاصمة للعالم الإسلامى، و إظهارها للغرباء، و للسواح بأنها تمثل المدينة الفاضلة، و قاعدة الآداب الإسلامية، و كل هذا امتاز بالحكمة، و العقل و المحافظة على القيم و التراث.

و من القوانين التى صدرت فى هذا الصدد: أنه منع على كل إنسان دخول الحمامات العامة بلا مئزر و حرّم أيضا على النساء كشف الوجه فى الطرقات العامة، أو خلف الجنائز، و التبرج، و التزيّن عند خروجهن، كما منعهن البكاء و العويل وراء الموتى، و زيارة القبور، و منعهن من دخول الحمامات العامة منعا مطلقا، أو الخروج من منازلهن فى الليالى مهما كانت الأسباب ... فهل صدرت هذه القوانين عن رجل فى عقله مس من الجنون؟ و هل يستحق الإمام الحاكم بأمر اللّه أن ينال بسبب هذه الأوامر، اللوم، و الانتقاد، و الاتهام بالزندقة أو الجنون.

و منع الإمام الحاكم بأمر اللّه مزاولة البيع و الشراء فى الليل، و ذلک خوفا من التلاعب بأصناف المواد، و الأوزان، و منع على التجار إقفال حوانيتهم، و أبواب الخزانات، و الدروج. و ذلک لكى يقول للسارقين، و للّصوص أن قانون الإعدام ينتظر كل من يقبض عليه، و هو يقوم بالسرقة، و شدّد على إزالة بيوت الخمّارين. و هذه القوانين بمجموعها يراها البعض غريبة، و لكن قلة من الناس أدركوا أبعادها، و منفعتها، و اعتبروها صادرة عن ضمير حى، و وجدان طاهر .

و أصدر الإمام الحاكم بأمر اللّه أوامره بقتل الكلاب الشاردة أينما وجدت، إلّا كلاب الصيد، فطوردت، و أعدمت حتى خلت منها الطرق،

و الساحات. كما أمر بقتل الخنازير التى فى مصر، و خاصة فى الأمكنة التى توجد فيها النصارى، و أمر بمنع صيد الطيور بالشرک، و الحفر، و التحيل، و خاصة «الصيد الجماعى» هذا من ألف عام و نيف ... فهل يذكر هؤلاء الذين اتهموا الإمام الحاكم بأمر اللّه بالجنون، أن الدول المتحضرة بعد ألف عام سارت على خطته، و تبنت نظريته، و أصبحت مدينة له بهذه الأفكار؟

و عند ما تعرضت مصر فى أواخر عهده إلى الجفاف، و النقص فى مياه النيل، و عند ما وقع الغلاء، و الاحتكار بادر الإمام الحاكم بأمر اللّه إلى إصدار الأوامر الجريئة القاسية التى تحرم خزن أية مادة غذائية، أو تموينية تزيد عن الحاجة، و حدّد أسعار القمح خاصة، و بعدها المواد التى يحتاج إليها الشعب.

و عاقب المخالفين بالإعدام فى حالة إقدام أىّ منهم على الاستغلال أو التلاعب بالأسعار أو الاتجار بقوت المواطنين ... و أية جريمة ارتكبها فى تحريمه لعب الشطرنج الذى كان شائعا بكثرة، و اعتباره من الملاهى التى تعوق المواطن عن العمل النافع لأمته و بلاده، و هكذا بالنسبة لصناعة التنجيم التى يتفرع منها التدجيل. كما شدد على الجزارين، و ألزمهم بلبس البياض و الالتزام بالنظافة، و تغطية اللحوم بقماش أبيض شفّاف كى لا يغط عليه الذباب، أو يلحق به الغبار.

فهل نلام بعد كل هذا إذا ما اعتبرنا الإمام الحاكم بأمر اللّه مصلحا اجتماعيا، قلما شهد العالم الإسلامى من يماثله عقلا، و فكرا، و تقدمية؟

لقد كان الإمام الحاكم بأمر اللّه، دنيا من الأساطير، و العبقرية، و الإبداع، و الذهن الحاضر، الهائم، المضطرم الذى يظهر فى بعض الحالات حاملا المزيد من التطرف، و الجرأة المقرونة بالحكمة، و السمو، و التقدير، و التأمل. و على العموم ... فإن هذه

الشخصيۀ استطاعت أن تفيض، و تعطى من أفكارها كل خير و فضيلۀ و جمال، و أن تقبض على المجتمع بكلتى يديها، و أن تطبعه بطابعها العجيب.

إن الإمام الحاكم بأمر اللّه عند ما فكّر، و خطّط و قصد إصلاح ذلک المجتمع، بل عند ما أدخل عليه التعاليم غير المألوفۀ، و الأفكار السابقۀ لعصرها. فى ذلک الزمن البعيد، أدرک أنه سيتعرّض للانتقاد،

##PAGE=60##

٣

و سيصل الأمر إلى حد اتهامه بالجنون، و لكنه لم يبال، لأنه كان على علم بأن المجتمع المريض، أى مجتمع – لا بد له أن يصحو ذات يوم على الحقائق، و يبادر إلى تقدير خدماته، و أعماله.

فى الواقع ... لم يكن ينقص الإمام الحاكم بأمر اللّه شىء من أمور الحياۀ ... كان امبراطورا لا تغيب عن ممتلكاته الشمس، و كان معروفا بأنه ينحدر من أعرق بيوتات العرب حسبا و نسبا، و إلى جانب ذلک كان يملک الشباب الناضر، و العلم، و القوۀ، و الرجولۀ، و كانت الحياۀ تبسم له، و تدعوه إلى الأخذ بأسبابها، و أفراحها، و مسراتها ... و لكنه بادر إلى طلاقها، و آثر الحياۀ البسيطۀ، و سهر الليالى، و ارتدى الخشن من الثياب، و طاف على حماره الأبيض وحيدا دون حراسۀ، أو موكب أو أبّهۀ. يتفقد الرعيۀ، و يتأكد من تطبيق القوانين، و يحسن على الفقراء، و المحرومين ... و إلى جانب كل هذا كان يختلط، بشعبه، و يسمع شكاواته، و ينصف المظلومين، و يعطى كل ذى حق حقه، و يصدر الأوامر بشأن الترفيه عنه و إسعاده ... فأين هو الجنون ...

و أين الظلم و التعسف من كل هذا؟

لقد كان عصر الحاكم بأمر اللّه من أغرب عصور التاريخ ... كان عصرا ضاعت فى طياته الحقائق، و طمست الوقائع ... عصرا قام على الفساد فى الحكم و مبدأ الاغتيالات، و النهب، و السرقات، و العسف، و الفجور، و التعدى ع‌لى الآمنين ... فماذا كان على الحاكم أن يفعل حيال هذه المفاسد، و الرذائل، و هو خليفۀ المسلمين؟

لقد كانت الاغتيالات ترتكب فى الظلام، فيضيع فاعلها، و مدبرها ...

---

[٣] تامر، عارف، تاريخ الاسماعيليه،4جلد، رياض الريس للكتب و النشر – لندن، چاپ: اول،1991 م.

و فی نهایهٔ المطاف یأتی أعداء الإمام الحاکم بأمر اللّه، فیوهموا الناس بأنه وراء جرائم القتل التی کانت تقع کل یوم، و کانت مقاصدهم، و غایاتهم إظهاره للناس بأنه سفاح، و طاغیهٔ و مفطور علی سفک الدماء، و قتل الأبریاء، و من المؤسف أن الناس صدقوا ذلک، و لکن لا أدری کیف نصدق نحن ذلک، و قد عرفنا الحاکم، و آباءه، و أجداده، و سیرتهم مع الرعیهٔ، و حکمهم العادل ... و هل یکون طاغیهٔ من أقام دار الحکمهٔ- أول أکادیمیهٔ للعلوم فی العالم الإسلامی- و کیف نصدق أخبار الظلم عن عالم کان یقضی أوقاته فی مجالسهٔ الفلاسفهٔ، و رجال العلم، و الشعراء، و عن مسلم جعل دأبه إقامهٔ المساجد، و الإحسان إلی الفقراء و المحرومین، و إنصاف المظلومین، و الزهد فی

##PAGE=61##

المال و الدنیا، و الکره لمظاهر الأبّهۀ، و العظمهٔ، و الانقطاع للصلاهٔ، و العبادهٔ، و الاکتفاء، بالقلیل من الطعام؟

إن کل هذا جدیر بالدراسهٔ، و التأمل، و حبذا لو أن المؤرخین و الباحثین حلّلوا هذه الأمور، و درسوها فی ضوء العقل، و المنطق، و الضمیر ... قبل أن یدونوا الصفحات الطویلهٔ العریضهٔ عن الرجل العظیم، و یحشوها بالترهات، و الأکاذیب.

نحن لا ننکر بأن الإمام الحاکم بأمر اللّه أمر بقتل بعض الوزراء، و القوّاد، و العمّال الکبار ممن ثبت علیهم جرم التلاعب. و سرقهٔ أموال الدولهٔ، و الإثراء غیر المشروع، و سلب أموال الناس و ممتلکاتهم، أو ممن اشترکوا بثورات، و مؤآمرات ضد الدولهٔ.

لقد ذکرت المصادر: أن الإمام الحاکم بأمر اللّه مارس الضغط علی الذمّیین- الیهود و النصاری- و فرض علیهم قیودا صارمهٔ، و خرّب کنائسهم، و دمّر أدیرتهم دونما سبب ... فلماذا یفعل الإمام الحاکم بأمر اللّه کل هذا مع رعایاه النصاری و الیهود ... و ما هو المقصود من هذه التدابیر الصارمهٔ؟ فی حین نراه یستخدم بعضهم فی مناصب عالیهٔ؟

... أمّا تدمیر کنائسهم، و أدیرتهم فلا أعتقد أنه أقدم علیها. و قد مرّ معنا أنه أباح الحریّات الدینیهٔ فی دولته، و أعطی هذه الحریات لأصحاب المذاهب، و الأدیان کافهٔ لممارسهٔ طقوسهم و عباداتهم دون استثناء، و خاصهٔ النصاری الذین یعتبرون أخواله، و من أقرب الناس إلیه.

لقد کان أعداء الخلافهٔ الفاطمیهٔ فی عهد الإمام الحاکم بأمر اللّه یقترفون الجرائم ضد النصاری و الیهود فیعتدون علیهم، و علی مقدساتهم، و غایتهم من ذلک زعزعهٔ أرکان الدولهٔ، و إظهار الحاکم بأمر اللّه بمظهر الطاغیهٔ بالنسبهٔ للعالم المسیحی، أو العاجز من حمایهٔ الأقلیات الدینیهٔ التی تعیش فی دولته و حتی الآن لم نتوصل إلی غرض الحاکم بأمر اللّه من تدمیر الکنائس و الأدیرهٔ و ما الذی دعاه إلی ذلک. و المواطنون النصاری و الیهود لم یخرجوا علی النظام، أو یعبثوا بالأمن؟ أمّا وضع الإشارات المیزهٔ علی صدورهم ... فربما کان الغرض منها تمییزهم عن غیرهم من بقیهٔ الطوائف، و معرفهٔ

##PAGE=62##

العناصر التى كانت ترتكب الجرائم، و تلصقها فيهم ظلما، و عدوانا.

فحامل الإشارة فى هذه الحالة يكون منظورا من قبل رجال الأمن، و معروفا لديهم ... فلا يمكن لأحد بعد هذا ان يلصق به التهمة.

هذا من جهة ... و من جهة أخرى. ففى عهد الحاكم بأمر اللّه ...

انقسم النصارى الأقباط فى مصر إلى فرقتين: «الملكانية» و كانت على مذهب بيزنطية، و «اليعقوبية» أو «النسطورية». و هما صاحبتا كنيسة مستقلة عن بيزنطية و لا سيما «اليعقوبية أو الارثوذكسية» و هى ملّة غالبيتها تشكلها الجماعة المصرية.

و فى عهد الإمام الحاكم بأمر اللّه ازداد نفوذ الملكانية ... لأن والدة الخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه تتحدر من هذه الطائفة، و هكذا الأميرة «ست الملك» و هى ابنتها من الخليفة الإمام العزيز باللّه. و قد مرّ معنا أنه فى عهد الإمام الحاكم بأمر اللّه تمّ تعيين «أريطس» بطريركا على بيت المقدس، و «أرسانيوس» شقيقه بطريركا على القاهرة أو البلاد المصرية، و من الجلى الواضح أنه فى تلك الفترة، مارست الطائفة الملكانية ضغطها، و حملاتها على الطائفة الثانية.

من هنا يصبح بالامكان القول: إن المصادمات الطائفية، و الصراعات الداخلية الدامية بين الفريقين. كانت تحتدم، و يستعر أوارها من حين لآخر، حتى تصل أحيانا فى عنفها، و ضراوتها إلى حد الهجمات على الكنائس، و الأديرة، و إشعال النيران فيها، و نهب محتوياتها، و كانت الملكانية هى المتغلبة فى أكثر الأحيان، لأن عددا غير قليل من أفرادها كان يستخدم فى الجيش، و الشرطة، و وظائف الدولة العليا. و إزاء هذه الأحداث لم يسلم الإمام الحاكم بأمر اللّه من ألسنة الفريق الثانى الذين اتهموه بالتحيز لأخواله، و إمدادهم، و الانتصار لهم فى أعمالهم التدميرية العنيفة.

لقد قرأنا فى كتب التاريخ العربى، و الإسلامى صفحات طافحة بالمديح و الإطراء للخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه ... و قرأنا فى كتب غيرها عبارات الذم، و النقد، و التجريح، و هذه المتناقضات تجعلنا مضطرين إلى عدم تصديق كل ما قد ذكر عن هذا الخليفة العظيم، فكيف يكون ظالما من نصب نفسه، و كرسها لإنصاف المظلوم و معاقبة الظالم ... و كيف ننسب الجنون إلى إنسان متفوق بعلمه، و عبقريته، و عباداته، و إصلاحاته للمجتمع؟

##PAGE=63##

لم يمر فى التاريخ ... و لم نسمع أن أسرة من الأسر تعرضت فى حياتها إلى ظلم المجتمع و تحامل الناس، مثل هذه الأسرة الفاطمية، و فى يقينى أن سبب ذلک هو تفوقها على الآخرين فى مجالات الحياة كافة، و وقوفها فى الطليعة فى كل سبيل يهدف إلى الرقى و الحضارة و التقدم.

أجل ... لقد اتهموا الإمام الحاكم بأمر اللّه بكل شىء ... اتهموه بالجنون ... بالظلم ... بالطغيان، و ذهبوا إلى حد القول بأنه ادّعى الألوهية ... كما قالوا ... إنه اغرم بشقيقته «ست الملک» فهل بقى شىء فى جعبة هؤلاء المتزمتين المجردين من الشرف و الأخلاق و الضمير لم يصبّوه، و يفرغوه من جعبة ترهاتهم و كفرهم على هذا المعلم المصلح الكبير.

إننا نقف بوجوم لنقول لهؤلاء: سامحكم اللّه ... فالحقيقة لا بدّ لها من الظهور، مهما أسدل عليها من ظلام، و إن للباطل جولة ثم يضمحل.

فالحاكم بأمر اللّه لم تبدر منه أية بادرة أثناء حكمه تنم عن ترغيب أو تشويق لإخراج أحد عن دينه. و له قول مأثور فى هذا الصدد:

«إن كل الناس فى دولتنا ... أحرار فى اختيار مذهبهم، و إظهار ما فى ضميرهم، و ممارسة طقوسهم ... و لا إكراه فى الدين».

و قد قرأنا فى أكثر من كتاب تاريخ ... أنه سمح لأتباع مذهب مالک بأن يدرسوا أصول مذهبهم فى دار الحكمة، و قد اعتبر ذلک من مآثر الحاكم، و من بعد نظره.

و هذا البيان يؤيد ما ذهبنا اليه من أن الحاكم بأمر اللّه لم يكن متعصبا لدين من الأديان، بل كان متسامحا مع الفرق الدينية الإسلامية، و غير الإسلامية الأخرى، و ممّا يجب أن نشير اليه: أنه عيّن فى رئاسة القضاء بمصر قاضيا سنيا هو: «ابن أبى العوام» و عند ما قال بعض خاصته:

إنه ليس على مذهبک، و لا على مذهب من سلف من آبائک ... أجاب:

يكفى أنه ثقة و مأمون، و مصرى، و عارف فى القضاء، و فى أهل البلد، و ليس فى المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره.

و ذكر بأن الإمام الحاكم بأمر اللّه أصدر تحريما بمنع سب أعداء المذهب فى أى مكان جريا على سنة آبائه الحميدة، كما حرّم اللعن

لدرجة القتل، و للإمام الحاكم بأمر اللّه مرسوم فى هذا المعنى نورد بعض ما جاء فيه. قال:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

من عبد اللّه، و وليه «أبى على» الحاكم بأمر اللّه ... أمير المؤمنين.

الى كلّ حاضر و باد:

أمّا بعد، فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب اللّه المبين: «لا إِكْراهَ فِى الدِّينِ»[٤]. مضى أمس بما فيه، و أتى اليوم بما يقتضيه. معاشر المسلمين:

نحن الأئمّة، و أنتم الأمّة. من شهد الشهادتين، و لا يحل عروة بين اثنين، تجمعهما هذه الأخوة، عصم اللّه بها من عصم، و حرم عليها ما حرّم، من كل محرم من دم و مال و منكح. الصلاح و الاصلاح بين الناس أصلح، و الفساد و الإفساد من العباد يستقبح. يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر، و يعرض عمّا انقضى فلا يذكر ...»

الى أن يقول:

«يؤذن بحىّ على خير العمل المؤذنون، و لا يؤذى من بها لا يؤذنون. لا يسبّ أحد من السلف، و لا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف و الخالف فيهم بما خلف، لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده، و الى اللّه ربّه ميعاده ... أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[٥].

معشر المؤمنين: نحن الائمة، و أنتم الأمة. عليكم أنفسكم لا يغركم من ضلّ إذا اهتديتم، الى اللّه مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون.

و الحمد للّه رب العالمين، و صلواته على رسوله سيدنا محمد (ص) و آله الاكرمين».

---

[٤] (*) القرآن الكريم،« سورة البقرة»، الآية 256.

[٥] (**) القرآن الكريم،« سورة المائدة»، الآية 105.

و من مآثر الحاكم بأمر اللّه، و تدابيره، و إصلاحاته ... أنه شدّد على مراقبة التجار و أصحاب الحرف و الصناعات مراقبة دقيقة لمنع الغش، و التلاعب بالأسعار، و كان يعاقب المخالف عقابا صارما. و من قوانينه أنه ألغى جميع الألقاب فى الدولة بدءا بنفسه.

و مهما يكن من أمر ... فقد عرفنا أن الفاطميين عند ما جاؤوا إلى مصر، اطلقوا للشعب الحرية المطلقة بتناول حياتهم كما يريدون. فكانوا يشربون الخمرة بكثرة، و فى ذلك الوقت اشتهرت مصر بصنع «البيرة»

##PAGE=65##

المسمّاة «الفقّاع» و النبيذ المسمّى «المرز» و عند ما أصدر الحاكم أوامره بإضاءة الشوارع، و الأسواق، و الحوانيت فى مصر و فى العاصمة القاهرة، ليلا اتخذ الناس ذلك سببا لمبالغة الفرح و السرور، فخرجت النساء فى الشوارع و الطرقات، و كان الناس يشربون الخمرة فى الشوارع، و الحوانيت، و امتلأت بيوت الفساد، و الفجور، و البغاء، و ساد مصر نوع من الإباحية العلنية.

فماذا على الإمام الحاكم بأمر اللّه، و هو خليفة المسلمين أن يفعل؟ و هو يرى هذه العواصف المدمرة تجتاح رعاياه فتصيبهم فى أخلاقهم، و شرفهم ... ألا يجب عليه أن يضع حدا لهذا المجون المتفشى فى كل مكان من أنحاء دولته؟ أ ليس هو المسؤول عن صيانة الأخلاق و الآداب؟

من الواضح أيضا أنه عند ما منع شرب الخمرة و وجد أن قراره لم يأتى بفائدة، حرّم كل ما يدخل فى صناعتها، فقطعت كروم العنب و ديس العنب فى الطرقات، و كسرت جرّات العسل و دنانها، و منع بيع الزبيب ... و مع كل هذا فإن بعض المؤرخين الذين دأبوا على التهجم، و الطعن بالحاكم بأمر اللّه ... ادعوا أنه لم يحرّم الخمرة تنفيذا لأوامر اللّه، و إنما حرمها على الناس، و أباحها لنفسه ... فيا للتجنى الظاهر ...

و يا للتحايل البغيض ... و هكذا قل عن الحمّامات العامة. فقد تأكد أنها تحولت فى عهد الإمام الحاكم بأمر اللّه إلى مواخير، و كانت مختلطة من الرجال، و النساء، و بدون مئزر، فمنعها منعا باتا تحت طائلة العقوبات الصارمة.

و ممّا يجب أن يذكر ... أن الحكام الذين جاؤوا بعده، وضعوا قيودا صارمة على دخول الحمّامات. و نظموها، و جعلوا بعضها للرجال، و بعضها للنساء. فكانوا بقوانينهم مقلدين ... للإمام الحاكم بأمر اللّه.

و من بين التهم التى قذف بها الإمام الحاكم بأمر اللّه، تهمة حرق القاهرة المعزية. مرحى، مرحى لقد بات للمسلمين «نيرونا» يباهون به أهل رومة. «فويل لهم مما كتبت أيديهم».

الحاكم الزاهد العادل المنقطع لأمور دينه و عقله، يحرق القاهرة لماذا؟

و كيف يحرق مدينة بناها جدّه المعزّ لدين اللّه؟ و إذا كان سيحرقها لماذا صبّ جهده و بذل وسعه فى بناء دورها و قصورها و معاهدها

##PAGE=66##

العلمية؟ ثم هل هانت عليه تربة ضمّت رفات آبائه و أجداده الى هذا الحدّ؟

لقد أعمانا التعصّب عن رؤية نور الحقّ و أصمّنا التحيّز عن سماع اسئلة العقل البسيطة، حتى بات الرجل من مؤرخى الكراهية و المقت يأتى بالشىء و ضدّه، كقولهم إن الحاكم بأمر اللّه قد أمر بهدم كنائس النصارى و بيعها، ثم يوردون العهد الذى أعطاه لهم و هو التالى نثبته كما نقلناه من كتب القوم:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين

هذا كتاب من عبد اللّه، و وليه المنصور أبى على الحاكم بأمر اللّه أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز باللّه أمير المؤمنين، لجماعة النصارى بمصر.

عند ما انهوا إليه الخوف الذى لحقهم، و الجزع الذى هالهم. فأقلقهم و استزرأهم بظل الدولة. و تحرّمهم بحضور الحضرة بما رآه، و أمر به من تكميل النعمة عليهم، بتوخيّه لهم ذمة الإسلام و شرعه من تصيّرهم تحت كنفه، بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة، و تضفو عليهم ملابس السكون و الدعة، و إجابتهم إلى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلّد حكمه على الأحقاب، و يتوارثه الأخلاف منهم، و الاعقاب:

فأنتم جميعا آمنون بأمان اللّه عز و جل، و أمان نبيه محمد خاتم النبيين، و سيد المرسلين صلّى اللّه عليه و سلّم و على آله الطاهرين، و أمان أمير المؤمنين على بن أبى طالب سلام اللّه عليه، و أمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين سلام اللّه عليهم

هذا على نفوسكم، و دمائكم، و أولادكم، و أموالكم، و أحوالكم، و املاككم، و ما تحويه أيديكم، أمانا صريحا ثابتا، و عقدا صحيحا باقيا. فثقوا به، و اسكنوا اليه، و تحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين، و عاطفته، و نصرته تحميكم، و عصمته

تقیکم، لا یقدم علیکم بسوء أحد و لا تتطاول إلیکم بمضرة ید إلّا کانت زواجر أمیر المؤمنین مقصرة من باعه، و عظم انکساره مضیّقا فیه من ذراعه.

و اللّه عون أمیر المؤمنین علی ما تعتقدونه من صلاح و إصلاح لسکان أقطار مملکته، و من له وسیلة الثراء فی کنف دولته، و إیاه یستشهد علی ما أمضاه من أمانة لکم، و عهده الذی یشرفه طرفکم ... و کفی باللّه شهیدا ... و لیقرر فی أیدیهم حجة بما أسبغ من النعم علیهم إن شاء اللّه تعالی.

کتب فی شهر شعبان سنة ۴۱۱ ه.

و اتهموه أیضا بالالحاد، و تعطیل الشریعة، و ادعاء الألوهیة.

##PAGE=67##

و هو الذی کان یبنی المساجد. و یصلی بالناس و یعتکف فی الأمکنة الخالیة للعبادة، و التأمل، و الانقطاع، و لهؤلاء نوجه بعض ما أورده الفیلسوف الکرمانی المعروف «بحجة العراقین» فی رسالته «الواعظة» التی أملاه بها الحاکم بأمر اللّه و التی وجهها الی الحسن الفرغانی المعروف «بالاخرم».

«و أمّا قول أصحابک ... إن المعبود تعالی هو أمیر المؤمنین سلام اللّه علیه.

فقول کفر «... تَکادُ السَّماواتُ یَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ. وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ. وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا ...» أن دعوا للإله المعبود غیرا».

فیا لجسارة علی اللّه تعالی حین جعلوا له تعالی شریکا، ما أعظمها، و یا لجرأة علی اللّه تعالی حین جعلوا المعبود غیره تعالی.

ما أفظعها ... و لقد قالوا قولا عظیما، و افتروا إثما مبنیا، و إن ذلک إلّا کفر محض ... فما أمیر المؤمنین علیه السّلام، إلّا عبد للّه خاضع، و له طائع یسجد لوجهه الکریم، و یعظمه غایة التعظیم، و باسمه یستفتح، و علیه فی أموره یتوکل، و أمره إلیه یفوض، و اللّه تعالی فقد فضلّه علی خلقه، و جعله من جهة الرسول محمد (ص) خلیفة له فی أرضه، و وسیلة لعباده إلی جنته، و أوجب طاعته علی عباده، و هو سلام اللّه علیه، یتبرأ إلی اللّه تعالی ممن یعتقد ذلک فیه.

و کیف یکون معبودا، و هو جسم ذو أبعاض مؤلفة، و نفس ذات قوی مکلفة، یأکل و یمشی، و ینام، و یستیقظ، و تنطوی علیه الأحوال المتضادة من رضی و سخط، و غم و مسرة، و سقم و صحة کغیره من البشر.

و هو سلام اللّه عليه ينفى ما تنسبه أنت و أصحابک إليه عن نفسه ... كلّا إن المعبود ليس إلّا الإله الذى يسجد له أمير المؤمنين سلام اللّه عليه، و يوحده، و يسبحه عن النعوت و الصفات يقدسه، و له يسجد النبيون، و الأوصياء، و الأئمة المتقون، و تابعوهم، و إياه يعبد، و له يسجد من يخرج إلى الكون منهم ما دام عقل، و فاض عدل الذى خلق السموات بأفلاكها، و النجوم بأنوارها، و الأركان بطبائعها، و المواليد على أجناسها.

لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ، وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [6]. و إلى هؤلاء أيضا نوجه ما ذكره الخليفة الفاطمى الإمام المعز لدين اللّه ... قال:

«ينتهى إلينا أخبار عن بعض من يزعم أنه يتولانا، و بعض من يدعى أنه

##PAGE=68##

يدعو إلينا من الغلو فينا ... و القول بما لم نقله فى أنفسنا، و بما لم يسمعه أحد منّا، حتى كأنهم أعلم منّا بما يقولونه فينا، و نحن نبرأ إلى اللّه من كذبهم علينا، و تقولهم فينا، و نحن عبيد من عباد اللّه، مخلوقون، مربوبون، لا علم لنا إلّا ما علمنا، و صار إلينا عن نبيه جدنا محمد (ص) ممّا أودعه اللّه إياه، و أورثناه ممن بعده، و أودعنا، لا نحيط من علمه إلّا بما شاء، و لا من غيبه إلّا ما اطلع عليه منّا من ارتضاه، و كيف أحب و شاء.

لا ندعى النبوة و الرسالة، بل نحن المستحفظون على الإمامة. حلالنا من كتاب اللّه، و حرامنا منه، و طاعتنا مفروضة على عباد اللّه بحكمه ... من عرفنا فقد عرف اللّه، و من جهلنا فقد جهله.

نحن الدالون بحكمته عليه، و القائمون بأمره على عباده نحن دون ما يقول الغالون، و فوق ما يظن الجاهلون. إنّما أراد من نحلنا علم الغيب، و نسب إلينا تنزّل الوحى، ممن يدعو بزعمه إلينا أن يجعل ذلک مقدمة لنفاقه علينا. فإذا أراد ذلک قال لمن كان دعاه:

لم ادعكم إلّا لمن وصفت لكم فيه ما وصفت، فيصدهم بذلک عنّا ... لعن اللّه الصادّين عنّا ... فإنهم عن اللّه يصدون، و بدينه يتلاعبون، أرادوا الدنيا، و عسر عليهم طلبها من وجوهها، فالتمسوا بوجه الدين لينالوا من حطامها ما هو عن قليل منهم زائل، و هم به مطالبون و قد سعد من أخذ عنّا ما نعطيه، و اقتصر عليه، و لم يقل بغيره، و لا تكلف من القول، ما لا يعلمه.

---

[6] (*) القرآن الكريم،« سورة فصلت»، الآية 37.

لقد انتهى إلىّ عن بعضهم أنه قال:

وددت أنه لو سئلت عمّا لا يكون فأجبت عنه، فرأى عند نفسه، و من سمع ذلک ممن يصدقه، أنه قد جاء بما أبان به من علمه، و افتخر بذلک له، فلو تدبر هذا القول من وفّق للصواب، لوضح له من خطئه أن ما لا يكون لا يكون عنه جواب لأنه لا يكون».

اضطراب الدعوة و تفشى الكفر و الالحاد

تسرب الى القاهرة المعزية و إلى داخل مصر بعض المنتسبين، الغرباء على الدعوة الإسماعيلية الذين تدربوا خارج مصر، و فى أيديهم معاول الهدم و التدمير، فاعلنوا عن مذهب جديد يقول «بألوهية» الإمام الحاكم بأمر اللّه. و اعتقد هؤلاء الغرباء أنهم. بهذا الإعلان يتقربون الى الإمام الحاكم بأمر اللّه فيرفع درجتهم و يعلى شأنهم و لحق بهم عدد من الناس طمعا بالتقرب منهم و الانتفاع من هذا المسلک. و قد أجمعت المصادر التاريخية الإسلامية عامة و الفاطمية خاصة على القول بأن الإمام الحاكم بأمر اللّه استنكر هذا السلوک و أنّب

##PAGE=69##

القائلين به و نهاهم و هددهم كما أمر بقتل البعض منهم و أحضر إليهم الدعاة من مصر و من المشرق و من كل مكان لكى يتولوا نصحهم و إرشادهم و لكنهم لم يرتدعوا و عاندوا فى إصرارهم و جنونهم و ظلوا على غيّهم ينفثون سموم الكفر و الإلحاد و يقولون بالإمام الحاكم بأمر اللّه أقوالا لم يسبق لأحد من آبائه و أجداده أن سمع مثلها من قبل.

و لكن هذه الفرقة من الغلاة التأليهيين لم يقدّر لها الحياة و الاستمرار لقد كان لها جولة ثم اضمحلت كما اضمحل غيرها من الفرق الخارجة عن النظام السماوى و القانون الإلهى. و تشير المعلومات المتوفرة لدينا بأن هذه الفرق قد أبيدت و قضى عليها فى عصر الإمام الحاكم بأمر اللّه و فى عهد ولده الظاهر لإعزاز دين اللّه.

أمّا «الموحدون الدروز» فهى الفرقة التى انشقت عن الإسماعيلية الأم، و توقفت عن الركب الإمامى عند الإمام الحاكم بأمر اللّه، فقالت بعودته، و إنى لا أرى أى مأخذ يمكن أن يؤخذ عليها فى اجتهاداتها هذه ... أ لم تتوقف قبلها مجموعة من الشيعة عند الإمام الثانى عشر، ثم أ لم تتوقف الإسماعيلية «المستعلية» فيما بعد عند ما يسمّى الإمام «الطيب» ... و هكذا الفرقة الإسماعيلية المؤمنية النزارية؟

لقد قرأت بعض كتب هذه الفرقة، و أطلعت على العديد من مخطوطاتها، و عرفت الكثير من رجالاتها، و شيوخها، و فيهم علماء، و أدباء، و رجال وطنيّة لهم جولات، و خدمات عربية و إسلامية.

و الحقيقة هى أنه ليس فى الدروز و اعتقاداتهم ما يصح أن نسميه خروجا على المألوف، فهى، و فى كل أدوارها كانت تتبع التعاليم الفاطميّة الصحيحة التى تحارب الانحراف، و الغلو، و الشرک، و التطرف، و قد ورد كل هذا فى رسائل اخوان الصفاء، و الرسالة الجامعة التى نبهّت، و دعت الى التمسک بأهداب الإسلام، و القرآن، و لكن عن طريق العلم، و الفعل، و المنطق، و قد أسىء فهم كل هذا، و كان خطأ النقّاد عدم فهمهم للرموز، و للأسماء، و للحدود التى وردت فى مخطوطاتهم.

ففى كتبهم تطالعنا أقوال دعاتهم التى تنص:

«على أن اللّه هو الواحد. الأحد، الفرد الصمد، لم يلد، و لم يولد، و لم يكن

##PAGE=70##

له كفؤا أحد ... فهو المنزه عن الأسماء و الصفات ... لا يتجانس و لا يحدّ، و لا يتشاكل، و لا تبصره الأبصار ...»

ثم قالوا: إن الإمام الحاكم بأمر اللّه هو إمام، و حارس الشريعة، و مصدر القوانين، و إنه ممثل العقل الفعّال فى عالم الطبيعة. كما قالوا بالحدود العلوية كالأمر، و الكلمة، و العقل، و النفس ... الخ. و طبقوها على حدود العالمين الجرمانى، و الطبيعى، و رتبوا العقول العشرة، و آمنوا بالتأويل الذى هو تفسير المعانى الباطنية، و كل هذا لا يختلف عمّا لدى الإسماعيلية إلّا ببعض الاجتهادات، و النظريات، و الفروع.

و مهما يكن من أمر ... فكل هذا قد ورد فى كتاب «أصل الموحدين الدروز» لمؤلفه «أمين طليع» ... و هذا الكتاب قرّظه مشائخ العقل، و أقروا ما جاء فيه، و باركوا عمل مؤلفه. ففى الصفحات ۶۴ و ۶۵ قال ما نصّه الحرفى:

«كان بعضهم يخاطبونه بسيدنا و مولانا ... فمنعهم من ذلک، على أن يكتفوا بلقب أمير المؤمنين، و أباح دم كل من خالف ذلک ... و من أوامره:

أن لا يقبل أحد له الأرض، و لا يقبّل ركابه، و لا يده عند السّلام عليه فى المواكب، و أن لا يزاد على قولهم:

السّلام على أمير المؤمنين، و رحمة اللّه و بركاته ... و لا يقل الخطباء يوم الجمعة سوى:

اللهمّ صلّ على محمد المصطفى، و سلّم على أمير المؤمنين على المرتضى ...

اللهمّ سلّم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين ... اللهم و اجعل أفضل سلامک على عبدک و خليفتک».

و جاء فی کتاب «مذهب الموحدین الدروز» صفحهٔ (۱۵۰) ما یلی:

«حکم/ ۲۵/ عاما ... أی من عام سنهٔ ۳۸۶ ه. حتی سنهٔ ۴۱۱ ه ... فلم نجد فی أثنائها لا فی سیرته و لا فی أقواله انحرافا عن الإسلام، و لیس لدینا ما هو منسوب إلیه، أو صادر عنه ما یدل علی دعوی الألوهیهٔ، أو یخالف شروط الخلافهٔ، و أحکام الإسلام.

و أخیرا:

لا بد من التوضیح بأن مذهب الدروز الذی قرأنا عنه، هو مذهب توحیدی قائم علی العقل، و علی دعائم من الفلسفهٔ، و قد ذکرنا أنهم

یقولون بالتوحید، و رفض کل شرک، و بأن اللّه هو أحد فرد صمد، و إلی جانب ذلک توجد قاعدهٔ التأویل.

دعاهٔ الموحدین (الدروز)

و یبدو لنا أنه من الضروری فی هذه الصفحات أن نأتی علی موجز لدعاهٔ الموحدین الدروز، و ذلک تتمهٔ للموضوع الذی نعالجه.

۱- حمزهٔ بن علی بن أحمد الزوزنی: ولد سنهٔ ۳۷۵ ه. و تخرج من جامعهٔ «جندیسابور» بفارس. کان عالما کبیرا فاق أقرانه فی العلوم الدینیّهٔ، و الفلسفهٔ الإلهیهٔ. التحق بدار الحکمهٔ فی القاهرهٔ المعزیّهٔ و تقرّب من الخلیفهٔ الإمام الحاکم بأمر اللّه، و حظی لدیه بمکانهٔ مرموقهٔ: لقب نفسه: العقل، و هادی المستجیبین.

۲- اسماعیل بن محمد بن حامد التمیمی: کان عالما، و قائدا، و شاعرا. قاد جیوش الإمام الحاکم بأمر اللّه فی کثیر من المیادین، و کان الید الیمنی لحمزهٔ. کتب مجموعهٔ من الرسائل الفلسفیهٔ القیمهٔ. لقب نفسه: بالنفس الکلیّهٔ، و الشیخ المجتبی، و ه‌رمس الهرامسهٔ، و أخنوخ الزمان، و الحجهٔ الصفیّهٔ الرضیهٔ.

۳- محمد بن وهب القرشی: ینتسب لآل البیت النبوی الکریم ... کان عالما و صادقا ... لقب نفسه بالکلمهٔ، و الشیخ المرتضی، و سفیر القدرهٔ، و فخر الموحدین، و عماد المستجیبین، و الکلمهٔ العلیا ... ذکر أن له عددا من الرسائل و المؤلفات.

۴- سلامة بن عبد الوهاب السامرى: لقب نفسه بالسابق تكريما و إجلالا، و سمى: الشيخ المصطفى، و نظام المستجيبين، و عز الموحدين، و الجناح الأيمن.

۵- على بن أحمد السموتى: كان غزير المادة، و مجتهدا، و دؤوبا على الدرس و العمل، كتب أكثر رسائل التوحيد، و ظلّ يكافح حتى سنة ۴۳۴ ه. و هو التاريخ الذى تمّ بخلاله إغلاق باب الدعوة التوحيدية تقية، و تفاديا للجور، و الظلم، و التشريد، و التنكيل، و القتل الجماعى الذى نزل بالموحدين فى مصر، و الشام على أيدى حاكمها صالح بن مرداس الكندى: لقب نفسه: الشيخ المجتبى، و بهاء الدين، و لسان المؤمنين، و سند الموحدين، و الناصح لكافة الخلق أجمعين.

##PAGE=72##

نهاية الامام الحاكم بأمر اللّه

بدأ الإمام الحاكم بأمر اللّه لغزا صعب الحل، و انتهى سرا من الأسرار التى لم يتمكن أحد من الوصول الى استجلائه ... و هكذا بقى، و سيبقى لغز الدهر، و سر الزمن. إلى ما لا نهاية ... أمّا أقوال المؤرخين، و أمّا الروايات، و الأساطير فكلها جاءت دونما دليل، و كانت فى جملتها مضطربة لا تشفى عليلا، و لا تروى غليلا. و كل هذا زاد فى الاعتقاد بأن جريمة الاغتيال، و إخفاء الجثة دبرت من قبل رؤوس كبيرة لها سوابق فى اقتراف الجرائم، و ماض عريق فى أعمال القتل، و الاغتيالات و ربما كانوا ممن نجوا من سيفه، و فروا إلى بلاد بعيدة، ثم عادوا متنكرين، و بأيديهم الخناجر مدفوعين من عناصر، أو من دول معادية، و ربما كانوا ممن نال أحد أقربائهم الأذى، أو لعلهم ممن كانوا، يحملون للإمام الحاكم بأمر اللّه الحقد الدينى المتوراث، و هؤلاء كانوا كما مرّ معنا يحللون سبّه على منابر المساجد أثناء تأديتهم الصلاة، و ليس بعيدا أن يكونوا من الأقباط اليعاقبة الذين كانوا يخوضون حربا عنيفة ضد الأقباط الملكيين أخوال الإمام الحاكم بأمر اللّه، الذين كانوا مشمولين بعطفه و رعايته، و محسوبين فى كل ما يبدر منهم عليه. و ليس هناك أغرب، و أتفه من اتهام شقيقة الإمام الحاكم بأمر اللّه الأميرة «ست الملك» و القول بأنها كانت وراء الجريمة ... و نحن هنا ملزمون بترديد ما ذكرته المصادر، و بالرغم من أننا لا نقرها، و لا نؤمن بصدقها.

لقد ذكرت هذه المصادر: بأن الأميرة «ست الملك» استعانت بأحد قوّاد الجيش المسمّى «حسين بن دوّاس» و هو مغربى و من شيوخ «كتامة»، و أنها ذهبت إليه ليلا، و استحلفته، و بعد أن وثقت منه قالت له: أنت تعلم ما يقصده أخى منك ... فهو يريد قتلك، و فوق هذا لقد ادعى الألوهية، و هتك ناموس الشريعة الإسلامية، و ناموس آبائه و أجداده، و ازداد جنونه يوما بعد يوم.

و ذكروا أن الأميرة ست الملک وعدته بأن تجعله القائد الأعلى للجيش و للبلاد، كما وعدته بالأموال، و الاقطاعات. فقبل ابن دوّاس العرض، و باشر بتنفيذ الجريمة بأن أرسل عبدين من عبيده ... نفذا عملية الاغتيال بسهولة. و من المعروف عن الإمام الحاكم بأمر اللّه أنه كان

مولعا بالخروج الى جبل المقطّم فى الليل حيث يتفرّغ للانقطاع، و العزلة، و مراقبة حركات النجوم، و رصد الكواكب ... و كان من عادته أيضا أن يستبقى بعض الخدم بانتظاره كل ليلة عند باب القصر، فإذا ركب ركبوا معه، و عند ما يصل الى الجبل كان يردهم ما عدا الركابى أى حارسه الخاص.

و ممّا ذكروه أيضا أن الأميرة ست الملک راقبت أخاها من قصرها الذى كان قريبا من قصر أخيها ... فلمّا خرج أرسلت وراءه العبدين، و زودتهما بخنجرين حادين، فلحقا به إلى جبل المقطّم، و هناک أجهزا عليه، كما قتلا الركّابى، ثم حملا جثة الإمام الحاكم بأمر اللّه الى ابن دوّاس فحملها بدوره إلى ست الملک التى عملت على إخفائها.

و زاد المؤرخون بأن الأميرة ست الملک عمدت فيما بعد إلى قتل ابن دوّاس، و العبدين، و ذلک إخفاء للجريمة.

و هناک رواية أخرى تقول: بأن الإمام الحاكم بأمر اللّه ليلة خروجه إلى المقطّم ... كان يرافقه الركّابى و هو حارسه الخاص وحده، فاعترض طريقه سبعة رجال من البدو، و التمسوا منه العطاء و لكن بجفاء و غلظة. فأجابهم: بأنه لا يحمل مالا يدفعه لهم، و لكنه يرسلهم إلى متولى بيت المال، و كان وقتئذ «ابن بدوس» المسؤول عن الشؤون المالية للدولة الفاطمية، لكى يقوم بنقدهم خمسة آلاف درهم ... فقالوا:

إنهم لا يمضون إليه، لأنه لا يدفع لهم شيئا، و اشتدّ الجدل بينهم و بينه، و أخيرا طلبوا إليه أن يرسل معهم الركّابى لينجز لهم ما وعد به من عطاء. فأمر الإمام الحاكم بأمر اللّه الركّابى بمرافقتهم فسار مع أربعة منهم صوب المدينة، و تخلّف الثلاثة الآخرون.

ثم إن الركّابى عاد بعد أن أدّى مهمته، فلم يجد سيده فى المكان الذى تركه فيه، و طال بحثه دون جدوى، حتى لقيه أحد الرجال فسأله، و ذكر له صفة الإمام الحاكم بأمر اللّه، و صفة حماره ...

فأخبره أنه رأى الحمار فى طريقه معرقبا، ثم أخذه إلى الموضع. و فى صباح اليوم التالى سارت الأميرة ست الملک، و جميع الأمراء و الوزراء و القواد إلى الجبل، و ما زالوا يتتبعون أثر الإمام الحاكم بأمر اللّه، حتى وصلوا إلى «دير القصير» و هناک بحثوا فى الدير، و فى أكثر المواضع التى كان من عادته أن يرتادها، فلم يقفوا له على أثر ...

و لكنهم عثروا فى مكان آخر على ثيابه. و فيها آثار الطعنات، و الدماء، و لكنهم لم يجدوا الجثة فاستدلوا من ذلک علی أن البدو الثلاثة الذين تخلفوا عن رفاقهم هم الذين ارتكبوا جريمة القتل. و إخفاء الجثة فى الجبل.

و ذكر مؤرخ آخر:

«بأن الإمام الحاكم بأمر اللّه ... عند ما سار فى طريقه إلى المقطّم، و بعث الركّابى مع نفر من عرب «بنى قرّة» الذين اعترضوا طريقه ... صرفوا الركّابى عند قبر «الفقاعى» فى وسط القرافة الكبرى ... و لمّا لم يعد الإمام الحاكم بأمر اللّه كعادته فى صباح اليوم التالى، خرج القضاة، و الاشراف، و الوزراء، و القواد إلى الجبل، فبحثوا عن الإمام حتى آخر النهار. و لكنهم لم يعثروا له على أثر، و كرروا الذهاب على هذا النحو ثلاثة أيام دون جدوى ... و فى اليوم الخامس خرج «مظفّر» صاحب المظلة، «و نسيم» صاحب الستر، و «ابن مسكين» صاحب الرمح و عدة آخرون من رجال الدولة، و توغلوا فى شعب المقطّم حتى بلغوا دير القصير على مقربة من حلوان ... و هناک عكفوا على البحث، و التنقيب، و ما زالوا حتى عثروا على الحمار الأشهب، و قد قطعت ساقاه الأماميتان و عليه سرجه و لجامه ...

فتبعوا الأثر، و إذا هناک أثر راجل خلف أثر الحمار، و أثر رجل آخر أمامه ... فتتبعوا ذلک الأثر و ما زالوا حتى وصلوا إلى البركة الواقعة شرقى حلوان، فنزلها البعض حيث عثروا على ثياب الإمام الحاكم بأمر اللّه، و هى سبع جباب مزررّة لم تحل أزرارها، و فيها أثر الطعنات ...

و عندئذ أيقن الناس بقتله.

و ينقل المؤرّخ المقريزى، فى خططه، عن الأمير المسبحى، رواية تقول إنه «فى المحرم سنة ۴۱۵ ه. قبض على رجل من بنى حسين بالصعيد الأعلى، فأقرّ بأنه قتل الحاكم بأمر اللّه فى جملة أربعة أنفس، تفرّقوا فى البلاد، و أظهر جلدة رأس الحاكم و قطعة من الفوطة التى كانت عليه. فقيل له: لم قتلته؟ فقال: غيرة للّه و للإسلام ... الخ».

و الأمير المسبّحى، هو مؤرخ ثقة، و له من طويل صحبته للإمام الحاكم بأمر اللّه، و رفيع مكانته فى القصر الفاطمى، و وقوفه على المعلوم و المجهول من أسرار ذلک العصر، ما يحملنا على الأخذ بما يقول فهو قد رأى و سمع كل ما دار فى حجرات القصر عقيب مصرع الإمام، و بالتالى فهو شاهد عيان و ليس كالشاهد العيان مصدرا ينقل عنه.

بيد أن رواية الأمير، تأتى إلى الخاطر بسؤال يلحّ على الجواب، و أعنى السؤال عن غيرة رجل بنى حسين هذا على الإسلام، ما هى؟

##PAGE=75##

و ما سببها؟ و هل كان الرجل واحدا من الخلق اجتهد فى الرأى فقرّر اغتيال الخليفة؟ أم أن ثمّة من يقف وراءه؟

نقول هذا و نذكّر بأن فى «الغيرة على الإسلام» نكهة عباسية لا يخطئها الأنف، و هى ليست المرة الأولى التى ينبز فيها أعداء الفاطميين، بالمروق من الدين و الخروج عليه. و الذى أراه هو أن الرجل و أصحابه كانوا من المؤمنين السذّج، غرّر بهم أعداء الدولة الفاطمية، فخدعوا بما سمعوا و ركبتهم الحمية و مضوا إلى ما نعلم من عظيم الإثم و سوء الجناية و هم يحسبون أنهم يتقربون إلى اللّه بقربان عظيم.

و ما دمنا قد وضعنا هذه الرواية فى الميزان، فلا بد لنا أن نسأل عن دين القاتل الذى سلّم القوم بصواب فتواه و اجتهاده فى قتل إمام الأمة، أو قل، فى قتل رجل من عامّة المسلمين دون الرجوع إلى فقيه عالم بالأحكام له من علمه و ورعه أن يفتى فى الناس، ما دين هذا الرجل الذى لا يريد إلّا الإسلام ليحلّ حلاله و يحرّم حرامه، ثم يطعن صدره بحديدة و كأن الرسول لم ينه عن ذلك فى الحديث المأثور «من وجأ نفسا بحديدة حشر يوم القيامة و حديدته بيده يجأ نفسه بها خالدا مخلّدا فى النار ... الخ» لقد كان القوم فى عجلة من أمرهم عند ما نسبوا للرجل، المغرّر به، ما نسبوه من قول. نعم لقد أهلك الرجل نفسه، فما فى ذلك شكّ، و لكنه فعل ذلك يأسا و قنوطا فلقد أقر بالوزر الفادح الذى يثقل ضميره، عند ما أفاق على ما جنته يداه و علم أنه قد أهلك نفسا بغير نفس، و أنه جنى على الأمّة جناية لا تذهب بها الأيام.

يبقى القول بأن رواية الأمير تنفى التهمة عن الأميرة ستّ الملك و تعلن براءتها مما قرفت به، و إلى هذا ذهب المقريزى، و هو عندى الصواب.

ثمة أيضا رواية تقول بمقتل الإمام الحاكم بأمر اللّه على يد ابن دواس، الذى أراد الإمام قتله، ففرّ هاربا و لجأ إلى جماعة من أهل بادية مصر، و كانوا من أنصار أبى ركوة، فاتفق معهم على اغتيال الإمام و اتمّوا ما اتفقوا عليه و أن الأميرة ست الملك احتالت على ابن دواس، الذى عاد إلى بيته بعد مصرع الإمام، فدعته إلى قصرها

##PAGE=76##

و دسّت فى الوقت نفسه جماعة فتشوا منزله فوجدوا سكين الإمام الحاكم فيه، فكانت قرينة لا تردّ.

و ثمّة رواية أخرى تقول بأن القتلة كانوا من قبيلة المصادمة المغربية بتحريض من الأمويين فى الأندلس و قيل بل هم سويديون يتزعمهم سويد بن الحارث ...

و لكن أيّا كان القاتل، و أيّة كانت دوافعه، فإن الروايات كلها تجمع على مصرع الإمام الحاكم بأمر اللّه و انتقاله إلى حضرة ربّه، ضحية تدبير سرى و أن غموض ملابساته، و غياب قرائنه، تحمل على القول بأنه كان تدبيرا أكبر من طاقة الفرد الواحد و أبعد مرمى من غايات مؤمن بنى حسين.

يبقى الكلام فى التهمة الموجهة إلى ستّ الملک:

لماذا تقتل ست الملک ذات الطول و الحول، التى لا تحتاج شيئا و لم يحرمها أخوها من شىء، أخاها الحاكم؟

أ غيرة على الدولة الفاطمية؟ و انتصارا للتراث الفاطمى؟

ست الملک تغار على الدولة أكثر من أخيها؟ أ فلا يكلف المرء نفسه جهد قراءة ما أثر عن الحاكم بأمر اللّه من نصوص و سجلات و توقيعات و خطب، ليحكم عليه و لينظر فى أمره، هل كان شرّا على الدولة أم أنه كان حاكما عادلا لا يلتوى عليه الحق، و يأخذ الناس بما يأخذ به نفسه، و يوصى قاضيه بتقوى اللّه و الحرص على إنفاذ أحكام اللّه، و ينظر إلى مصالح أمته فيرى فيها رأيا قد لا يعيه العامى و لا يقبله المتجنّى حتى تأتى الأيام بالدليل على صوابه؟ ثم إننا لم نقرأ فى كل ما وصلنا من صحف عن أخبار ذلک الزمان أن الإمام الحاكم بأمر اللّه، كان جشعا شرها، أو سارقا متعسّفا، يضع أموال الخلق فى غير مواضعها، و لا عرفنا عنه الحقد و الحرص على الانتقام و حكايته مع الشريف العلوى الذى صرخ به و أساء القول فى حضرته على مرأى من الناس و مسمعهم، موجودة و هذه ليست رواية شيعية فقط مما يعنى أنها سليمة من شکّ «المحققين» و ريبهم العلمى.

و بعد، فستّ الملک سيدة نبيلة عرفت بالذكاء و التعقل و الحكمة و الحزم فلا بد لها إذن من أن تعرف أن السماح للخلق بالتطاول على الإمام

و قتله سيكون أوسع ثغرة تفتح فى بناء الدولة، فست الملک تعرف، لا جرم، أخبار بنى العبّاس، و مصارع خلفائهم على يد الغلمان و القواد لأن أحدهم فتح الباب فصار سدّه مستحيلا على من جاء بعده.

لقد سقط الإمام الحاكم بأمر اللّه صريعا، فيما قرأنا و يعلم الجميع، على أرض مصر و ليس فى صقع من أصقاع القطب الشمالى، فمن أين اتوا إذن بتلك الأثواب الصوفية السبعة فوق بعضها البعض طباقا كالسموات و الأرضين؟ و كيف أطاقها الإمام.

لقد قتل الإمام الحاكم و يقتل مرارا، مرة بيد من وجأه بمديته فقضى عليه، و مرات على يد الأساتذة الذين أساؤوا إلى تاريخه.

لقد كان الإمام الحاكم بأمر اللّه يحظى بتقدير، و احترام الشعب المصرى خاصة فى ذلك العصر البعيد نظرا لما يمتلكه من صفات عالية. و قد ذكر تاريخ مصر أن بعض القوّاد قدموا أنفسهم قرابين فى سبيله، و اعتقدوا فيه بأنه خير من حكم بلادهم، و سهر على راحة شعبها.

أمّا عقيدته الدينية فقد وصفها «حجة العراقين» الفيلسوف الكبير الكرمانى بقوله: إنه إمام مؤمن باللّه و برسوله ... و إنه كرّس نفسه لعمل الخير، و تعشق المثل، و هام بجلائل الأعمال.

لقد ذكروا صفاته، و أخلاقه فى كتب عديدة، و لكن ضاع أثرها، و يعتبر الأمير المسبحى مؤرخ عصره، و أصدق من كتب عنه، و إليه يعود الفضل بما ذكر عنه من حقائق. و من المعلوم أن المؤرخ المقريزى سار على أثره، بإنصاف الإمام الحاكم بأمر اللّه، و تصويره على حقيقته.

و أخيرا، و تتمة للفائدة رأينا أن نضع فى هذه الصفحات صورة طبق الأصل عن البيان الذى أذاعه الإمام الحاكم بأمر اللّه على رعيته قبل وفاته، عند ما اضطربت الدعوة، و عصفت بها رياح الانقسام، فكان لا بد له من إغلاق أبوابها، و توقيف نشاطها ... و هذا هو البيان:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

و العاقبة لمن تيقظ من وسن الغافلين، و انتقل عن جهل الجاهلين، و أخلص منه اليقين، فبادر بالتوبة إلى اللّه تعالى، و إلى وليه و حجته على العالمين، و خليفته فى أرضه و أمينه على خلقه أمير المؤمنين، و اغتنم الفوز مع

المطهرين و المتقين، و لم يكذب بيوم الدين، و كان بالغيب من المصدقين به و الموقنين، و أعتقد أن الساعة آتية بغتة لا ريب فيها و أن اللّه لا يضيع أجر المحسنين، و لا عدوان إلا على الظالمين المردة الشياطين، الفسقة المارقين، و كل حلاف مهين، الناكثين الباغيين المفسدين الطاغيين، أهل الخلاف و المنافقين المكذبين بيوم الدين، المغضوب عليهم و الضالين، و الحمد للّه

حمد الشاكرين، حمدا لا نفاد لآخره أبد الآبدين، و صلّى اللّه على سيد المرسلين محمد المبعوث بالقرآن إلى الخلق أجمعين، و مبشرا و نذيرا بأئمة من ذريته هاديين مهديين، كراما كاتبين، شهداء على العالمين، ليبينوا للناس ما هم فيه مختلفون، و عنه يتساءلون، و يرشدونهم إلى النبأ العظيم، و الصراط المستقيم، سلام اللّه السنى السامى عليهم إلى يوم الدين.

أما بعد أيها الناس فقد سبق إليكم من الوعد و الوعظ و الوعيد، من ولى أمركم و إمام عصركم، و خلف أنبيائكم و حجة باريكم، و خليفته الشاهد عليكم بموبقاتكم، و جميع ما اقترفتم فيه، من الاعذار و الإنذار ما فيه بلاغ لمن سمع و أطاع، و اهتدى و جاهد نفسه عن الهوى و آثر الآخرة على الدنيا، و أنتم مع ذلک فى وادى الجهالة تسبحون، و فى تيه الضلالة تخوضون و تلعبون، حتى تلاقوا يومكم الذى كنتم به توعدون. كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون، كلا لو تعلمون علم اليقين، و قد علمتم معشر الكافة، أن جميع ما ورثه اللّه تعالى لوليه و خليفته فى أرضه، أمير المؤمنين سلام اللّه عليه، من النعم الظاهرة و الباطنة، قد خول إمام عصركم لشريفكم و مشروفكم من خاصتكم و عامتكم، من ظاهر ذلک و باطنه، على الإكثار و الإمكان بفضله و كرمه، حسب ما رأى سلام اللّه عليه، و لم يبخل بجزيل عطائه، و هنا كم منة منه، مع ذلک ما أوجبه اللّه تعالى له عليكم، فى كتابه من الحق، فيما ملكته أيمانكم، و لم يشاركم فى شى ء من أحوال هذه الدنيا، نزاهة عنها و رفضا منه لها، على مقداره و مكنته، لأمر سبق فى حكمته، هو سلام اللّه عليه اعلم به، فأصبحتم و قد حزتم من فضله و جزيل عطائه، ما لم ينل مثله بشر من الماضيين من أسلافكم، و لا أدرک قوة أنبأ منه أحد من الأمم الذين خلوا من قبلكم من المهاجرين و الأنصار، فى متقدم الأزمان و الأعصار، و لم تنالوا ذلک من ولى اللّه باستحقاق، و لا بعمل عامل منكم من ذكر و أنثى، بل منة منه عليكم، و لطفا بكم و رأفة و رحمة، و اختبارا ليبلوكم أيكم أحسن عملا، و لتعرفوا قدر ما خصكم به فى عصره من نعمته و حسن منته و جميل لطفه، و عظيم فضله و إحسانه، دون من قد سلف من قبلكم، فاشكروا للّه و وليه كثيرا على ما خولكم من فضله، و لعلكم تشكرون، و تعملون عملا يرضى و يضاهى أعمال الأمم السالفين أضعافا، حسب ما ضاعفه لكم ولى اللّه فى عصره، من نعمه الظاهرة الجليلة، من القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة، و الخيل المسومة

و الأنعام إلى غير ذلک من الأرزاق و الإقطاع و الضياع و غيره من أغراض الدنيا، على اختلاف أصناف إحسانه، و رقى خاصتكم و عامتكم إلى الدرجات العالية، و الرتب السامية، لتقفوا مسالک أولى الألباب، و أمركم و شرفكم بأحسن الألقاب، و جولكم فى الأرض مشرقا و مغربا، و سهلا و جبلا، و برا و بحرا، فأنتم ملوكها و سلاطينها و جباة أموالها تفک لكم بمادة ولى اللّه الرقاب، و تنقاد إليكم الوفود و الأحزاب، و إن تعدوا نعمة اللّه لا تحصوها، فعشتم فى فضل أمير المؤمنين، سلام اللّه عليه، رغدا بغير عمل، و ترجون بعد ذلک حسن مآب. و من نعمه الباطنة عليكم، تمسككم فى ظاهر أمركم بموالاته، تعتزون بمعانى

دنياتكم و ترجون بها نجاتكم و الفوز فى آخرتكم، فقد تمنون على اللّه و على وليه بإيمانكم، بل اللّه يمن عليكم أن هداكم إلى الإيمان، فأنتم متظاهرون بالطاعة متمسكون بالمعصية، و لو استقمتم على الطريقة الوسطى لاسقيتم ماء غدقا. ثم من نعمه الباطنة عليكم إحياؤه لسنن الإسلام و الإيمان التى هى الدين عند اللّه، و به شرفتم و طهرتم فى عصره على جميع المذاهب و الأديان، و ميزكم من عبدة الأوثان، و أبانهم عنكم بالذلة و الحرمان، و هدم كنائسهم و معالم أديانهم، و قد كانت قديمة من قدم الأزمان، و انقادت الذمة إليكم طوعا و كرها، فدخلوا فى دين اللّه أفواجا، و بنى الجوامع و شيدها، و عمر المساجد و زخرفها، و أقام الصلوة فى أوقاتها، و الزكوة فى حقها و واجباتها، و أقام الحج و الجهاد و عمر بيت اللّه الحرام، و أقام دعائم الإسلام، و فتح بيوت أمواله، و أنفق فى سبيله، و خفر الحاج بعساكره، و حفر الآبار و آمن السبيل و الأقطار، و عمر السقايات، و أخرج على الكافة الصدقات و ستر العورات، و ترك الظلمات، و رفع عن خاصتكم و عامتكم الرسوم و الواجبات التى جعلها اللّه تعالى عليكم من المفترضات، و قسم الأرض على الكافة شبرا شبرا، و داولها بين الناس حينا و دهرا، و فتح لكم أبواب دعوته و أيدكم بما خصه اللّه من حكمته ليهديكم بها إلى رحمته و يحثكم على طاعته، و طاعة رسوله و أوليائه عليهم السّلام، لتبلغوا مبالغ الصالحين، فشينتم العلم و الحكمة، و كفرتم الفضل و النعمة، و نبذتم ذلک وراء ظهوركم، و آثرتم عليه الدنيا كما آثروها قبلكم بنو إسرائيل، فى قصة موسى عليه السّلام، فلم يجبركم ولى اللّه عليه السّلام، و غلق باب دعوته، و أظهر لكم الحكمة، و فتح لكم خارج قصره دار علم، حوت من جميع علوم الدين و آدابه، و فقه الكتاب، فى الحلال و الحرام، و القضايا و الأحكام، مما هو فى صحف الأولين و صحف إبراهيم و موسى صلّى اللّه عليهم أجمعين، و أمدكم بالأوراق و الأرزاق و الحبر و الأقلام لتدركوا بذلک ما تخطون به و تستبصرون، و به من الجهل تفوزون، و قد كنتم من قبل ذلک فى طلب بعضه تجهدون، فرفضتموه و قصرتم، و عن جميعه أعرضتم إعراض المضلين، و لم يزيدكم ذلک إلا فرارا، و مال بكم الهوى إلى الموبقات، و مكنتم من اكتساب

السيئات، و نقضتم العلم و أظهرتم الجهل، و كثر بغيكم و مرحكم على الأرض، حتى كاد لها أن تضج إلى اللّه تعالى فيكم من كثرة جوركم و مرحكم عليها، و ولى اللّه سلام اللّه عليه، مكافح لها فيكم رجاء أن تتيقظ خاصتكم، و تستفيق من السكر و الجهل عامتكم، فما ازددتم إلا طغيانا و عصيانا و اختلافا؛ تتناجون بالإثم و العدوان و معصية الرسول، و عدو اللّه و عدو أمير المؤمنين، قد قصر عن الفساد يده مخافة من سطوات ولى اللّه و رضى منه بالمسالمة و المهادنة، حتى ليس لأمير المؤمنين سلام

اللّه عليه عدو يجاهده و لا ضد يعانده، و الكل من هيبته خايف و جل، و أنتم معشر الخاص و العام بحضرته، تضمكم دولته، و تشملكم ولايته و تلزمكم طاعته، و أنتم مع ما تقدم ذكره من مساوئكم متحادقين متعاندين متزاحفين، يجاهد بعضكم بعض كالروم و الخزر جرأة على اللّه بغير مخافة منه و لا ترقب، و لا ينهاكم عن سفک الدماء و هتک الحريم دين من اللّه، و لا وقار من أمامكم و لا يقين، قد غلب عليكم الجهل فلن ترجوا للّه وقارا، و لن تقولوا ان إمام عصركم واحد، و إن الإسلام و الإيمان قد شملكم، و جمعكم تحت طاعة اللّه و طاعة رسوله، و وليه أمير المؤمنين سلام اللّه عليه، فإنا للّه و إنا إليه راجعون. فأى نازلة هى أكبر منها و أىّ شماتة للعدو، ويلكم أعظم من مثلها. لقد أصبتم معشر الناس فى أنفسكم و أديانكم، و أصيب فيكم ولى اللّه أمير المؤمنين سلام اللّه عليه، فلا حول و لا قوة إلا باللّه العلى العظيم، أفأمنتم أيها الغافلون أن يصيبكم ما أصاب من كان قبلكم من أصحاب الأيكة و قوم تبع، أ لم تسمعوا قول اللّه تعالى: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّکَ بِعادٍ، إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّکَ سَوْطَ عَذابٍ، إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ[٧] و قوله تعالى: أَ لَمْ نُهْلِکِ الْأَوَّلِينَ، ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ، كَذلِکَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ[٨] و مثل هذا كثير فى كتاب اللّه عز و جل، و مما أصاب أهل العناد و الخلاف و المنافقين و المفسدين فى الأرض، فقد غضب اللّه تعالى و وليه أمير المؤمنين سلام اللّه عليه، من عظم إسراف الكافة أجمعين، و لذلک خرج من أوساطكم، قال اللّه ذو الجلال و الإكرام، وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ[٩] و علامة سخط ولى اللّه، تدل على سخط الرب تبارک و تعالى. فمن دلائل غضب الإمام، غلق باب دعوته، و رفع مجالس حكمته، و رقل جميع دواوين أوليائه و عبيده من قصره، و منعه عن الكافة سلامه، و قد كان يخرج إليهم من حضرته، و منعه لهم عن الجلوس على مصاطب سقائف حرمه، و امتناعه عن الصلاة بهم فى الأعياد و فى شهر رمضان، و منعه المؤذنين أن يسلموا عليه وقت الأذان، و لا يذكرون، و منعه

جميع الناس أن يقولوا مولانا، و لا يقبّلوا له التراب، و ذلک مفترض له على جميع أهل طاعته، و إنهاؤه جميعهم عن الترجل له من ظهور الدواب، ثم لباسه الصوف على أصنافه و ألوانه، و ركوبه الأتان، و منعه أولياءه و عبيده الركوب معه حسب العادة فى موكبه، و امتناعه عن إقامة الحدود على أهل عصره، و أشياء كثيرة خفيت عن العالم و هم عن جميع ذلک فى غمرة ساهون؛ استحوذ عليهم الشيطان، فانساهم ذكر اللّه، أولئک حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون.

---

[٧] (1) القرآن الكريم، سورة الفجر، الآية 14.

[٨] (2) القرآن الكريم، سورة المرسلات، الآية 18.

[٩] (3) القرآن الكريم، سورة الأنفال، الآية 33.

فقد ترک ولی اللّه أمیر المؤمنین سلام اللّه علیه الخلق أجمعین سدی، یخوضون و یلعبون فی التیه و العمی، الذی آثروه علی الهدی، کما ترک موسی قومه حتی آن الهلاک أن یهجم علیهم و هم لا یعلمون، و خرج عنهم و هم فی شک منه مختلفون، مذبذبون بین ذلک، لا إلی الحق یطیعون، و لا إلی ولی اللّه یرجعون، قال اللّه تعالی، وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَی الرَّسُولِ، وَ إِلی أُولِی الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِینَ یَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ؛ أیها الناس کلام اللّه أوعظ واعظ، و بین منه و عظمکم بهذه الموعظة من الفقر و الحاجة إلی عفو اللّه تعالی، و عفو ولیه أمیر المؤمنین سلام اللّه علیه، أعظم منکم.

فبالنسیان تکون الغفلة، و بالغفلة تکون الفتنة، و بالفتنة تکون الهلکة؛ و قد قال اللّه تبارک و تعالی، وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ، لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِیماً[10]. و قال عز من قائل، إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً[11]، إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ التَّوَّابِینَ وَ یُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِینَ[12].

و قال تبارک و تعالی وَ إِذا سَأَلَکَ عِبادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ[13].

فالبدار البدار معشر الناس أن وقفتم علی براح من الأرض یکون أول طریق سلکها أمیر المؤمنین سلام اللّه علیه، وقت أن استتر نصب (عند الدروز نضو) أعینکم، و تجتمعوا فیها بأنفسکم و أولادکم، و طهروا قلوبکم و أخلصوا نیاتکم للّه رب العالمین، و توبوا إلیه توبة نصوحا و توسلوا إلیه بأوجه الوسائل بالصفح عنکم و المغفرة لکم، و أن یرحمکم بعودة ولیه إلیکم و یعطف بقلبه علیکم، فهو رحمة علیکم و علی جمیع خلقه، کما قالی اللّه تبارک و تعالی لرسوله صلّی اللّه علیه و علی آله، وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِینَ[14].

##PAGE=82##

فالحذار الحذار أن یقفو أحد منکم لأمیر المؤمنین سلام اللّه علیه أثرا، و لا تکشفوا له خبرا، و لا تبرحوا فی أول طریق یتوسل جمیعکم، کذلک أمراؤنا؛ فإذا أطلت علیکم الرحمة، خرج ولی اللّه أمامکم باختیاره راضیا عنکم، ظاهرا فی أوساطکم، فواظبوا علی ذلک لیلا و نهارا قبل أن تحق الحاقة و تقرع القارعة و یغلق باب الرحمة، و تحل بأهل الخلاف و العناد النقمة، و قد أعذر من أنذر، و نصح من قبلکم نفسه و حذر، و الخطاب لأولی الألباب منکم، و التعیین علیهم و المشیئة للّه تبارک و تعالی، و التوفیق به و السّلام علی من اتبع الهدی و خشی عواقب الردی و صدق بکلمات ربه الحسنی.

---

[10] (1) القرآن الکریم،« سورة النساء»، الآیة 64.

[11] (2) القرآن الکریم،« سورة مریم»، الآیة 60.

[12] (3) القرآن الکریم،« سورة البقرة»، الآیة 222.

[13] (4) القرآن الکریم،« سورة البقرة»، الآیة 186.

[14] (5) القرآن الکریم،« سورة الأنبیاء»، الآیة 107.

كتبه مولى دولة أمير المؤمنين سلام اللّه عليه فى شهر ذى القعدة سنة إحدى عشر و أربع مايئة.

و صلّى اللّه على محمد سيد المرسلين و خاتم النبيين و سلم على آله الطاهرين و حسبنا اللّه و نعم و الوكيل.

تحتفظ أصحاب العلم بهذه الموعظة من المتقين، و لا يمنع أحد من نسخها و قراءتها، نفع اللّه من وفق للعمل بما فيها من طاعة اللّه و طاعة وليه أمير المؤمنين سلام اللّه عليه.

حرام حرام على من لا ينسخها و يقرأها على التوابين فى جامع أسفل.

و حرام حرام على من قدر على نسخها و قصر و الحمد للّه وحده.

الأعياد و المواكب الفاطمية[١٥]

كان عصر الدولة الفاطمية فى مصر ... من أزهى عصور التاريخ، فقد اجتمع فيه الكثير من أسباب القوة، و العظمة، و البهاء. فهذه الدولة كانت شامخة تمثل الزعامة، و الخلافة الإسلامية تمثيلا صحيحا فى ظروف سياسية، و دينية خاصة، و من الواضح أنها حافظت على تلك الميزات حرصا على أن تطبع المجتمع بطابعها، و أن تصوغ روح الشعب، و عقليته، و تفكيره، و حياته العامة، و الخاصة. وفقا لمناهجها، و رسومها.

و إما نرى ... أن الحياة الاجتماعية فى مصر الفاطمية ... اتخذت صورا و مظاهر خاصة، و تقلبت بين ألوان من البذخ، و الترف، و البهاء. قلّ أن نجدها فى عصر آخر من عصور مصر الإسلامية، و قد كانت هذه الحياة مرآة للدولة الفاطمية، تشع بخواص قوتها، و فخامتها، و بهائها، و وحى مناهجها، السياسية، و الدينية، و العقلية.

و كانت أعياد الدولة، و مواسمها الباهرة، و لياليها الساطقة مثار البهجة و المرح العام. فالأعياد، و المواسم تتشح بالفخامة، و البهاء، و الرسوم و تبدو بأثواب من الرونق و الجمال.

و قد وصف لنا بعض المؤرخين هذه الأعياد، و الحفلات، و المواكب، و وصفوا أمامنا صورا واضحة برّاقه عنها، فظهرت بمنتهى الروعة، و الفخامة. و من المؤكد أن عصر الإمام الحاكم بأمر اللّه رغم اضطراب أوضاع دولته، و قيام الانتفاضات، و الثورات، لم

[١٥] (*) راجع كتاب الحاكم بأمر اللّه محمد عبد اللّه عنان.

يخل من هذه المظاهر، و المشاهد الفخمة، و لا سيما قبل أن تصدر مراسيم الإمام الحاكم بأمر اللّه بالتقليل من المظاهر الباذخة، و الأبهة، و العظمة.

أجل ... لقد كانت المواكب، و الحفلات الفاطمية تبلغ ذروة البهاء، و البذخ أيام الأعياد الرسمية، و المواسم المعترف بها فى الدولة، و هى كثيرة فى عهد الدولة الفاطمية ... و تبدأ:

برأس السنة الهجرية، و ليلة المولد النبوى الكريم، و ليلة أول رجب، و ليلة نصفه، و ليلة أول شعبان، و ليلة نصفه، و غرة رمضان، و يوم الفطر، و يوم النحر «عيد الأضحى» ... و أمّا الأعياد الأخرى فهى:

مولد الإمام على بن أبى طالب، و مولد الحسن، و الحسين، و فاطمة، و يوم عاشوراء، أى العاشر من محرّم، و هو اليوم الذى استشهد فيه الحسين بن على فى كربلاء. أمّا الأعياد الأخرى فهى:

عيد فتح الخليج، يوم النيروز، و عيد الشهيد، و كان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بهذه الأعياد فى فيض من الروعة، و البهاء، و البذخ، فتقام المآدب، و الحفلات الشائقة، و يكثر البذل و العطاء، و يستقبل الشعب هذه الأيام المشهودة بالرقص، و الأفراح، تغمره البهجة، و السعة، و المرح.

أمّا الاحتفال بعيدى الفطر و الأضحى، فكان من أعظم المشاهد، و يعتبر موكب العيد من أفخم مواكبها، و أروعها ... ففى ليلة عيد الفطر كان ينظم بالإيوان الكبير الذى يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم يبلغ طوله نحو ثلاثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع، فتنثر عليه صنوف الحلوى، و الفطائر الشهيّة ممّا أعدّ فى دار الفطرة الخلافية، فإذا انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر عاد إلى مجلسه، و فتحت

أبواب القصر، و الإيوان على مصاريعها، و هرع الناس من جميع الطبقات إلى السماط. و حين تبزغ الشمس يخرج الخليفة فى موكبه إلى الصلاة، و يكون خروجه من باب العيد إلى المصلّى.

و هنا نكتفى بما ذكره مؤرخ العصر الأمير المسبحى فى وصف هذا العيد:

و فى يوم العيد يركب الخليفة لصلاة العيد، و بين يديه الجنائب، و القباب من الديباج بالحلى، و العسكر فى زيه من الأتراك، و الديلم، و العزيزية، و الأخشيدية، و الكافورية، و أهل العراق ... بالديباج المثقل، و السيوف، و مناطق الذهب، و على الجنائب

السروج بالذهب، و الجوهر، و العنبر و بين يديه الفيلة، و عليها الرجالة بالسلاح. و يخرج بالمظلة الثقيلة بالذهب، و بيده قضيب جده عليه السّلام.

فإذا عاد الخليفة من الصلاة، كان ثمة سماط آخر أبهى، و أروع.

فيجلس الخليفة فى مجلسه و أمامه مائدة من فضة، و عليها أوانى من ذهب أيضا غاصة بأفخم الألوان و أشهاها، و قبالة المائدة سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مدعو، و قد نثرت عليه الأزهار، و الرياحين، و صفّت على جانبيه الأطباق الحافلة بصنوف الشواء و الطيور، و الحلوى الشهية، و يجلس إليه رجال الدولة، و العظماء، و الأكابر، فيأكل من شاء، و عند الظهر ينفضّ المجلس، و ينصرف الناس.

و أمّا عيد الأضحى:

فكان يحتفل به بركوب الخليفة إلى الصلاة على النحو المتبع فى صلاة عيد الفطر، ثم يخصّ بسماط حافل يقام فى أول يوم منه، بيد أنه يمتاز بركوب الخليفة فيه ثلاث مرات متواليات فى أيامه الثلاثة الأولى، و يمتاز خاصة باشتراك الخليفة نفسه فى اجراءات النحر، و كان قيام، الخليفة بهذا العمل من أروع المظاهر، و الرسوم التى جرت عليها الخلافة الفاطمية فى الأعياد العامة.

فلنتصور أمير المؤمنين متشحا بثوب أحمر قان يسير فى موكبه ماشيا إلى دار النحر، و قد كانت تقوم فى ركن خارجى من القصر، و بين يديه الوزير الأول، أكابر رجال الدولة، و يكن قد أعدّ فى المذبح برسم التضحية واحد و ثلاثون فصيلا و ناقة أمام مصطبة يعلوها الخليفة،

و حاشيته، و قد فرشت حافتها بأغطية حمراء يتقى بها الدم، و حمل الجزارون كل بيده إناء مبسوطا يتلقى به دم الضحية، ثم تقدم رؤوس الأضاحى إلى الخليفة واحدة بعد أخرى، فيدنو منها، و بيده حربة يمسك بها من الرأس، و يمسك القاضى بأصل أسنانها، و يجعله فى عنق الدابة فيطعنها به الخليفة، و تجر من بين يديه، و هكذا حتى يأتى عليها جميعا، و كلما نحر الخليفة رأسا جهر المؤذنون بالتكبير، و يقدم لهم الضحية الأولى، و يفرق قطعا صغيرة على الأولياء و المؤمنين.

و فى اليوم التالى ينظم الموكب نفسه إلى المنحر، و ينحر الخليفة سبعة و عشرين رأسا، و فى اليوم الثالث ينحر ثلاثة و عشرين، و يجرى توزيع لحوم الأضاحى خلال هذه الأيام الثلاثة على أرباب الرسوم فى أطباق خاصة للتبرک، و يخص دار الحكمة، و دار العلم بقسط من هذه اللحوم.

و كانت ثمة أعياد رسمية، أو قومية أخرى تقام أحيانا فى فيض من البذخ، و المرح و أحيانا تفرض فى إقامتها فروض معيّنة، و أحيانا تلغى، و ذلک إنها لم تكن أعيادا إسلامية.

أمّا بالنسبة للحفلات الدينية الرسمية، و للأيام المشهودة، فقد كانت تزين فيها المدينة أعظم زينة، و يكثر الخليفة من الصلة و الهبات، و كان يركب مرة أو مرتين فى الأسبوع للتنزه فى البساتين و الحدائق التابعة للقصور الملكية، و الضواحى المدنية، و لكن بعد حين الغى الإمام الحاكم بأمر اللّه أكثر هذه المظاهر، و استعاض عنها بمنهج حياتى خاص سار عليه حتى آخر يوم من حياته.

و مهما يكن من أمر ... فهكذا كانت الخلافة الفاطمية تحتفى بأعيادها، و مواسمها، و لياليها فى بذخ طائل ... و هكذا كانت رسومها، و مواكبها، و مظاهرها مثال الروعة، و البهاء، أو قل شذورا تذكى الخيال إلى الذروة.

لقد كانت مخططاتهم ترمى إلى إرضاء الشعب، و جعله تحت فيض من المسرات، و المواكب الباهرة مضافة إلى الحفلات، و المآدب، و الأعياد، و كان عليهم أن يأسروه بمظاهر الكرم الوافر ... و الجود، و السخاء لكسب ولائه، و عرفانه، و تأييده.

السجلات الحاكمية

أصدر الإمام الحاكم بأمر اللّه سجلات عديدة. و هى مراسيم، و قوانين أذاعها على الشعب، و بالنظر لأهمية بعضها التاريخية رأينا أن نبسط ما كان منها ذا أهيمة ... و نبدأ بالأمان الذى أعطاه الإمام الحاكم بأمر اللّه للقائد «الحسين بن جوهر الصقلى» عند ما فرّ من القاهرة، و يستدل من هذا الأمان أن الإمام الحاكم بأمر اللّه رغب إلى الحسين بأن يعود إلى ما كان عليه.

الامان للحسين بن جوهر الصقلى

بسم اللّه الرحمن الرحيم

أمّا بعد ... فأنک بأمير المؤمنين ظهرت، و بسقيا نعمته نبت، و أغصانها أقلتک، و دوحاتها أظلتک، و عهدها تميمتک، و عقدها ذخر لی، و غنيمتک، و کم لآباء أمير المؤمنين علی آبائک نعم أمثالها، و فيهم عوائدها، و بواديها، و أشکالها، فاشتروهم من التجّار و ملکوهم أزمة الأحرار، و أعطوهم أعنة الکبار، و جعلوا أعقابهم ملوک الأقطار، و أعلام الأمصار. فصاروا رؤوساء بعد أن کانوا أذنابا و صدروا بعد أن کانوا أعقابا. فقادوا العساکر، ورقوا رؤوس المنابر، و رکبو رقاب الدهر، و حکموا فی الأموال، و الدماء بنافذ الأمر، و أبقی ذلک أمير المؤمنين، و وفّره، و أفاض بسجاله و أدره، و لم يقتصر بک علی ذلک حتی جذب بصنيعک من مطارح العبيد إلی مطالع الأحرار الصيد ...

فعقد لک الوزارة، و القيادة، و جللک رداء العز، و السيادة، و ألقی إليک مقاليد الأمر، و بسط يديک فی البذو و الحضر. و أعطاک ما لم تسم بک إليه همة، و خولک ما لم يبلغ بک إليه أمنية، و فضلک علی کثير من مواليه و عصبه، و أدانيه، و أقاربه، و عظم خطرک، و قدرک، و أنفذ صيتک، و ذکرک.

تنهی، و تأمر، و تورد، و تصدر، و تنفع، و تضر، و تسوء، و تسر ... و صرت بشدة أمرک، و رفعة قدرک جبارا عظيما، و سلطانا قويما تمضی ما شئته، و لا تناقض، و تملک ما أردت و لا تعارض، و لم يدر أن مثل أحسانه إليک يکفر، و مثل متجره فيک يخسر، فبطرت عيشک، و نسيت أمسک، و جهلت نفسک، و خنت ولی نعمتک، و عصيت مالک ناصيتک، فاستبدلت بشعار الطاعة جلباب المعصية، و رکبت بمرکب العبودية مرکب الحرية، و أوضعت، و أوجفت، قائد الضلالة و الجهالة، و نقضت العهد، و حللت العقد، و خيل إليک بسوء نيتک، و سقم طويتک الغدر الذی وليت عليه. فظننت أن أمير المؤمنين، «و بعض الظن إثم» قال عمّا عاهدک، و بدا له فيما عاقدک،

##PAGE=87##

و حاشاه من ذلک، و ما عسی- غفر الله لک- أن تقول إذا تناقلت زلتک الألسن العادلة، و بثت حديثک الأندية الحافلة، و ما عذرک إذا قيل لک لم خرجت عن الأوطان، و تطرحت فی البلدان، و خليت دارک التی فيها درجت، و منها خرجت، و قلدت نفسک بما لا يدحضه الاعتذار، و لا يعفيه الليل، و النهار، و لم يثلم لک مال، و لا يغير لک حال، و لم تبتز ثوب الکرامة، و لم تسلب ظل السلامة.

نعوذ باللّه العظيم من نعمة تتعرّی عن جلبابها، و موهبة تسلخ من أهابها، و مع ذلک فتدعی أنّا نبتغی لک الغوائل، و ننصب لک الحبائل، و نقصد منک المقاتل، و نشره إلی حوزة مالک، و نسارع إلی استضامة حالک، لا عن دلالة تقيمها، و تظهرها، و لا من حجة تتدلی بها، و تذکرها إلّا إرادة أن يتداول الناس دعواک، و يتفاوضوا شکواک، فيخيل فی نفوسهم، و يقرر فی قلوبهم

أن لک رخصة فيما ارتكبته، و فسحة فيما اجتنيته، و يا للّه لو كانت التهمة بنا واقعة لكانت طاعتک لنا أزين من مخالفتنا ... كيف و علّام الخفايا و الغيوب، و المطلع على الضمائر فى القلوب يشهد عليک باستحالة ما تذكره، و يناقض ما تضمره، و لو كان أمير المؤمنين يريد بک سوءا، و يبغى لک مكروها، لكان مرامه أيسر، و طريقه أحضر، و لأخذک جهرا، و أسرک قهرا، و لم يراقب فيک أمرا ... فإن اللّه تعالى قدره، و للّه تعالى القدرة التى لو رام بها البحر لأغرقه، أو البر لأحرقه، أو الجبل الراسى لدكدكه، و الفلک الدوّار لأمسكه، فإن نزلت عن مطية العصيان، و خلعت خلعة الطغيان، و استقلت عثرتک، و استغفرت ذنبک، و أتيت إلى باب مولاک، و رجعت إلى آخرتک، و أولاک، وجدته عليک عطوفا، و بک رؤوفا، و لعذرک ممهدا، و لجريرتک متغمدا، فيسحب ذيله على ذنوبک، و يسبل ستره غلى عيوبک، و يشملک أمانه الذى لابسه يوقى النار، و تصرف عنه آفات الليل و النهار، و يردک إلى سبيل وفائک، و يعيد إلى أرضک صوب سمائک، و يعطف عليک بالحفظ، و الاستقامة إليک، و الشح عليک، و رفع الظنة عنک، و إلقاء كلام الموحشين منک، فيرد اقطاعک، و رسومک، و يراعى أمورک، و حقوقک فتشتد أواخيک، و تحمى نواحيک، و تزاد على ما كنت تحويه، و تعطى أكثر مما ترومه و تبتغيه، و تكون فى أيامه مرفها مبجلا، و فى دولته معززا، و مفضلا، مرفوعا عن بذلة الخدمة، محمولا على جلالة الحرمة مسامحا فيما تطلبه و تهواه مسوغا ما تقترحه، و تتمناه، و مشفعا فيما تلتمسه، مجابا إلى ما ترومه، و تفعله، فإن أبيت إلّا الإباء، و العلو، و الجماح، و العتق، فما أهون انتسافک، و ما أيسر اختطافک، و ما أقرب ما تلتف عليک الحبائل، و تحيط بک الغوائل، و تساورک المنية، و تحيط بک الأمنية ... و قد أعذر من أنذر ... و السّلام على من أبصر، و فكّر.

و الحمد للّه رب العالمين، و صلّى اللّه على محمد نبيه، و آله الطاهرين.

«الحاكم بأمر اللّه»

##PAGE=88##

القضاء فى الدولة الفاطمية

«و هذا مرسوم حاكمى بتولية «الحسين بن على بن النعمان» القضاء فى الدولة الفاطمية، و فيه تظهر مثالية الإمام الحاكم بأمر اللّه، و عدله، و تعاليمه الصائبة الحكيمة على الاتباع و المسؤولين فى دولته».

«هذا ما عهد عبد اللّه و وليه المنصور أبو على الحاكم بأمر اللّه أمير المؤمنين، للقاضى حسين بن على بن النعمان حين ولاه الحكم بالمعزية القاهرة و مصر، و الإسكندرية و أعمالها، و الحرمين حرسهما اللّه تعالى، و أجناد الشام، و أعمال المغرب، و إعلاء المنابر، و أئمة المساجد الجامعة، و القومة عليها و المؤذنين بها، و سائر المتصرفين فيها و فى غيرها من المساجد، و النظر

فی مصالحها جمیعا، و مشارفة دار الضرب و عیار الذهب و الفضة، مع ما اعتمده أمیر المؤمنین و انتحاه، و قصده و توخاه، من اقتفائه لآثاره، و انتهائه إلی إیثاره، فی کل علیة للدولة ینشرها و یحییها، و دنیة من أهل القبلة یدثرها و یعفیها؛ و ما التوفیق إلا باللّه ولی أمیر المؤمنین علیه توکله فی الخیرة له و لسائر المسلمین فیما قلده إیاه من أمورهم و ولاه.

أمره أن یتقی اللّه عز و جل حق التقوی، فی السر و الجهر و النجوی، و یعتصم بالثبات و الیقین و النهی، و ینفصم من الشبهات و الشکوک و الهوی؛ فإن تقوی اللّه تبارک و تعالی موئل لمن وئل إلیها حصین، و معقل لمن اقتفاها أمین، و معول لمن عول علیها مکین؛ و وصیة اللّه التی أشاد بفضلها، و زاد فی سناها بما عهد أنه من أهلها فقال تبارک و تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ کُونُوا مَعَ الصَّادِقِینَ[16].

و أمره ألا ینزل ما ولاه أمیر المؤمنین (إیاه) من الأحکام فی الدماء و الإشعار و الإبشار و الفروج و الأموال، (عن) منزلته العظمی من حقوق اللّه المحرمة، و حرماته المعظمة، و بیناته المبینة فی آیاته المحکمة؛ و أن یجعل کتاب اللّه عز و جل و سنة جدنا محمد خاتم الأنبیاء و المأثور عن أبینا علی سید الأوصیاء، و آبائنا الأئمة النجباء،- صلّی اللّه علی رسوله و علیهم- قبلة لوجهه إلیها یتوجه، و علیها یکون المتجه. فیحکم بالحق، و یقضی بالقسط، و لا یحکم الهوی علی العقل، و لا القسط علی العدل، إیثارا لأمر اللّه عز و جل حیث یقول: فَاحْکُمْ بَیْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوی فَیُضِلَّکَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِینَ یَضِلُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ بِما نَسُوا یَوْمَ الْحِسابِ[17]: وَ لا یَجْرِمَنَّکُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلی أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوی وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِیرٌ بِما تَعْمَلُونَ[18].

##PAGE=89##

و أمره أن یقابل ما رسمه أمیر المؤمنین وحده لفتاه برجوان، من إعزازه و الشد علی یده، و تنفیذ أحکامه و أقضیته؛ و القصر من عنان کل متطاول علی الحکم، و القبض من شکائمه، بالحق المفترض للّه جل و عز و لأمیر المؤمنین علیه. من ترک المجاملة فیه، و المحاباة لذی رحم و قربی، و ولی للدولة أو مولی؛ فالحکم للّه و لخلیفته فی أرضه، و المستکین له لحکم اللّه و حکم ولیه یستکین، و المتطاول علیه، و المباین للإجابة إلیه، حقیق بالإذالة و النهوض؛ فلیتق اللّه أن یستحی من أحد فی حق له، وَ اللَّهُ لا یَسْتَحْیِی مِنَ الْحَقِ[19].

---

[16] (1) القرآن الکریم،« سورة التوبة»، الآیة 119.

[17] (2) القرآن الکریم،« سورة ص»، الآیة 26.

[18] (3) القرآن الکریم،« سورة المائدة»، الآیة 8.

[19] (1) القرآن الکریم،« سورة الأحزاب»، الآیة 53.

و أمره أن يجعل جلوسه للحكم فى المواضع الضاحية للمتحاكمين، و يرفع عنهم حجابه، و يفتح لهم أبوابه، و يحسن لهم انتصابه، و يقسم بينهم لحظه و لفظه، قسمة لا يحابى فيها قويا لقوته، و لا يردى فيها ضعيفا لضعفه؛ بل يميل مع الحق و يجنح إلى جهته، و لا يكون إلا مع الحق و فى كفته؛ و يذكر بموقف الخصوم و محاباتهم بين يديه موقفه و محاباته بين يدى الحكم العدل الديان يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ[٢٠].

و أمره أن ينعم النظر فى الشهود الذين إليهم يرجع، و بهم يقطع فى منافذ القضايا و مقاطع الأحكام، و يستشف أحوالهم استشفافا شافيا، و يتعرف دخائلهم تعرفا كافيا، و يسأل عن مذاهبهم و تقلبهم فى سرهم و جهرهم، و الجلى و الخفى من أمورهم، فمن وجده منهم فى العدالة و الأمانة، و النزاهة و الصيانة، و تحرى الصدق، و الشهادة بالحق، على الشيمة الحسنى، و الطريقة المثلى (أبقاه)، و إلا كان بالإسقاط للشهادة أولى؛ و أن يطالع حضرة أمير المؤمنين بما يبدو له فيمن يعدله أو يرد شهادته و لا يقبله، ليكون فى الأمرين على ما يحد له و يمثله، و يأمن فيما هذه سبيله كل خلل يدخله؛ إذ كانت الشهادة أس الأحكام، و إليها يرجع الحكام، و النظر فيمن يؤهل لها أحق شىء بالإحكام؛ قال اللّه تقدست أسماؤه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ[٢١]. و قال تعالى: وَ الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً[٢٢].

و أمره أن يعمل بأمثلة أمير المؤمنين له فيمن يلى أموال الأيتام و الوصايا

##PAGE=90##

و أولى الخلل فى عقولهم، و العجز عن القيام بأموالهم؛ حتى يجوز أمرها على ما يرضى اللّه و وليه من حياطتها، و صيانتها من الأمناء عليها، و حفظهم لها، و لفظهم لما يحرم و لا يحل أكله منها؛ فيتبوأ عند اللّه بعدا و مقتا، آكل الحرام و الموكل له سحتا؛ قال اللّه تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً[٢٣].

و أمره أن يشارف أئمة المساجد و القومة عليها، و الخطباء بها و المؤذنين فيها، و سائر المتصرفين فى مصالحها، مشارفة لا يدخل معها خلل فى شىء يلزم مثله، من تطهير ساحتها و أفنيتها، و الاستبدال بما تبذل من حصرها فى أحيانها، و عمارتها

---

[٢٠] (2) القرآن الكريم،« سورة آل عمران»، الآية 30.

[٢١] (3) القرآن الكريم،« سورة النساء»، الآية 135.

[٢٢] (4) القرآن الكريم،« سورة الفرقان»، الآية 72.

[٢٣] (1) القرآن الكريم،« سورة النساء»، الآية 10.

بالمصابيح فى أوقاتها، و الإنذار بالصلوات فى ساعاتها، و إقامتها لأوقاتها، و توفيتها حق ركوعها و سجودها، مع المحافظة على رسومها و حدودها، من غير اختراع و لا اختلاع لشىء منها: إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً[۲۴].

و أمره أن يرعى دار الضرب و عيار الذهب و الفضة، بثقات يحتاطون عليهما من كل لبس، و لا يمكنون المتصرفين فيهما من سبب يدخل على المعاملين بهما شيئا من الوكس؛ إذ كان بالعين و الورق تتناول الرباع و الضياع و المتاع، و يبتاع الرقيق، و تنعقد المناكح و تتقاضى الحقوق؛ فدخول الغش و الدخل فيما هذه سبيله جرحة للدين، و ضرر على المسلمين، يتبرأ إلى اللّه منهما أمير المؤمنين.

و أمره أن يستعين على أعمال الأمصار التى لا يمكنه أن يشاهدها، بأفضل و أعلم و أرشد و أعمد من تمكنه الاستعانة به على ما طوقه أمير المؤمنين فى استعماله. قال اللّه عز و جل: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا[۲۵].

هذا ما عهد أمير المؤمنين فأوف بعهده، تهتد بهديه، و ترشد برشده، و هذا أول إمرة أمرها لک فاعمل بها، و حاسب نفسک قبل حسابها؛ و لا تدع من عاجل النظر لها أن تنظر لمآبها: يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ[۲۶].

و كتب فى يوم الأحد لسبع ليال بقين من صفر سنة ۳۸۹ ه.

##PAGE=91##

وقفيّة الجامع الازهر و دار الحكمة

و هذا مرسوم وقفية الحاكم بأمر اللّه على الجامع الأزهر و دار الحكمة.

هذا كتاب أشهد قاضى القضاة مالک بن سعيد بن مالک الفارقى على جميع ما نسب إليه مما ذكر و وصف فيه من حضر من الشهود، فى مجلس حكمه و قضائه بفسطاط مصر فى شهر رمضان سنة أربعمائة، أشهرهم و هو يومئذ قاضى عبد اللّه و وليه المنصور أبى على الحاكم بأمر اللّه أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز باللّه صلوات اللّه عليهما، على القاهرة المعزية و مصر و

---

[۲۴] (2) القرآن الكريم،« سورة النساء»، الآية 103.

[۲۵] (3) القرآن الكريم،« سورة الأحزاب»، الآية 72.

[۲۶] (4) القرآن الكريم،« سورة النحل»، الآية 111.

الإسكندرية و الحرمين حرسهما اللّه و أجناد الشام و الرقة و الرحبة و نواحى المغرب و سائر أعمالهن و ما فتحه اللّه و يفتحه لأمير المؤمنين، من بلاد الشرق و الغرب، بمحضر رجل متكلم، أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة و الحصص الشائعة، التى يذكر جميع ذلک و يحدد هذا الكتاب، و أنها كانت من أملاک الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة، و الجامع براشدة، و الجامع بالمقس، اللذين أمر بإنشائهما و تأسيس بنائهما، و على دار الحكمة بالقاهرة المحروسة، مشاعا جميع ذلک غير مقسوم؛ و منها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجرى ذكرها؛ فمن ذلک ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة و الجامع براشدة و دار الحكمة بالقاهرة المحروسة، جميع الدار المعروفة بدار الضرب و جميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف و جميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة، الذى كله بفسطاط مصر، و من ذلک ما تصدق به على جامع المقس جميع أربعة الحوانيت و المنازل التى علوها و المخزنين الذين ذلک كله بفسطاط مصر بالراية، فى جانب الغرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق، و هاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فى الموضع المعروف بحمام الغار، و من ذلک جميع. الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التى بفسطاط مصر بالراية أيضا بالموضع المعروف بحمام الغار، و تعرف هذه الحوانيت بحصص القيسى، بحدود ذلک كله و أرضه و بنائه و سفله و علوه و غرفه و مرتفعاته و حوانيته و ساحاته و طرقه و ممراته و مجارى مياهه و كل حق هو له داخل فيه و خارج عنه؛ و جعل ذلک كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بتلة بتلة لا يجوز بيعها و لا هبتها و لا تمليكها، باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة فى هذا الكتاب، لا يوهنها تقادم السنين و لا تغير بحدوث حدث، و لا يستثنى فيها و لا يتأول و لا يستفتى بتجدد تحبيسها مدى الأوقات، و تستمر شروطها على اختلاف الحالات، حتى يرث اللّه الأرض و السموات، على أن يؤجر ذلک فى كل عصر من ينتهى إليه ولايتها و يرجع إليه أمرها، بعد مراقبة اللّه

##PAGE=92##

و اجتلاب ما يوفر منفعتها، من إشهارها عند ذوى الرغبة فى إجارة أمثالها، فيتبرأ من ذلک بعمارة ذلک على حسب المصلحة و بقاء العين و مرمته من غير إجحاف بما حبس ذلک عليه، و ما فضل كان مقسوما على ستين سهما، فمن ذلک للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكور فى هذا الإشهاد الخمس و الثمن و نصف السدس و نصف التسع، يصرف ذلک فيما فيه عمارة له و مصلحة و هو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة و سبعة و ستون دينارا و نصف دينار و ثمن دينار، من ذلک للخطيب بهذا الجامع أربعة و ثمانون دينارا، و من ذلک لثمن ألف ذراع حصر عبدانية تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة إلى ذلک، و من ذلک لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مضفورة لكسوة هذا الجامع فى كل سنة عند الحاجة إليها مائة دينار واحدة و ثمانية دنانير، و من ذلک لثمن ثلاثة قناطير زجاج و فراضها اثنا عشر دينارا و نصف و ربع دينار، و من ذلک لثمن عود هندى للبخور فى شهر رمضان و أيام الجمع مع ثمن الكافور و المسک و أجرة الصانع خمسة عشر دينار، و من ذلک

لنصف قنطار شمع بالفلفلى سبعة دنانير، و من ذلک لکنس هذا الجامع و نقل التراب و خياطة الحصر و ثمن الخيط و أجرة الخياطة خمسة دنانير، و من ذلک لثمن مشاقة لسرج القناديل عن خمسة و عشرين رطلا بالرطل الفلفلى دينار واحد، و من ذلک لثمن فحم للبخور عن قنطار واحد بالفلفلى نصف دينار، و من ذلک لثمن أردبين ملحا للقناديل ربع دينار، و من ذلک ما قدر لمؤنة الناس و السلاسل و التنانير و القباب التى فوق سطح الجامع أربعة و عشرون دينارا، و من ذلک لثمن سلب ليف و أربعة أحبل و ست دلاء أدم نصف دينار، و من ذلک لثمن قنطارين خرقا لمسح القناديل نصف دينار، و من ذلک لثمن عشر قفاف للخدمة و عشرة أرطال قنب لتعليق القناديل و لثمن مائتى مكنسة لکنس هذا الجامع دينار واحد و ربع دينار، و من ذلک لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع و يصب فيها الماء مع أجرة حملها ثلاثة دنانير، و من ذلک لثمن زيت و قود هذا الجامع راتب السنة ألف رطل و مائتا رطل مع أجرة الحمل سبعة و ثلاثون دينارا و نصف، و من ذلک لأرزاق المصلين يعنى الأئمة و هم ثلاثة و أربعة قومة و خمسة عشر مؤذنا خمسمائة دينار و ستة و خمسون دينارا و نصف، منها للمصلين و لکل رجل منهم ديناران و ثلثا دينار فى کل شهر من شهور السنة، و المؤذنون و القومة، لکل رجل منهم ديناران فى کل شهر، و من ذلک للمشرف على هذا الجامع فى کل سنة أربعة و عشرون دينارا، و من ذلک لکنس المصنع بهذا الجامع و نقل ما يخرج منه من الطين و الوسخ دينار واحد، و من ذلک لمرمة ما يحتاج إليه فى هذا الجامع فى سطحه و أترابه و حياطته و غير ذلک مما قدر لکل سنة ستون دينارا، و من ذلک لثمن مائة و ثمانين حمل تبن و نصف حمل جارية لعلف رأسى بقر للمصنع الذى لهذا الجامع ثمانية دنانير و نصف و ثلث دينار، و من ذلک

##PAGE=93##

للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير، و من ذلک لثمن فدانين قرط لتربيع رأسى البقر المذکورين فى السنة سبعة دنانير، و من ذلک لأجرة متولى العلف و أجرة السقاء و الحبال و القواديس و ما يجرى مجرى ذلک خمسة عشر دينارا و نصف، و من ذلک لأجرة قيم الميضأة إن عملت بهذا الجامع إثنا عشر دينارا. و إلى هذا انقضى حديث الجامع الأزهر و أخذ فى ذکر جامع راشدة و دار العلم و جامع المقس ثم ذکر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير و تسعة و ثلاثين قنديلا فضة، فللجامع الأزهر تنوران و سبعة و عشرون قنديلا، و منها لجامع راشدة تنور و إثنا عشر قنديلا، و شرط أن تعلق فى شهر رمضان و تعاد إلى مکان جرت عادتها أن تحفظ به، و شرط شروطا کثيرة فى الأوقاف منها أنه إذا فضل شىء اجتمع يشترى به ملک فإن عاز شيئا و استهدم و

لم يف الريع بعمارته بيع و عمر به، و أشياء كثيرة؛ و حبس فيه أيضا عدة آدر و قياسر لا فائدة من ذكرها فإنها. مما خربت بمصر.

صلاحيات داعى الدعاة و مهامه

و فيما يلى رسوم الحاكم بأمر اللّه بتعيين «داعى الدعاة» و تحديد مهامه و شرح صلاحياته.

الحمد للّه خالق ما وقع تحت القياس و الحواس، و المتعالى عن أن تدركه البصائر بالاستدلال و الأبصار بالإيناس، الذى اختار الإسلام فأظهره و عظمه، و استخلص الإيمان فأعزه و أكرمه؛ و أوجب بهما الحجة على الخلائق، و هداهم بأنوارهما إلى أقصر الطرائق، و حاطهما بأوليائه الراشدين شموس الحقائق؛ الذين نصبهم فى أرضه أعلاما، و جعلهم بين عباده حكاما؛ فقال تعالى: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ[٢٧].

يحمده أمير المؤمنين أن اصطفاه لخلافته و خصه بلطائف حكمته، و أقامه دليلا على مناهج هدايته، و داعيا إلى سبيل رحمته، و يسأله الصلاة على سيدنا محمد نبيه الذى ابتعثه رحمة للعالمين، فأوضح معالم الدين، و شرع ظواهره للمسلمين؛ و أودع بواطنه لوصيه سيد الوصيين، على بن أبى طالب أمير المؤمنين؛ و فوض إليه هداية المستجيبين و التأليف بين قلوب المؤمنين؛ ففجر ينابيع الرشاد، و غور ضلالات الإلحاد، و قاتل على التأويل كما قاتل الرسول على التنزيل، حتى أنار و أوضح السبل، و حسر نقاب البيان، و أطلع شمس البرهان، صلّى اللّه عليهما، و على الأئمة من ذريتهما مصابيح الأديان، و أعلام الإيمان، و خلفاء الرحمن، و سلم عليهم ما تعاقب الملوان و ترادف الجديدان.

و إن أمير المؤمنين بما منحه اللّه تعالى من شرف الحكمة، و أورثه من منصب الإمامة و الأئمة، و فوض إليه من التوقيف على حدود الدين، و تبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين، و تنوير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين- يعلن بإقامة الدعوة الهادية بين أوليائه، و سبوغ ظلها على أشياعه و خلصائه؛ و تغذية أفهامهم بللبنها، و إرهاف عقولهم ببيانها؛ و تهذيب أفكارهم بلطائفها، و إنقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها، و توقيفهم من علومها على ما يجلب لهم سبل الرضوان، و يفضى بهم إلى روح الجنان و ريح الحنان، و الخلود السرمدى فى جوار الجواد المنان- ما يزال نظره مصروفا إلى نوطها بنا شىء فى حجرها، مغتذ بدرها سار فى نورها، عالم بسرائرها المدفونة، و غوامضها المكنونة؛ موفرا على ذلك اختياره، و قاصية انتقاده؛ حتى أداه

[٢٧] (1) القرآن الكريم،« سورة الأنبياء»، الآية 73.

الاجتهاد إليک و وقفه الارتياد عليک، فأسندها منک إلى كفئها و كافيها، و مدرهها المبرز فيها، و لسانها المترجم عن حقائقها الخفية، و دقائقها المطوية؛ ثقة بوثاقة دينک، و صحة يقينک، و شهود هديک و هداک، و فضل سيرتک فی كل ما ولاک، و محض إخلاصک، و قديم اختصاصک؛ و أجراک على رسم هذه الخدمة فی التشريف و الحملان، و التنويه و مضاعفة الإحسان.

فتقلد ما قلدک أمير المؤمنين مستشعرا للتقوى، عادلا عن الهوى، سالكا سبيل الهدى؛ فإن التقوى أحصن الجنن، و أزين الزين، و ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّکَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ[۲۸]. فإن اللّه تعالى يقول: وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً[۲۹]. و حض على ذلک فقال سبحانه: وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ[۳۰].

و خذ العهد على كل مستجيب راغب، و شد العقد على كل منقاد ظاهر، ممن يظهر لک إخلاصه و يقينه و يصح عندک عفافه و دينه، و حضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه، فإن اللّه تعالى يقول: وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا[۳۱] و يقول جل من قائل: إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَکَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ[۳۲]. و كف عن كافة أهل الخلاف و العناد، و جادلهم باللطف و السداد، و أقبل منهم من أقبل إليک بالطوع و الانقياد، و لا تكره أحدا على متابعتک و الدخول فی بيعتک و إن حملتک

##PAGE=95##

على ذلک الشفقة و الرأفة و الحنان و العاطفة؛ فإن اللّه تعالى يقول لمن بعثه داعيا إليه بإذنه، محمد (ص) «وَ ما أَكْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ».

و لا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع، و لا تلق الحب إلا فی مزرعة لا تكدى على الزارع، و توخ لفرسک أجل المغارس، و توردهم مشارع ماء الحياة المعين، و تقربهم بقربان المخلصين؛ و تخرجهم من ظلم الشكوک و الشبهات، إلى نور البراهين و الآيات، و اتل عليهم مجالس الحكم التی تخرج إليک فی الحضرة على المؤمنين و المؤمنات، و المستجيبين و المستجيبات، فی قصور الخلافة الزاهرة و المسجد الجامع بالمعزية القاهرة؛ و صن أسرار الحكم إلا عن أهلها، و لا تبذلها إلا لمستحقها، و لا

---

[۲۸] (1) القرآن الكريم،« سورة النحل»، الآية 125.

[۲۹] (2) القرآن الكريم،« سورة البقرة»، الآية 269.

[۳۰] (3) القرآن الكريم،« سورة فصلت»، الآية 33.

[۳۱] (4) القرآن الكريم،« سورة الإسراء»، الآية 34.

[۳۲] (5) القرآن الكريم،« سورة الفتح»، الآية 10.

تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله، و لا تستقل أفهامهم بتقبله؛ و اجمع من التبصر بين أدلة الشرائع و العقول و دل على اتصال المثل بالممثول، فإن الظواهر أجسام و البواطن أشباحها، و البواطن أنفس و الظواهر أرواحها، و أنه لا قوام للأشباح إلا بالأرواح، و لا قوام للأرواح فى هذه الدار إلا بالأشباح، و لو افترقا لفسد النظام، و انتسخ الإيجاد بالإعدام، و اقتصر من البيان على ما يحرس فى النفوس صور الإيمان و يصون المستضعفين من الافتتان؛ و انههم عن الإثم ظاهره و باطنه، و كامنه و عالنه، فإن اللّه تعالى يقول:

وَ ذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَ باطِنَهُ[۳۳].

و اتخذ كتاب اللّه مصباحا تقتبس أنواره، و دليلا تقتفى آثاره، و اتله متبصرا، و ردده متذكرا، و تأمله متفكرا، و تدبر غوامض معانيه، و انشر ما طوى من الحكم فيه؛ و تصرف مع ما حلله و حرمه، و نقضه و أبرمه، فقد فصله اللّه و أحكمه، و اجعل شرعه القويم الذى خص به ذوى الألباب، و أودعه جوامع الصلوات و محاسن الآداب، سببا تتبع جادته، و تبلغ فى الاحتجاج محجته، و تمسک بظاهره و تأويله و مثله، و لا تعدل عن منهجه و سبله؛ و اضمم نشر المؤمنين، و اجمع شمل المستجيبين و أرشدهم إلى طاعة أمير المؤمنين، و سوّ بينهم فى الوعظ و الإرشاد، و اللّه تعالى يقول فى بيته الحرام: سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ[۳۴] و زد لهم من الفوائد و المواد على حسب قواهم من القبول، و ما يظهر لک من جودة المحصول؛ و درجهم بالعلم، و وفّ المؤمن حقه من الاحترام و لا تعدم الجاهل عندک قولا سلاما كما علم رب السّلام، و توخ رعاية المؤمنين، و حماية المعاهدين، و ميزهم من العامة بما ميزهم اللّه من فضل الإيمان و الدين، و ألن لهم جانبک و احن عليهم و الطف، و ابسط لهم وجهک و أقبل إليهم و اعطف، فقد سمعت قول

اللّه تعالى لسيد المرسلين وَ اخْفِضْ جَناحَکَ لِمَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[۳۵]، و لا تفسح لأحد منهم فى التطاول بالدين، و لا الإضرار بأحد من المعاهدين و الذميين، و ميزهم بالتواضع الذى هو حلية المؤمنين، و إذا ألبس عليک أمر و أشكل، و صعب لديک مرام و أعضل، فلّفه إلى حضرة الإمامة متبعا قول اللّه تعالى: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ،[۳۶] و قوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِکَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا[۳۷]. ليخرج إليک من

---

[۳۳] (1) القرآن الكريم،« سورة الأنعام»، الآية120.

[۳۴] (2) القرآن الكريم،« سورة الحج»، الآية 25.

[۳۵] (1) القرآن الكريم،« سورة الشعراء»، الآية215.

[۳۶] (2) القرآن الكريم،« سورة النحل»، الآية 43.

[۳۷] (3) القرآن الكريم،« سورة النساء»، الآية 59.

بصائر توقيفها، و مراشد تعريفها ما يقفك على مناهج الحقيقة، و يذهب (بک) فى لاحب الطريقة، و اقبض ما يحمله المؤمنون لک من الزكاة و النجوى و الأخماس و القربات و ما يجرى هذا المجرى، و تتقدم إلى كاتب الدعوة بإثبات أسماء أربابه، و احمله إلى أمير المؤمنين لينتفع مخرجوه بتنقيله له و وصوله إليه، و تبرأ ذممهم عند اللّه منه، و استنب عنک فى أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة و من تثق بديانته، و تسكن فيه إلى وفور صناعته؛ و اعهد إليهم كما عهد إليک، و خذ عليهم كما أخذ عليک، و استطلق لهم من فضل أمير المؤمنين ما يعينهم على خدمته، و يحمل ثقلهم عن أهل دعوته، و استخدم كاتبا دينا أمينا مؤمنا بصيرا عارفا، حقيقا بالإطلاع على أسرار الحكمة التى أمر اللّه بصيانتها و كتمانها عن غير أهلها، نقيا حصيفا لطيفا، ينزلهم فى مجلسک بحسب مراتبهم من العلم و الدين و الفضل.

هذا عهد أمير المؤمنين إليک فتدبره متبصرا، و راجعه متدبرا، و به الوصايا تهدى و تسدد، و توفق و ترشد، و استعن باللّه يمدک بمعونته، و يدم حظک من هدايته، إن شاء اللّه تعالى.

الدعوة الاسماعيلية فى أواخر عهد الحاكم بأمر اللّه

ظلّت الدعوة الإسماعيلية المرتبطة مباشرة بالخليفة و الإمام الحاكم بأمر اللّه على وضعها كما كانت منذ نشوئها دون تغيير أو تبديل فى الجوهر ... و يمكن القول إنها كانت على الشكل التالى:

أولا- صقلية: من المؤكد أن الأسرة الكلبية «الفاطمية» المعروفة بأنها تحكم جزيرة صقلية ظلّت على ارتباطها و طاعتها للدولة الفاطمية

سياسيا، و عقائديا، و ذلک رغم الأحداث المتلاحقة، و الظروف القاسية.

فلم يفكر أحد من هذه الأسرة التخلى و لو قيد أنملة عن الوفاء و الإخلاص للدولة، و للإمام الخليفة.

ثانيا- اليمن: فى تلک الفترة الصاخبة، و الدعوة الإسماعيلية راقدة رقاد أهل الكهف، كانت هناک تحركات سرية تشير إلى حدث كبير سينبثق من قلب اليمن ليعيد الإسماعيليين إلى كرسى الحكم لعموم اليمن.

ثالثا– بلاد الشام: الدعوة الإسماعيلية فى بلاد الشام، كانت فى أواخر عهد الإمام الحاكم بأمر اللّه على غاية ما يرام، و نشاطها الدعائى كان يمارس بحرية و أمان، و لكن كل هذا تعثر خلال فترة قصيرة، و ذلك عند ما ظهرت بعض الدعوات الإلحادية التى حاولت فرض وجودها فى قلب الدعوة، و لكن داعى الدعاة «أبو الفتح أحمد البسطامى» قاومها و تمكن من تجميدها لفترة قصيرة.

و مهما يكن من أمر فإن الدعوة ظلت نشطة، و خاصة فى مدن حلب، و حمص، و حماه، و طرابلس الشام، و فى مضارب القبائل البدوية المخيمة فى ربوع نهر الفرات.

رابعا– فارس و العراق: لم تتوقف الدعوة الإسماعيلية، و لا الدعاة الإسماعيليون فى هذين القطرين عن العمل. فهؤلاء الدعاة الذين عرفوا بثقافتهم، و تفوقهم العلمى كانوا ينتشرون فى كل مكان، و عند ما نعلم أن منهم الفيلسوف أحمد حميد الدين الكرمانى، و والد ابن سينا ... و غيرهم ... ندرك أى نجاح تحقق فى عهدهم.

##PAGE=98##

الحركة الأدبية و الفكرية فى عهد الحاكم بأمر اللّه

قرأنا فى تاريخ الدولة الفاطمية ما خلاصته: أن عددا لا يستهان به من العلماء، و رجال الفكر، و فدوا على القاهرة المعزية فى عهد الخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه، فوجدوا فيها كل تشجيع و رعاية، و خاصة لدى خليفتها الذى فتح أبوابها للعلماء، و جعلها خلال فترة قصيرة تنتزع زعامة العالم العربى و الإسلامى، و تبسط علومها، و حضارتها على البلدان الأخرى ... و لا غرابة فى ذلك ما دمنا نرى بعض العلماء الذين يناهضون الفاطميين عقائديا يفدون إليها، و يتأثرون بأفكار خلفائها، ثم يعكفون على دراسة فلسفتهم، و ينضوون تحت رايتهم، و يشيدون بمآثرهم.

و قد يكون أول دليل على ذلك: أن الفيلسوف الغزالى هاجم الفاطميين فى مستهل حياته فى كتبه: القسطاس المستقيم و المنقذ من الضلال، و المستظهرى، و الرد على الباطنية. و لكنه عند ما هاجر إلى دمشق و أصبح فى مأمن من العباسيين، وضع كتاب «إحياء علوم الدين» فظهر و كأنه أحد دعاة الفاطميين الكبار، يتأثر بآرائهم، و يتفق معهم، و خاصة فى مراتب العقول، و المعالم، و المبدأ و المعالم، و علم ما وراء الطبيعة، و المثل و الممثول.

إننا عند ما ندرس الحياة العقلية فى العالم الإسلامى فى القرن الرابع للهجرة ... نرى– أن بعض الفلاسفة الذين نبغوا فى ذلك العصر، و ما بعده، كانوا على صلة قريبة، أو بعيدة من الأفكار الفاطمية.

فابن حوقل كان متشيعا لهم ... و قيل إنه من دعاتهم، و الفارابى عند ما يستعمل اصطلاحاتهم و تعابيرهم الفلسفية- القلم و اللوح، فإنه يكشف عن نفسه، و كأنه تلميذ فى مدرستهم، و ابن سينا الذى عرف عنه أنه ينتسب إلى أسرة اسماعيلية معروفة و كان والده من علماء الإسماعيلية، و أنه شبّ و ترعرع فى مدرسة إخوان الصفاء الإسماعيلية، و إن خططه، و أفكاره، و فلسفته هى من صميم الفلسفة الإسماعيلية. و المعرى حكيم معرة النعمان هو من كبار دعاتهم، كما ذكرنا و أن الإمام الحاكم بأمر اللّه دعاه إلى القاهرة

المعزية، و تعهد أن يبنى له دارا علمية لتكون مركزا للبحوث، مضافا إلى ذلک أنه سمح له بخراج مدينة معرة النعمان طيلة حياته. و من الثابت أن الإمام الحاكم بأمر اللّه كتب إلى «جبرائيل بن بختيشوع» طالبا إليه القيام بزيارة القاهرة، فاعتذر لأسباب خاصة، و قد مرّ أن أبا الفتح منصور بن مقشر و كان من أعلام الطب، عمل طبيبا خاصا للإمام الحاكم بأمر اللّه، و بعد موته خلفه إسحق بن إبراهيم بن انسطاس و هو من أهل الذمة فى مهمته.

إن كل هذا يؤكد ازدهار العلم و الأدب فى ذلک العصر، مما كان له أبلغ الأثر فى مجرى الحياة العقلية، و العربية، و الإسلامية.

أبو العلاء المعرى

هو: أحمد بن عبد اللّه بن سليمان بن محمد. ولد فى معرة النعمان سنة ٣٦٣ ه و توفى فيها سنة ۴۴۹ ه. ينتسب إلى قبيلة «تنوخ» و هى من قضاعة التى تذهب بنسبها إلى قحطان.

كان والده رئيسا، و قاضيا، و عالما، و من كبار دعاة الإسماعيليين «السريين» الذين ضربوا بسهم وافر فى مجال الفلسفة، و العلوم.

فعلى يديه تثقف ابنه أحمد، و من معينه نهل العلوم، بالرغم من أنه أصيب منذ صغره بمرض الجدرى الذى أفقده البصر.

بعد أن شبّ، و ترعرع، و ذاع صيته فى كل مكان. قصد حلب، و بغداد، و اللاذقية، و طرابلس الشام فى سبيل الدرس، و الاطلاع، و مناقشة العلماء، و لم يذهب إلى القاهرة الفاطمية «المعزية» «تقية» كى لا يعرّض نفسه لضغط العباسيين، و الحمدانيين.

كان واسع الاطلاع على التاريخ و الأخبار، و لم يفته علم من العلوم حتى الفلسفة، و النجوم، و اشتهر بتوقد الذهن، و قوة الحافظة، و كان رقيق القلب، دقيق الشعور، سريع الانفعال، خبيرا بمواقع النقص عند الناس، و فوق هذا كان يعطف على الفقراء- و يحسن للمحرومين، و لم يكن فقيرا كما ذكر عنه. أهم كتبه:

سقط الزند، اللزوميات، رسالة الغفران، الأيک و الغصون، رسالة الملائكة، الفصول و الغايات، معجز أحمد، ذكرى حبيب، عبث الوليد.

و له مؤلفات أخرى غير هذه فقدت، لأن فيها ما يكشف عن عقيدته الدينية.

##PAGE=100##

لعل المعرى ... كان من أتباع النظام الإسماعيلى، و لهذا رماه بعض المسلمين بالخروج و الزندقة، و قد ظهر كل هذا فى قصائده التى لم تدرس. و أذهب إلى أبعد من ذلک فأقول: إنه كان من الدعاة الذين عملوا بسرية للدعوة الإسماعيلية، و لكنه كان شديد الحذر، و الحرص و الخوف من سيوف العباسيين، و لهذا فإن إشاراته الشعرية العميقة ظلّت خافية على العديد من الباحثين. و نحن عند ما نطرق إليها، فلكى نذكر بأن المعرى كان إسماعيليا عريقا يتجلّى ذلک بقوله:

كذب الظّن لا إمام سوى العق ل مشيرا فى صبحه و المساء

و قوله:

أيها الغرّ إن خصصت بعقل فاسألنه، فكل عقل نبىّ

المعرى هنا يفصح عن عقيدته. و إنه يكذب كل زعم يخالف هذه العقيدة التى ترتكز على العقل الذى هو «قائد الإنسان»، و لديه أنه ممثول «النبى» و من بعده الإمام.

و قوله:

أثبتّ لی خالقا حکیما و لست من معشر نفاة

فی هذا البیت إشارة إلی النظریة الفلسفیة القائلة بالنفی و الإثبات، و هی تدخل فی علم ما وراء الطبیعة أو الإلهیات، و تعبر عن النظریة الإسماعیلیة المعروفة ب «لیس، و أیس».

و قوله:

و لیس اعتقادی فی خلود النجوم و لا مذهبی قدم العالم

و فی هذا البیت بیان واضح، و خط عریض عن عقیدته الإسماعیلیة لا تترک أی مجال للشک، و فی هذه الأبیات یعیب المعری علی الآخرین مخالفتهم للعقل، أی للنبی أو للإمام کقوله:

تستروا بأمور فی دیانتهم و إنما دینهم دین الزنادیق

نکذب العقل فی تصدیق کاذبهم و العقل أولی بإکرام و تصدیق

و قوله:

ساس الأنام شیاطین مسلّطة فی کل مصر من الوالین شیطان

متی یقوم إمام یستفید لنا فتعرف العدل أجیال و عنطان

و هناک ... قصیدهٔ طویلهٔ للمعری تخرس أفواه القائلین، و فیها أقوال مضطربهٔ عن عقیدته و هذه القصیدهٔ ردّ فیها علی قصیدهٔ الشریف «أبی إبراهیم بن موسی بن إسحق العلوی» التی یقول فی مطلعها:

غیر مستحسن وصال الغوانی بعد ستین حجهٔ و ثمان

و یقول المعری معارضا:

عللانی فإن بیض الأمانی فنیت و الظلام لیس بفانی

و منها:

و علی الدهر من دماء الشهیدی ن علیّ و نجله شاهدان

منهما فی أواخر اللیل فجرا ن و فی أولیاته شفقان

و منها:

یا ابن مستعرض الصفوف ببدر و مبید الجموع من غطفان

أحد الخمسهٔ الذین هم الأغرا ض من کل منطق و المعانی

و الشخوص التى خلقن ضياء قبل خلق المريخ و الميزان

قبل أن تخلق السموات أو تؤ مر أفلاكهن بالدوران

المعرى يذكر هنا ... الإمام على بن أبى طالب بطل معركة بدر، و مبيد جموع غطفان الذى هو أحد الحدود الخمسة: محمد، و على، و الحسن، و الحسين، و فاطمة، و هؤلاء الحدود المعترف بهم لدى الإسماعيلية هم ممثولون لحدود علوية هى : العقل و النفس، و الجد، و الفتح، و الخيال ...

و اعتقد أن المعرى فى أبياته طبق نظرية المثل و الممثول كما تعرفها الإسماعيلية.

بعد هذا العرض الموجز ... انتقل إلى علاقة المعرى بالفاطميين ... فقد ذكر التاريخ: أن الخليفة الفاطمى الإمام الحاكم بأمر اللّه، وجّه دعوة للمعرى للحضور إلى القاهرة و لكن سوء صحة المعرى، وقفت حائلا دون تنفيذ هذه الرغبة ... و من المعلوم أن الإمام الحاكم بأمر اللّه أمر بخراج مدينة معرة النعمان إلى أبى العلاء المعرى طيلة حياته.

أما علاقته بداعى دعاة الفاطميين «المؤيد فى الدين، هبة اللّه الشيرازى» فكانت علاقة دينية- و سياسية تصب فى حوض الفاطميين و يؤيد حقهم بامتلاك بلاد الشام. أما المناظرات، و الرسائل، المتبادلة بينهما فهى تغطية للغاية الأساسية، و كل هذا جرى فى «معرة النعمان» بين المؤيد فى الدين و المعرى.

##PAGE=102##

هذا ... و مما تجدر الإشارة إليه ... أن الرسائل الخمس ظلّت حقبة من الزمن طى الخفاء، و غير معروفة إلّا من قلة من العلماء، حتى قام المستشرق البريطانى «مارغو ليوث» فكتب عنها مقالا سنة ١٩٠٢ م فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية بلندن، و لكن مقاله ظل ناقصا لأنه لم يكشف النقاب عن الاسم الصحيح للشخصية العلمية الكبرى التى احتجبت وراء لقب «داعى الدعاة» «المؤيد فى الدين» ... و لكن هذا لم، يحد من نشاط المستشرق الكبير، فعاد سنة ١٩٠٣ م فكتب مقالة ثانية فى الموضوع نفسه كشف فيه هذه المرة عن الاسم كاملا، مما اعتبره الباحثون فتحا جديدا، و نصرا فى عالم الأدب، و منذ ذلك اليوم أصبحت هذه

الرسائل. و المناظرات معروفة، و مطبوعة تتداولها الأيدى، و تتحدث عنها الأوساط العلمية، كما تشير إلى العلاقة الوثيقة بين المعرى- و هبة اللّه الشيرازى الفاطمى- داعى الدعاة، و كل هذا يكشف عن الناحية الغامضة فى حياة المعرى.

ابن الهيثم

هو: محمد بن الحسن بن الهيثم ... و قيل: أبو على الحسن بن الحسن بن الهيثم ... اتفق المؤرخون على القول إنه من البصرة ولد و نشأ فى ربوعها، و لكن حياته فى شبابه لم يكتب عنها، فظلّت غامضة أشد الغموض ... و كل ما عرف عنه أنه رحل إلى دمشق، و عاش فى كنف أحد أمرائها، و إن هذا الأمير أغدق عليه النعم و العطايا، لدرجة أن ابن الهيثم كان يقول له:

«يكفينى قوت يومى، و تكفينى جارية، و خادم للعناية بى، فما زاد على قوت يومى إن أمسكته كنت خازنك، و إن أنفقته كنت قهرمانك، و وكيلك، و إذا اشتغلت بهذين الأمرين، فمن يشتغل بأمرى و علمى».

إن صحّت هذه الرواية فتدل على ما كان عليه هذا العالم من الانصراف إلى العلم، و عدم الرغبة فى المال خوفا من أن يشغله عن العلم. فكان حريصا أن يتمسك بما يجب أن يكون عليه العالم الفاضل من خلق و ترفع عن المادة.

روى البيهقى: «أن أميرا جاء يطلب العلم عليه ... فقال له: اطلب منك مئة دينار فى كل شهر ... فقبل الأمير منه، و أقام ثلاثة أعوام يأخذ عنه العلم، و عند ما عزم على الانصراف ... قال له ابن الهيثم:

خذ أموالك جميعها، فلا حاجة لى إليها ... و أنت أحوج منى إليها فى مقر

إمارتك، و إنى قد جربتك ... فلما تحقق عندى أن لا موقع عندك للمال فى طلب العلم، بذلت مجهودا فى تعليمك، و إرشادك، و اعلم أن لا أجرة، و لا رشوة، و لا هدية فى إقامة الخير ... ثم ودعه و انصرف».

ظلّ ابن الهيثم بدمشق حتى سمع به خليفة مصر الإمام الحاكم بأمر اللّه، و ذكر أنهم نقلوا إليه قوله:

لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يصلح الأحوال، و يحصل منه النفع العام فى كل حالة من حالاته من زيادة و نقصان، و المقصود هو إقامة سد على النيل فى أسوان. و عند ما سمع الحاكم قوله ازداد شوقا إليه، و إلى الرغبة بالاستفادة من علمه. فأرسل إليه يرغبه فى الوفود عليه ... فاستجاب له ... و قيل إن الإمام الحاكم بأمر اللّه خرج بنفسه للقائه، و الترحيب به ... و

قرّبه و أكرمه، ثم طلب إليه أن ينظر فى أصول نهر النيل، عساه ينفذ ما خطّط له و هو فى دمشق، فنظر ابن الهيثم فى النيل حتى بلغ موضع الشلال الأول قبل أسوان ... و هناك رأى فى طريقه آثار قدماء المصريين، فعلم أنه لا يستطيع أن يأتى من الأعمال الهندسية، ما لم يبلغ القدماء معرفته ... و من جهة ثانية درس إمكانيات الدولة المادية، فعلم أن مشروعه يعرضها إلى الإفلاس، و الانهيار ... و هنا أظهر عجزه، و اعتذر إلى الإمام الحاكم بأمر اللّه بعد أن شرح له الأسباب، و هذه لعمرى فضيلة أخرى سجلها التاريخ لهذا العلامة الكبير الذى خطر له رأى ... فلما كلف بتنفيذه، أبى عليه تواضعه العلمى إلّا أن يعترف بعجزه أمام ما وجد من فن القدماء، و عدم وجود الإمكانيات اللازمة، و لو لم يكن على هذه الدرجة من التواضع، و الخلق الرفيع لتمادى فى مشروعه، و كلّف الدولة ملايين الدنانير، و لاستفاد منها أيضا، كما يفعل العلماء المستغلون الفاشلون و قد كان من المتوقع أن يغضب الإمام الحاكم بأمر اللّه على ابن الهيثم، و لكنه حفظ له مكانته و قدّر موقفه، و عرف ما ينطوى عليه من الخلق، و الأمانة. فولّاه بعض الدواوين، و قبل ابن الهيثم العمل و لكن خاف من بطش الحاكم كما يقولون، و حسب حسابا للحساد الذين يلاحقونه، فاصطنع الجنون و الخبال، و لكن الإمام الحاكم بأمر اللّه تركه طليقا، و جعل له من يخدمه، و يسهر على راحته. و قد ظلّ معتكفا حتى وفاة الحاكم بأمر اللّه سنة ۴۱۱ ه.

و عندئذ عاد اطمئنانه إليه، و استوطن زاوية على باب الجامع الأزهر،

##PAGE=104##

و أقام متنسّكا، و عاملا بالتصنيف، و التعليم، و العبادة إلى أن توفى سنة ۴۳۰ ه.

اتفق المؤرخون: على أن ابن الهيثم هو الثانى بعد الحكيم بطليموس، و كان يتلوه فى العلوم الرياضية، و المعقولات، و تصانيفه أكثر من أن تحصى.

قال ابن أبى أصيبعة: كان ابن الهيثم متفوقا فى العلوم ... لم يماثله أحد من أهل زمانه فى العلم الرياضى، و لا يقرب منه.

و قال المستشرق دى بور: نجد فى القاهرة المعزية فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، أى الرابع للهجرة، رجلا من أعظم الرياضيين، و الطبيعيين فى العصور الوسطى ... إنه ابن الهيثم.

و سرد القفطى أسماء سبعة و ستين كتابا من تأليفه. أما ابن أصيبعة فذكر له ما يقارب من مائتى كتاب عدا رسائل كثيرة ... و جميعها فى الهندسة، و الطبيعيات، و الفلك، و الحساب، و الجبر، و الطب، و المنطق، و الأخلاق.

و قيل: إن ابن الهيثم قلب الأوضاع القديمة، و أنشأ علما جديدا ...

يدلنا على ذلک إبطاله علم المناظر الذى وضعه اليونان، و إنشاؤه علم الضوء الحديث بالمعنى، و الحدود، و بالأصول التى نراها الآن. فلئن كان «نيوتن» قد اعتبر رائد علم الميكانيكا فى القرن السابع عشر، فابن الهيثم خليق بأن يعد بحق رائد علم الضوء فى مستهل القرن الحادى عشر للميلاد.

و مهما يكن من أمر ... فإن المطلع على كتاب ابن الهيثم فى حل شكوک أقليدس يلمس فيه دقة المؤلف فى التفكير، و تعمقه فى البحث، و استقلاله فى الحكم، و إحاطته بالموضوع كما يتضح له صحة إدراک ابن الهيثم لمكان الهندسة الأقليديسية من العلوم الرياضية، على أنها دراسة منظمة للعلاقات، و للمقادير المكانية من ناحية كونها علاقات أو مقادير، و بغير نظر إلى ما يمكن أن تدل عليه من موجودات. فابن الهيثم فى هذا الكتاب، يظهر، و كأنه رياضى بحت بأدق ما يدل عليه هذا الوصف من معنى، و أبلغ ما يصل إليه من حدود هذا العلم. و قد لاحظ المستشرق ديبور إهمال العلماء له فقال:

إنه لم يكن لدعوة ابن الهيثم ثمرة كبيرة فى الشرق، و لا يعرف من

تلاميذه غير واحد هو: أبو الوفاء مبّشر بن فاتن القائد المعروف بالأمير محمود الدولة، و كان من أمراء مصر، و أفاضل علمائها، و كان دائم الاشتغال بالدرس، محبا للفضائل، و الاجتماع باهل العلم، و الانتفاع بما يقتبسه من جهتهم، و يعتبر أيضا أحد أدباء مصر العارفين بالأخبار، و التواريخ.

و قبل أن نختم كلمتنا عن ابن الهيثم لا بد من القول: بأنه يعتبر المخترع الأول لعدسة التصوير.

ابن يونس المصرى

هو: أبو الحسن على بن أبى سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس عبد الأعلى الصدفى المصرى، و ذكر أنه من أهل «صدفا» فى صعيد مصر، غير أن ابن الأثير يقول فى تاريخه: «اللباب فى تهذيب الأنساب». إن الصدف قبيلة من حمير نزلت مصر.

و لم تذكر المراجع شيئا عن تاريخ ميلاده، و لكن التقديرات أشارت إلى أنه ولد سنة ٣٤١ ه ... عرف أنه سليل بيت اشتهر بالعلم، و كان والده من كبار المحدثين. و قد وضع لمصر تاريخا قيما هو مرجع لكل باحث، كما أن جده كان من أكابر العلماء، و عند ما أسس الإمام الحاكم بأمر اللّه «دار الحكمة» فى القاهرة «المعزية» و جعله مركزا للبحوث العربية الإسلامية أراد منه منافسة «بيت الحكمة» فى بغداد العباسية. التحق ابن يونس بدار الحكمة، و أفاد من مكتبة «دار العلم» التى ألحقها الإمام

الحاكم بأمر اللّه فيها، و مما يجب أن يذكر أن ابن الهيثم قد برز بين علمائها، و أصبح من المرموقين بين علماء الشرق و الغرب، و هذه المؤسسة العلمية ظلت على ازدهارها إلى أن أغلقها بدر الجمالى سنة ٥١٦ ه.

أقام ابن يونس مرصده الفلكى على صخرة كبيرة مسطحة فى جبل المقطم فى مكان يسمّى «بركة الجيش» و هناك رصد كسوفين للشمس عام ٩٧٧ و سنة ٩٧٨ م، و قد تمّ ذلک بتشجيع من الخليفة العزيز باللّه الذى أمر أن يبنى له مرصد خاص على جبل المقطم بالقرب من الفسطاط، و قد زوّده بالمعدات، و الأجهزة، و قيل كان فى بقعة جنوبى القاهرة على ضفة النيل الشرقية و تعرف الآن باسم «حلوان».

اشتهر بأنه صاحب «الزيج الحاكمى» و كلمة زيج مأخوذة من كلمة

«زيک» الفارسية و معناها الجدول الفلكى الرياضى، كما أن له زيجا يعرف باسم زيج ابن يونس، و الأرقام التى أوردها فى الزيجين صحيحة حتى الرقم السابع عشر، مما يدل على دقة لا مثيل لها فى الحساب، و من المعروف أن الفلكيين نقلوا عنه، و استند العلماء إليه فى تقاويمهم.

و من أجلّ أعماله أنه حسب بدقة عظيمة ميل دائرة البروج، و ذلک بعد أن رصد كسوف الشمس و خسوف القمر، و هو أول من توصل إلى بعض معادلات حساب المثلثات التى تستخدم فى علم الفلک، و أن الزيج الحاكمى الكبير المشار إليه كتبه ابن يونس تخليدا لذكرى الخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه، و قد هدف من إخراجه ... أن يتحقق من إرضاء الفلكيين السابقين له، و ما قرروه فى الخسوف، و الكسوف، و اقتران الكواكب، و مولد الأهلة، و يتضمن جداول فلكية عديدة يستدل فيها على حركات الكواكب السيارة، و يبدأ بمقدمة طويلة و (٨١) فصلا، و قد اعتبره العلماء على جانب كبير من الدقة، و الاتقان، كما قرروا أنه الأساس لحساب جاذبية القمر، و لم يجمع إلى المكتبات العربية هذا الكتاب كاملا إذ لا تزال بعض الفصول المتفرقة منه فى مكتبات العالم. أما الزيج الصغير فتوجد منه نسخة فريدة فى «دار الكتب» فى القاهرة المعزية.

لم يكن ابن يونس يؤمن إلا بما يقتنع به عقله، و كانت فلسفته تقوم على المبادىء التالية:

١- الأخذ بالمبدأ العلمى القائم على الرصد، و القياس، و اتخاذ الكون، و ما فيه معلما منه تستنبط الحقائق، و إليه ترد.

٢- تدعيم الإيمان عن طريق تلمس آيات الخالق المنبثة فى الكون.

٣- ممارسة المتع المشروعة ... و يذكر ابن خلكان عن أحد المنجمين أنه صعد مرة إلى جبل المقطم، و قد وقف لكوكب الزهرة ... فنزع ثوبه و عمامته، و لبس ثوبا أحمر، و مقنعة حمراء تقنّع بها، و أخرج عودا فضرب به، و البخور بين يديه، فكان عجبا من العجائب.

و من الجدير بالذكر: أن ابن يونس أول من اخترع «بندول» الساعة، و ليس «غاليلو»، و معنى ذلک أنه كانت لديه فكرة سليمة عن أن زمن

##PAGE=107##

ذبذبة أى بندول سهل الحركة، و تتناسب مع طوله، و قد توصل كما يقال إلى معرفة تلک الحقيقة عن طريقة التجربة.

و أخيرا: فهذا انموذج من علماء، و فلاسفة الإسماعيليين، أو المنتسبين إليهم، أو الآخذين عنهم ... فأين نحن منهم الآن؟ ... لقد سبقوا عصرهم ... و فكروا منذ مئات السنين بما لم نستطع أن نفكر به الآن.

حميد الدين الكرمانى

فيلسوف كبير، عاش فى عصر زاهر، و حجة جليل خطّ فى صفحات الفكر أقوم البحوث، و أعمق السطور، و ترک للأجيال من المؤلفات ما يمكن اعتبارها كنزا ثمينا، و تراثا خالدا.

يعتبره فلاسفة العالم الإسلامى أعظم عالم أنتجته المدرسة الإسماعيلية الفكرية فى مختلف عهودها.

ذكره الداعى الكبير، و المؤرخ اليمنى «إدريس عماد الدين» فى كتابه «عيون الأخبار» فقال:

«لو أن الدعوة الإسماعيلية لم تنتج غير الكرمانى، لكفاها فخرا و مجدا، و لكان ذلک كافيا.

ظهر أثره، و عظم شأنه فى عهد الخليفة الفاطمى «الإمام الحاكم بأمر اللّه» و كان يلقب «بحجة العراقين» أى أنه كان مسؤولا عن شؤون الدعوة فى إقليمى فارس و العراق. أما فى القاهرة المعزيّة، فكانت مرتبته «حجة جزيرة» ثم عين بعد ذلک مديرا لدار الحكمة فى القاهرة، وفد على القاهرة سنة ٤٠٨ ه. بناء على طلب «الصادق المأمون» «ختكين الضيف» داعى دعاة الدولة الفاطمية فى عهد الإمام الحاكم بأمر اللّه، و ذلک عند ما حمى و طيس المعارک الدينية، و قامت الدعوات الجديدة، و راج سوق البدع التى استهدفت الغلو بأشخاص الأئمة، و الانحراف عن واقع الدعوة الفاطمية، فألقى الدروس، و المحاضرات فى دار الحكمة، و وضع كثيرا من البحوث، و الكتب ردّ فيها على المنحرفين، و الخارجين على نظام الدعوة الأساسى.

أشهر كتبه «راحة العقل» فى الفلسفة الماورائية، و الإلهيات، و ترتيب العقول، و هذا الكتاب المغلق العميق اعتبر من أقوم الكتب الفلسفية

##PAGE=108##

الإسلامية، و له كتاب «الرياض» و قد جعله الكرمانى حكما بين ثلاثة فلاسفة إسماعيليين، اختلفوا فى بعض النظريات، و الاجتهادات و هم:

النسفى أو النخشبى، و السجستانى أبو يعقوب، و الرازى أبو حاتم و له رسالة «الأقوال الذهبية» فى الرد على الطبيب المتفلسف «أبى بكر الرازى» و فيه يأخذ أيضا على أبى حاتم الرازى تقصيره فى الرد عليه بكتابه «أعلام النبوة». أما كتبه الأخرى فقد عرف منها ما يقرب من الثلاثين كتابا، و كلها تمتاز بقوة التعبير، و العمق، و الواقعية.

عبد اللّه بن على العلوى القاهرى

أحد الدعاة الكبار الذين عاصروا الإمام الحاكم بأمر اللّه. هو من مدينة «تاهرت» المغربية، و ينسب إلى «الحسن المثنّى».

لهذا الداعى العديد من المؤلفات المذكورة فى المصادر الإسماعيلية، و لكن يبدو أنها فقدت كما فقد التراث الإسماعيلى.

حياته غامضة، و كل ما عرف عنه أنه هاجر من المغرب، و التحق بالقاهرة حيث عهد إليه القيام بالدعاية، و هذه المرتبة لا يصل إليها إلّا من كان على جانب كبير من الثقافة. و تذكر المراجع بأن الإمام الحاكم بأمر اللّه أرسله إلى «محمود الغزنوى» و حمله رسالة يدعوه فيها إلى تخفيف الضغط عن الإسماعيليين الموجودين فى مملكته، و عند ما سلّم الرسالة إليه أظهر القسوة و الشدة و هدّد باستعمال العنف، مما حمل التاهرتى على تركه، و الذهاب إلى قرية «بست» فأرسل محمود الغزنوى إلى خليفة بغداد العباسى يطلعه فيه و يذكر له: أن الداعى التاهرتى جاء إلى مملكته بقصد إفساد الرعية، و دعوتها إلى الثورة ضد الخلافة العباسية، فأرسل العباسى إليه كتيبة من الجند قبضت عليه، و جاءت به إلى بغداد حيث أعدم، و كان ذلك سنة ۴۰۰ ه.

عبد اللّه بن الحسين والد ابن سينا

هو: عبد اللّه بن الحسين ... و من المؤسف أن التاريخ أغفل القسم الأكبر من سيرته، فلم يذكر لنا تاريخ ولادته أو مكانها، كما لم يتطرق إلى موطنه، و أسرته، و عهد طفولته و شبابه ... و من الواضح أنه

##PAGE=109##

لم يحدد، أو يؤكد فيما إذا كان فارسى الأصل، أو عربى الجنسية، و كل هذا نراه جديرا بالبحث و الاستقصاء، و من الأهمية بمكان، بحيث يقرب إلى أذهاننا الحقيقة التى ننشدها عن ابن سينا الابن، و عن جنسيته، و عقيدته، و تأثير ذلک فى حياته، و تفكيره، و نحن الذين نعلق على هذا أهمية كبرى ... نرى من واجبنا أن نؤكد:

بأن عبد اللّه بن الحسين، لم يكن فارسيا، و نرفض كل قول ينحو هذا المنحى، ففى تاريخ حياة ولده ابن سينا الذى نصّه على تلميذه «الجوزجانى» إذا صحّ هذا النصّ ...، و فى غيره من المصادر، لم يذكر لنا، و لا مرة اسم أحد من أقربائه، أو من أسرته، أو من قومه، كما لم يتطرق إلى ذكر مسقط رأسه الأول. و فى اعتقادى لو أنه كان فارسيا لكان على الأقل لجأ إلى أهله، و وطنه، عند ما عصفت به العواصف، و تألبت عليه القوى، و لا أخال ابن سينا من الجهل، و الغباء لدرجة إغفال ذكر وطنه، و قومه، و أهله. فكل ما ذكره التاريخ عن عبد اللّه بن الحسين «والد ابن سينا» أنه كان ممن استجاب لدعوة الفاطميين فى مصر، و إنه لجأ إلى إحدى قرى «بخارى» قادما من «بلخ» فى خراسان، و أن الأسباب لم تذكر بالتفصيل، و لا بالتلميح.، و قد حصل هذا قبل ولادة ابن سينا، و من المعروف أن «بلخ» كانت آنئذ تحت سلطة «الأمير ناصر الدين الغزنوى»! و معنى هذا الانتقال، أنه جاء فرارا من الظلم، و الملاحقة، أو احتياطا، فبلاد السامانيين كانت أكثر أمنا، و استقرارا، فهى البلد الذى فتح ملوكه أبوابهم للعلماء و خاصة للإسماعيليين الذين كانت تربطهم بالأسرة الملكية علاقات و ديّة سابقة.

هذا، و من الجلى الواضح أن أكثر دعاة الإسماعيلية من خراسان فى تلک الفترة هاجروا إلى بلاد ما وراء النهر هربا من سيوف الغزنويين، و أنصارهم التى كانت مسلطة على رقابهم، و ليس من شک بأن عبد اللّه بن الحسين كان من جملتهم.

إذن ... فانتقاله إلى بلاد السامانيين لم يكن سببه إلّا التهديد، و الظلم، و الإرهاب، أو رغبة فى الركون إلى بلد يحكمه حكام يملكون الضمير، و الوجدان، عرفوا بالعدل، و الانفتاح، و رعاية رجال الفكر، و المظلومين، من أية فئة كانوا ... و هذه المعاملة، و الحرية، لم تكن خاصة بالإسماعيليين وحدهم كما ذكرنا، بل كانت عامة ... يدلنا على

[٣٨] تامر، عارف، تاريخ الاسماعيليه،4جلد، رياض الريس للكتب و النشر – لندن، چاپ: اول،1991 م.

ذلک لجوء «الأمير أبی طالب عبد السّلام بن الحسين المأمونی» الشاعر الكبير، و لجوء ثلاثة من أمراء العباسيين المعارضين للحكم، و الذين فروا من بغداد تحت جنح الظلام، و كان أحدهم من ذرية المهدی العباسی، و الثانی من ذرية المستكفی، و الثالث من نسل الواثق.

إنّ عبد اللّه بن الحسين، والد ابن سينا، لجأ إلى بخارى فی عهد «نوح بن نصر السامانی»، فأقام فی إحدى القرى التابعة لها، حيث عهد إليه بأحد الأعمال الإدارية، أو ما يسمّى «التصرف» و هو عمل إدارى تابع عادة للدولة ... و هناک تزوّج، و ولد له ولدان. و أخيرا:

انتقل إلى «كركانج» حيث كان يقيم فيها رفيقه الداعی الإسماعيلی «أبو عبد اللّه الناتلی» و حينئذ كان لابن سينا من العمر/ ٢١/ عاما.

و لم تمض عليه سوى فترة قصيرة حتى مات، و كانت وفاته سنة ٣٩٢ ه. و دفن فيها.

من الجدير بالذكر ... إن عبد اللّه بن الحسين، ترک ولدا ثانيا أصغر من ابن سينا- و قد ظلّ طيلة حياته فی عهدة شقيقه الوحيد الأكبر.

أما والدته فلم يذكر التاريخ شيئا عنها، و لا ندرى فيما إذا كانت قد ماتت قبل وفاة زوجها، أو أنها ظلت علی قيد الحياة فی عهدة ولدها ابن سينا.

ابن سينا

اسمه: حسين ... والده: عبد اللّه بن الحسين بن علی ... و أمه: سارة ...

من قرية «أفشنه» و هی إحدى قرى بخارى.

ظهرت عليه علائم الذكاء، و النبوغ، فی سن مبكرة، مما جعل والده يوليه اهتمامه، و يتوفر علی تعليمه، و فی تلک الأثناء كان والده يقيم فی مناطق بخارى، و قد ظلّ فيها حتى بلغ ابن سينا الثامنة عشرة، حين اشتهر أمره، و علا شأنه، و تحدث الناس بمهارته فی علم الطب. مما دعا «نوح بن منصور» السامانی إلى استدعائه لمعالجته من مرض عضال قديم. فلبّى طلبه، و شفاه من المرض المستعصی.

فی تلک الفترة انتقل والده إلی «کرکانج» فذهب معه و یبدو أن سبب هذه الهجرة تعود إلی ظهور الضعف، و الانهیار علی الدولة السامانیة، و بروز الغزنویین کقوة أخذت تتأهب للحلول مکانها، فأقام فی «کرکانج» مدة تقرب من العشرین عاما بعد وفاة والده.

##PAGE=111##

و أخیرا: غادرها إلی نیسابور و طوس، و هما مدن خراسان، و لکنه لم یستطب الإقامة فی إحداهما، فذهب إلی جرجان، و إلی الدیار الواقعة تحت نفوذ البویهیین، و کان علی إحدی مقاطعاتها الأمیر قابوس، و لکن قابوس مات قبل وصول ابن سینا إلیه، فمضی إلی دهستان، و هناک مرض فیها مرضا شدیدا، و بعد أن تعافی عاد إلی جرجان ثانیة، ثم انتقل منها إلی الری و اتصل بمجد الدولة، إلی أن کان من الأسباب ما استوجب خروجه إلی قزوین، و منها إلی همذان، و هناک قلّده «شمس الدولة بن فخر الدولة البویهی» الوزارة، بعد أن عالجه من مرض خطیر، و لکن الجند ثاروا علیه بدافع من بعض العلماء المتزمتین، و أغاروا علی منزله، و نهبوها، فتواری عن الأنظار، و اختبأ فی منزل أحد أتباعه، و عند ما عاود المرض شمس الدولة طلبه لمعالجته، و اعتذر إلیه، و قلّده الوزارة من جدید.

بعد موت شمس الدولة سنة ۴۱۲ ه. تسلّم شؤون الحکم ابنه، فطلب إلی ابن سینا- الاستمرار فی الوزارة، و لکنه رفض البقاء، و تواری ... فاتهمه بالاتصال بعلاء الدولة أمیر أصبهان، و قبض علیه ثم سجنه فی قلعة «مزدجان»، و بعد أربعة أشهر أفرج عنه، فعاد إلی همذان، ثم خرج منها متنکرا إلی أصبهان حیث حظی بمقابلة علاء الدولة الذی قرّبه، و جعله مستشاره الخاص، فکان یرافقه فی فتوحاته، و یؤلف له التقاویم الفلکیة، و الإرصاد.

و من الجدیر بالذکر أن ابن سینا کان یکره الإقامة فی أرض یحکمها الغزنویون لأن حیاته کانت مهددة من محمود الغزنوی، و من الملاحظ، بل من المؤکد أنه لم یحاول أو یفکّر بالذهاب إلی بغداد، أو إلی أرض یحکمها العباسیون، و قد تحدثنا مطولا عن محمود الغزنوی و بطشه بعلماء، و برجال فکر عدیدین ... و من المشهور عنه أنه قبض علی «البیرونی»، ثم علی أستاذه «عبد الصمد الحکیم» و ذلک عند ما استولی علی «خوارزم» فقتله بتهمة انتمائه للإسماعیلیة، و لو لا شفاعة بعض المقربین، لما کان نجا البیرونی من سیفه، و قد شفع له بالإضافة إلی ذلک حاجة الغزنوی إلی علمه، و رغبته بالانتفاع منه.

ولد ابن سینا سنة ۳۷۰ ه. و مات سنة ۴۲۸ ه. فیکون قد عمّر/ ۵۸/ عاما، أما مکان وفاته فقیل فی أصبهان، و قیل فی همذان،

##PAGE=112##

و هذا الأرجح، و دفن تحت السور من جانب القبة، و نقل جثمانه فيما بعد إلى موضع يعرف ب «باب كونكبد» فى أصبهان.

شهد فى حياته الصراع الشديد بين الأقوام الفارسية، و التركية- أى بين إيران و توران فما كان فى شرق جيحون و شماله خاص بالأتراك، و يدعى ما وراء النهر، و ما كان فى جنوبه، و غربيه فهو خرسان و خاص بإيران. و من الملاحظ أننا لم نشعر بأى حماس أو ميل من قبل ابن سينا لأحد من الفريقين، و كل هذا له أهمية كبرى فى حياة هذا الفيلسوف، بل هذا يعطينا الدليل بأن لا وجود لأية صلات عرقية أو جنسية تربطه بأى فريق من الفريقين.

و مهما يكن من أمر ... فعند ما يضع الباحث، أى باحث، سيرة ابن سينا القصيرة جدا أمامه، و يقرأ فيها ما تعرض له فى حياته من هجرة، و تشرد، و سجن، و انزواء، و مشقات يتملكه العجب، و يتساءل كيف تسنّى لهذا العبقرى، أن يؤلف كتبه، و يدوّن أفكاره، و إنتاجه، و هو فى هذه الحالة من القلق النفسانى، و الخوف، و الرعب.

و إنه لمن الغريب جدا أن لا يحظى إلّا بعطف قلة من الناس، و أن يلاقى العنت و السخط من الملوك، و العلماء فى ذلك العصر، و هو الإنسان المسالم الذى يحمل أفكاره المثالية، و ينكر كل حقد أو شر على أى إنسان ... و يكفى أنه لم يكن يملك إلّا قلمه، و هو السلاح الوحيد الذى اعتمده للذود عن أفكاره، و مبادئه، و حياضه.

أ فى سبيل إسماعيليته التى كانت تعرض حاملها للموت آنئذ؟ ... و لكن التاريخ و كتّاب التاريخ يزعمون أن ابن سينا لم يكن من معتنقى هذه العقيدة، بالرغم من انحداره من أبوين إسماعيليين ... إذن،. و ما دام على ما ذكرناه، فلا نجد أى مبرر لهذا السخط، و لهذه العداوة تشن على الفيلسوف.

و باعتقادى، إن المصادر و الكتب التى دوّنت عن ابن سينا، و القصص التى دبّجتها الأقلام عنه لم تعط صورة واضحة عن حياته، و لا أى بيان يظهر لنا فلسفته على حقيقتها. فابن سينا لم يكن يمتلك الإذن بالتصريح و الإعلان عن حقيقته لأنه كان يقوم بمهمة سرية دعائية و سياسية بآن واحد، و أن الخطوة التى نالها، و المناصب التى تولاها و خاصة لدى ملوك بنى بويه، كانت تتم وفق خطة مرسومة، فهؤلاء

الملوك كانوا شيعة زيديين، و لكنهم كانوا يميلون و يعتقدون بأفضلية الفاطميين أصحاب المغرب و مصر، و من برنامجهم اعتمادهم كخلفاء بدل العباسيين أصحاب بغداد، و قد تناسى المؤرخون هذه الحقائق أو خفيت عليهم.

إن تلک الخطوات، و الرحلات، و التنقلات، و التطلعات التی قام بها ابن سینا جدیۀ بالتأمل و الدراسۀ، و عند استعراضها، و سبر أغوارها، لا نجد ما یشابهها إلّا– أسالیب بعض الدعاۀ الإسماعیلیین الآخرین الذین عملوا فی تلک البلدان، تحت ستار السریۀ الکثیفۀ، فتمکنوا من تنفیذ خططهم، و أهدافهم، و رسائلهم فی جو من الأمن و الحمایۀ، و من جهۀ أخری فإن قوانین الدعوۀ الإسماعیلیۀ تجیز لدعاتها فی الأقالیم البعیدۀ، و القریبۀ التنصل منها عند الضرورۀ، و اتخاذ المواقف العدائیۀ، و البراءۀ منها، عند ما تکفهر الأجواء، و یتعرض حامل الرسالۀ إلی التهدید ... ففی هذه الحالۀ تکون الحالۀ المذکورۀ عملیۀ إنقاذ ... و لعلّ هذا ما وقع لابن سینا.

إن ابن سینا الفیلسوف الإنسان، و العبقری الملهم، لا یمکن أن یخرج أو یتنکر لعقیدۀ أو لنظام فکری رضع لبانه صغیرا علی ید والده ... والده البار الذی تولّی تربیته و تعلیمه، و الإشراف علیه ...

والده الذی أعده، و لقنه مبادیء عقیدته الفلسفیۀ التی کان یبشر بها، و یحمل لواءها. أما إذا کان ابن سینا قد اتخذ مبدأ التحرر، و أما إذا کانت آفاقه قد اتسعت لدراسۀ القدرۀ علی تطویر هذه الفلسفۀ، و التعبیر عنها بطریقۀ أعم، و أشمل– و إضافۀ أفکار جدیدۀ علیها ... فلیس معنی هذا أنه تنکر لها أو أنکرها، أو عارضها، و لو أنه کان کما ذکروا عنه لرأیناه یتصدی لها فی کتبه، و رسائله، و ینقدها فی بحوثه، و فی ردوده، و مناقشاته.

إن أعداء الإسماعیلیۀ فی تلک العصور البعیدۀ، بعد أن رأوا من ابن سینا ما رأوا، و بعد أن تحققوا بأنه من المستحیل علی أی عالم مجاراۀ هذا العبقری، أو اللحاق به، أو إطفاء شعلته التی أنارت آفاق الشرق، و الغرب، عمدوا إلی تشویه اسمه، و إنکار علاقته بالإسماعیلیۀ– و کأنهم لا یعلمون بأن النظام الفکری لهذه المجموعۀ، أنتج فلاسفۀ، و أعلاما لا یقلون عن ابن سینا.

##PAGE=114##

... أما المزاعم التی أوردوها، و الروایات التی تخیلوها و دونوها فی الکتب، و التواریخ فلیست باعتقادی إلّا فقاقیع صابون لم تلبث أن تبددت أمام النسمات. و لا أدری کیف نصدقها أو نأخذ بها، و نحن نقابل بین فلسفته، و علومه الإلهیۀ الممثلۀ بعالم الإبداع، و ترتیب العقول، و توحید النفس، و ما یتفرع عنها، و کل هذا ذکره الکرمانی فی کتابیه راحۀ العقل، و الریاض. إذن فعند ما نقول إن ابن سینا سار علی نهج الفلاسفۀ الإسماعیلیین، و عبّ من معین إخوان الصفاء، و الکرمانی، و السجستانی، و الرازی، و غیرهم من أعلام هذا النظام الفکری، فنکون قد سلکنا طریق الصواب، «و کل هذا قد ذکرناه و شرحناه فی کتابنا «ابن سینا فی مرابع إخوان الصفاء».

إن كتب ابن سينا و مؤلفاته تسرّبت إلى أيدى العامة، و لم تحصر فى مكان معين كبقية كتب الإسماعيلية، و قد انتشرت فى كل مكان لأسباب عديدة، و لظروف قاسية، كان لا بد لابن سينا من المرور فيها.

فالدعوة الإسماعيلية فى فارس لم يكن لها من القوة السياسية ما يساعدها على حصر هذه الكتب، أو صيانتها كما فعلت بالنسبة للتراث الخاص بالدعاة الآخرين، و لعلّ ظروفا أخرى طارئة حدثت فى فارس، و قد مكّن هذا الانتشار العابثين، و الحاقدين على التلاعب، و التحريف، و الدس، حتى وصل الأمر إلى ما وصل إليه.

لقد كان ابن سينا مجاهدا فى سبيل عقيدة آمن بها، و مبدأ فاء إلى ظله، و كان قدومه على هذه المدرسة الفكرية بشكل مختلف، و بأسلوب جديد، و بسرية مطلقة ... كان يحمل لواء التحرر، و التطور، و إيصال هذه الفلسفة إلى مرتبة العالمية.

إننى لم أستطع حتى الآن تصفية الحسابات، أو تصنيف ابن سينا، أو إيجاد ند أو شبيه له بين العباقرة السابقين، و اللاحقين، و قد يخوننى الحظ إذا فعلت. إن ابن سينا لم يستطع أحد اللحاق به فى مجال الطب، أو الفلسفة، أو الكيمياء، أو علم الفلك، أو الرسم، أو الأدب، أو الشعر، أو الموسيقى، و أرى أن هذا الإنسان الملهم كان فلتة من فلتات الزمن ... و سيبقى كذلك.

و من المؤكد أن ابن سينا لم يكن نبيا، و لا رسولا، و لكنى لم أجد من يساويه، أو يجاربه، و تحضرنى تساؤلات عديدة، و أنا فى هذا الصدد ... و قد يكون فى طرحها بعض الفوائد.

##PAGE=115##

لماذا لم يذهب ابن سينا إلى مصر الفاطمية ... و كانت فى ذلك العهد كعبة- العلماء، و موئل العباقرة، و موطن رجال الفكر ... فهناك دار الحكمة، و هى أكبر جامعة للتدريس يتعهدها أساطين العلماء الذين وفدوا من كل مكان للافادة، و للاستفادة. فالإمام الحاكم بأمر اللّه الفاطمى الذى عرف والد ابن سينا، و خبر أخلاصه، و خدماته، لا أخاله يتورع عن تهيئة الأسباب، و توفير العيش الكريم لابن داعيه الأكبر، لا سيما، و نحن نراه يشجع القائمين على دار حكمته، و يفتح أبوابها للعلماء، و يمنحهم المساعدات، و الهدايا. فهذا الحسن بن الهيثم، و ه ذا ابن يونس، و هذا الكرمانى، و هذه النخبة من علماء العالم العربى، و جميعهم قد أخذوا يتوافدون إلى القاهرة للدراسة و للاطلاع. فبعد هذا لا بد من التساؤل و القول:

لماذا لم يذهب ابن سينا إلى مصر، و يعيش فى ظل تلك الدولة، و يكون على الأقل بمنجاة من التهديد، و القتل، و الملاحقة؟

و من الممكن أنّ ابن سينا لم يعلن عن هذه الرغبة لأسباب عديدة أهمها:

اضطلاعه بمهمة سرية فى بلاد فارس، علما بأنه كان محظورا عليه الإعلان عنها أو حتى الانتماء للدولة الفاطمية، و أنه كان ملتزما بأوامر، و قوانين لا تجيز له حتى الانتقال من مكان إلى آخر، إلّا بإذن من رئيس دعوته، و لهذا آثر البقاء فى فارس، و تحمّل الأذى، و المصاعب دون أن يترك سبيلا للانتقاد أو اللوم. و لعل اضطراب الأوضاع العامة فى مصر، و حدوث الفساد فى بنية الدعوة الداخلية، هو الذى يمنعه من الذهاب، أو التورط، أو الاشتراك فى هذا النزاع.

إن النظام الفكرى الإسماعيلى أعطى الدعاة المنتسبين إليه و خاصة الحجج الكبار حق الحرية الفكرية، و تجاوز الحدود و القيود التى تكبل الفكر، و تعيقه عن الانطلاق،- و أفسح لهم مجال الاجتهاد، و العمل فى حرية مطلقة للتعبير عن فلسفتهم بأية طريقة على شرط الإبقاء على الجوهر، و الأصل، و صيانته من كل عبث، و كل هذا نراه ماثلا فى المؤلفات التى تركها هؤلاء الدعاة ... و التى سنأتى على ذكرها:

لقد كان ابن سينا من هذه الفئة المتحررة التى تضم مجموعة من المفكرين الأكاديميين. الذين اتخذوا لأنفسهم مبدأ عاما يمكنهم من

الانطلاق فى مجال الحرية الفكرية، و تحطيم القيود و الحواجز، و تجاوز الالتزام للوصول إلى أرجاء العالمية الفسيح، و لكن بالرغم من كل هذا فإننا حين نقرأ أفكار ابن سينا المدونة على صفحات الكتب، فإننا نشمّ فيها رائحة رسائل إخوان الصفاء و راحة العقل الكرمانى، و التراث الإسماعيلى الفلسفى الآخر.

لقد وضح أن مؤلفات ابن سينا ضاع الكثير منها، كما حرّف بعضها، و أدخل عليها آراء مخالفة، و مغايرة لعقيدته قصدا و عمدا ... و إنى حيال هذا الوضع أ تساءل هل استطعنا- تنقيتها، أو تجرأنا على الاعتراف بمدى تأثيرها، أو موافقتها، أو تنقية الجواهر من الحصى، أو على الأقل مقابلة هذه الآراء بآراء الفلاسفة الذين عاصروه؟

لا شك أن الجواب سيكون سلبيا. فالتراث الإسماعيلى الفلسفى لم يكن معروفا أو متداولا قبل ثلاثين عاما، و قبل هذا الوقت كان قابعا فى كهوف «التقيّة» المطلقة، أو محظورا نشره أو إظهاره، و لعل هذا كان من الأسباب التى وقفت حائلا بين العلماء، و الباحثين من جهة، و بين فكرة المقارنة مع الفلسفات التى سبقتها أو عاصرتها.

إن النظام الفكرى الإسماعيلى أخرج عددا كبيرا من الفلاسفة، و هؤلاء لم يكونوا معروفين إلّا لدى قلة من الباحثين. فحياتهم، و نشاطاتهم، و مؤلفاتهم كانت وفقا على قلة من الناس، لذلک فإن أية مقابلة، أو محاولة لمعرفة العلاقات الفكرية، و مؤثراتها بالنسبة لابن سينا ظلّت مقتصرة على ذوى الاختصاص، و مع كل أسف، فإن بعضهم لم يتجرأ على قول الحقيقة.

فى تاريخ الإسماعيلية، عدد من كبار الدعاة الإسماعيليين الذين عملوا بالسياسة إلى جانب عملهم الفكرى ... و هكذا ... فقد اضطلعوا بالمهتمين، و حملوا اللوائين معا، فكانوا متفوقين فى المجالين ... و لكن ...

مع كل أسف فإن بعض المتزمتين لا يزالون يسيرون على خطى الأولين، بإنكار انتساب هؤلاء الفلاسفة إلى الإسماعيلية ... و يدخل فى عدادهم ... ابن سينا، و المؤيد فى الدين، و نصير الدين الطوسى و غيرهم.

و إنه لمن المؤسف حقا أن نبقى حيث نحن دون أن نحاول كسر الجمود و التزمت و الوصول إلى حد استيعاب فلسفة هؤلاء الأعلام.

##PAGE=117##

إن تفهم الرموز، و الأسرار، و التأويل الخاص بالفلسفة الإسماعيلية ستبقى الشغل الشاغل لنا، و لغيرنا من المهتمين، و قد لا نصل إلى الحقيقة إذا لم نخلع عن أنفسنا ما ورثناه من أقوال الأولين، و الخروج من دائرتهم الضيقة.

و مهما يكن من أمر ... فإننى لا أدرى لماذا يقف الباحثون هذا الموقف المضطرب من ابن سينا، و ما ذا يضرهم إذا ما قلنا إنه من الشجرة الإسماعيلية، أ فلم يكن والده إسماعيليا و داعيا كبيرا؟ ثم أ ليس هذا أفضل من القول إنه فارسى أو روسى، أو تركى، أو أفغانى؟

لقد أغفل التاريخ حقيقة هذا العبقرى الملهم، و لم يذكر لنا إلّا القليل القليل من قصصه، و أخبلوه، و سيرة حياة والده، و شقيقه الأصغر الذى تربّى فى كنفه، و ظلّ مرافقا له طيلة حياته.

فنحن لم نصدق أن والد ابن سينا لم يترک أية مؤلفات، و هكذا بالنسبة لولده الثانى، و نرفض كل قول يرمى إلى إبعاده عن العروبة جنسا، و عرقا، و عن الإسماعيلية فكرة و عقيدة، كما لم نصدق بأن ابن سينا لم يتزوج، و لم ينجب أولادا.

أما القول عنه: بأنه كان خبيثا فى باطنه، و زنديقا كافرا ... فلا نرد عليه، و لكننا لا نؤمن بأن الخبث، و الزندقة، و الكفر تعيش فى ضمير عبقرى ... كابن سينا الذى عرف مراتب الوجود، و عبد المبدع الواحد الأحد، و لم ينقطع يوما عن الصلاة له، و الاستعانة به.

إن ابن سينا نصّ سيرته على تلميذه الجوزجانى ... فجاء البيهقى و نقلها فى «تتمة صوان الحكمة» و القفطى فى «أخبار الحكماء»، و ابن أبى أصيبعة فى عيون الأنباء، و عنهم نقل المؤرخون، و أصحاب كتب التراجم، و مؤلفو كتب التاريخ، و لا نزال نحن أيضا ننقل ما كتبه هؤلاء حتى يومنا هذا. مضافا إلى ذلک أن قائمة عامة بمؤلفات ابن سينا، وضعت فى القرن الحادى عشر، و فيها أضيفت أسماء كتب جديدة. و من الغريب أنه عثر على كتب أخرى لابن سينا لم تذكر فى هذه القائمة ... و هذا ما حدا بالأب جورج شحادة القنواتى إلى تصنيف قائمة جديدة ضمنها المؤلفات المكتشفة حديثا، و هكذا فعل «عثمان أرخن» و «المهدوى» الإيرانى، و بالرغم من كل هذا، فإننا لا

نزال نعثر فى كل يوم على كتب جديدة لابن سينا ... إذن ... فإن ما أورده الجوزجانى كان ناقصا، و مشكوكا بصحته، و يعطى الدليل على أنه من نسج الخيال.

و مهما قلنا، و مدحنا، و دافعنا فإننا لا نفى ابن سينا حقه، و أنّى لمثلنا أن يصل إلى أبعاده، و مراميه؟ فهذا العبقرى الكبير، و الفيلسوف الملهم لا تعبّر عنه الكلمات و لا الصفحات، حتى و لا المجلدات.

و الحقيقة فإن كل ما قلناه عنه أمس و اليوم، و يقوله غيرنا ليس إلّا قليلا من كثير، أو نقطة من بحر واسع زاخر بالعلوم و المعارف، و الحقائق التى ما زالت، و بعد ألف عام، تفوح بالأريج، و الشذا، و الطيب.

كان ابن سينا غزيرا فى صنعته العقلية، و فياضا فى توضيحاته، و تعليلاته، و كان يملک من حدة الذهن، و قوة الحفظ، و الصبر ما يكاد يكون خارقا و خارجا على المألوف و من الواضح ... أن مفكرين، و فلاسفة عديدين، و شارحين للكتب الفلسفية اليونانية و الفارسية، و الهندية، و السريانية جاؤوا قبله فى عصور الحضارة العربية، و الإسلامية ... و لكنهم لم يتركوا أثرا مثل الأثر الذى تركه ابن سينا فى الحضارة الإسلامية، و فى الشرق و الغرب.

لم يكن ابن سينا إقليميا، و لا طائفيا، و لا متزمتا، و لا متعصبا ... بل كان إنسانا متفتحا عالميا، و مسلما صالحا، و إسماعيليا عاقلا يرى فى الدين طريقا لخدمة المجتمع، و التقرب، و المحبة و الدعوة للحب، و للخير، و للجمال ... و قد تأثر بآرائه: فخر

الدين الرازى، و الأشعرى، و الغزالى، و هكذا صدر الدين الشيرازى، و ابن ميمون اليهودى، و ابن العبرى، و المعدنى السريانى، و جمال الدين الأفغانى، و محمد عبده، فضلا عن رهبان مسيحيين، و عبريين. و من الجلى الواضح: أن فلسفته كانت تدرس فى المعاهد الإسلامية فى فترات عديدة، و خاصة فى تونس، و المغرب، و مصر، و دمشق، و بغداد، و أصبهان، و شيراز.

و عند هذا الحد نتوقف لنقول:

بأنه يجب أن لا ينحصر موقفنا من ابن سينا عند حد التقدير و الإعجاب، بل يجب علينا أن نسير على خطواته بالتجديد،

##PAGE=119##

و الابتكار، و الخلق بتجرد، و إنصاف، و انقطاع لخدمة الإنسانية بعيدين عن الأفكار الرجعية، و التعصب الذميم.

لقد قدّر الغرب ابن سينا حق قدره، و وضعه فى المكان الذى استحقه، فعند ما استيقظت أوروبا من سباتها فى مطلع القرن الثانى عشر للميلاد رأى العلماء فيها أن مؤلفات ابن سينا جديرة بالترجمة، و التعميم فى أوروبا ... فترجموا له كتاب «الشفاء» على مرحلتين:

الأولى، فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر للميلاد. و الثانية، بعد مئة عام.

ثم ترجموا له «إيساغوجى» و اعتبروه خطأ من تأليف أرسطو، كما ترجموا له الطبيعيّات على مراحل. فالقسم الأول، و الثانى، و السادس فى علم النفس. ثم الإلهيات فى جزئين و ترجموا له جزءا من النجاة و الإشارات، و بعض الرسائل الصغيرة، كما ترجم له «روجيه باكون» كتاب فى الكيمياء، و ذلك فى منتصف القرن الثانى عشر للميلاد.

إن فلسفة ابن سينا لم تتقيد بزمان أو مكان، و من الواضح أنه لم يكن معروفا فى صفوف العلماء، وحدهم فحسب بل و فى صفوف الجماهير الشعبية التى تذكر مآثره، و تنوه بمزاياه، و قدراته، و إسهامه فى العلوم، و الثقافة العربية التى لا تكمن فيما قدمه من أفكار، و ابتكره من علوم و نظريات، و ثقافة عامة فحسب، بل فى أفكاره الإنسانية التى دعت إلى التقارب، و التمازج، و نبذ التعصب الدينى، و إلى الحرية للجماعات، و الأفراد.

لقد ثبت أن ابن سينا كان مسلما ورعا عاكفا على الصلاة و العبادة الصوفية الانقطاعية أمّا، صلاته فهى تلك التى يتغنّى بها النساك فى صوامعهم فتتبعها روحه طائرة إلى الملأ الأعلى، لترى عالما غير هذا العالم ... يطفح بالنور، و يخيم عليه السكون، و ينبثق من جوانبه السرور. فيروى الغليل، و يشفى الألم، و الظمأ، و الحرمان.

لقد كان ابن سينا عارفا باللّه، يتوق إلى الوقوف على عتبة واجب الوجود، و هناک يحلق فى سماء القداسة، ثم يتحد بالأزل الأكمل لينال صفة الروحية السامية، و ليشاهد ثغرا باسما، و قلبا طافحا بالفضيلة، و القداسة، و نفسا نفضت عنها جلابيب المادة لترتدى حلة النور الوضاءة. و للتحلّى القوة، و الشجاعة، و الحب، و الترفع.

##PAGE=120##

بديع الزمان الهمذانى

يعتبر «بديع الزمان الهمذانى»، مبتدع فن المقالة، و رائده، و هو أمر سلّم به «الحريرى» عند ما قال فى مقدمة مقاماته:

«و بعد فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحه و خبت مصابيحه، ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان، و علّامة همذان».

و صرّح القلقشندى فى صبح الأعشى: بأن أول من فتح باب عمل المقامات، علّامة الدهر، و إمام الأدب البديع الهمذانى. فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه، و هى فى غاية البلاغة، و علو الرتبة فى الصنعة.

و قال الناقد اللبنانى مارون عبود فى كتابه عنه:

«ليس لبديع الزمان من آثار غير الرسائل، و المقامات، و الديوان، و هذه كلها لو جمعت فى كتاب واحد، لما بلغ حجمه حجم ديوان البحترى، و لكن الأدب ليس كالحطب ليباع بالقناطير، و هو لا يقاس بالكيلومترات كالصحارى. فهذه الآثار على صغرها، بوّأت الرجل منزلته العليا فى الأدب العربى، فكان بعيد الأثر فيه».

أما أنا، فقد يحمل قولى، الآن، على محمل التعصّب، و الادّعاء بغير حجة و لا دليل، و لكن رويدا و تسفر الحقيقة عن وجهها، فهذا الأديب الكبير كان إسماعيليا، ولد لأبوين إسماعيليين، و مصادرنا الإسماعيلية تقول: إنه يدخل فى عداد الدعاة الكبار، و يعتبر من المؤلفين و الفلاسفة الذين كتبوا الرسائل، و الكتب فى فلسفة الدعوة، و لكن هذه المؤلفات قد أصابها التلف كما أصاب غيرها.

إذن فبديع الزمان الهمذانى كان من أتباع المدرسة الإسماعيلية الفكرية، و من العاملين فى سبيل ازدهارها، و رفع منارتها.

هو: أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذانى ... لقبه: بديع الزمان، و كنيته: أبو الفضل ولد سنة ٣٥٨ ه. فى همذان، و قضى فيها طفولته، و فتوته حيث تلقى علومه على والده الذى كان يرأس مدرسة الدعوة الإسماعيلية فى هذا الإقليم.

فی سنهٔ ۳۸۰ ه. انتقل بدیع الزمان إلی «هراهٔ» فاتصل «بالصاحب

##PAGE=121##

ابن عبّاد» وزیر مؤید الدولهٔ ابن رکن الدولهٔ. ثم بأخیه فخر الدولهٔ، و ذلک فی عهد الدولهٔ البویهیهٔ.

و کان أکثر دعاهٔ الإسماعیلیهٔ فی فارس یلجأون إلی الملوک، و الأمراء البویهیین، فیلاقون کل رعایهٔ.

و فی أول لقاء مع الصاحب أعجب هذا بذکائه، و جعل له مکانهٔ فی مجلسه، و بعد إقامهٔ غیر قصیرهٔ، غادر هراهٔ، و نزل جرجان حیث انضمّ إلی الدعاهٔ الإسماعیلیین الذین کانوا یجتمعون هناک لتلقی التعلیمات، و الدروس من داعی الدعاهٔ.

و فی سنهٔ ۳۹۲ ه. انتقل إلی نیسابور فدخلها، و وصف حالته بقوله:

«و لا حلیهٔ إلّا الجلدهٔ، و لا بردهٔ إلّا القشرهٔ» و ذلک بعد أن داهمه اللّصوص فی الطریق، و سلبوه.

و فی نیسابور اتصل بدیع الزمان «ببنی المیکالی» و هم من أصحاب النفوذ، کما اتصل بابن المرزبان «و بأبی الطیب الصعلوکی» و کانوا ممن استجاب للدعوهٔ الإسماعیلیهٔ.

لم یتوقف الهمذانی عن انتهال الأدب من مناهله، کما أنه توجه إلی العلوم و الفلسفهٔ فتفوق فی هذا المضمار یدلنا علی ذلک ما ذکره «الثعالبی فی یتیمهٔ الدهر» عن المناظرهٔ الفلسفیهٔ الریاضیهٔ التی جرت بین بدیع الزمان الهمذانی و بین «أبی بکر الخوارزمی»، و مما تجدر الإشارهٔ إلیه أن بدیع الزمان بدأ بکتابهٔ مقاماته فی نیسابور، ثم لم یلبث أن غادرها بعد ذلک إلی خراسان، و سجستان، و غزنه، و کرمان، حتی استقرّ أخیرا فی هراهٔ، و فیها تزوج ابنهٔ أبی علی الحسین بن محمد الخشنامی.

توّفی البدیع سنهٔ ۳۹۸ و قد جاوز الأربعین، و مصادر الإسماعیلیهٔ تقول بأنه مات غیلهٔ، و لکن ابن خلّکان فی وفیاته و الثعالبی فی یتیمته و مرغلیوث فی دائرهٔ المعارف الإسلامیهٔ و الزرکلی فی أعلامه، یقولون بموته بداء السکتهٔ و إنه أفاق فی القبر و صرخ، فلما نبش القبر وجد البدیع و قد قبض علی لحیته بیده من هول القبر.

لم نعثر علی رسالهٔ أو مقالهٔ للبدیع تبحث فی الفلسفهٔ و فی غیرها من علوم عصره، التی کانت سائدهٔ فی معاهد و مجامع ذلک العصر، الأمر

##PAGE=122##

الذى يحملنا على القول بأن الرجل قد كتب العديد من الكتب و لكنها ضيّعت كما ضيّعت الآثار الفكرية الإسماعيلية، الأخرى.

مثل بديع الزمان الهمذانى كمثل: ابن سينا، و الطوسى، و الكرمانى، بل و المتنبىء و المعرى ... و هذا ليس غريبا على المدرسة الإسماعيلية الفكرية التى أخرجت إلى عالم الفكر صفوة الأدباء و الفلاسفة و العباقرة فى عصور مختلفة.

##PAGE=123##

أوضاع المغرب فى عهد الحاكم بأمر اللّه

كانت أوضاع المغرب، فى أواخر عهد الخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه، تسير فى طريق مسدود و غامض «فباديس بن بلكين بن زيرى الصنهاجى» بالرغم من بقائه على الولاء للفاطميين بالظاهر فإنه استأثر بكافة الصلاحيات فى الحقيقة و الواقع، و لم يبق للفاطميين إلّا الاسم على العملات، و الخطب التى تذكرهم فى المساجد، و بعض التأييد لدى اتباعهم الذين اعتنقوا المذهب الفاطمى و كانوا «قلّة».

و قد عرف الإمام الحاكم كل هذا، و لكنه و هو فى خضم الأحداث أراد الإبقاء على العلاقة مع «الزيريين» و لو شكليا رغم علمه أن هيبة الدولة الفاطمية، و نفوذها لم يعد لهما وجود فى ديار المغرب فالدولة لم تكن تتحمل الدخول فى المعارك، بشأن المغرب، خاصة فى ذلك الوقت.

و عند ما تسلّم الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه الخليفة الثامن شؤون الخلافة، أقبلت وفود عديدة من المغرب تمثل القبائل، و الهيئات ذات الفعاليات و النفوذ، و كانت تحمل للخليفة الظاهر التهانى و المبايعة، و لكن و مع كل هذا فإن الاعتقاد بأن المغرب لم يعد البلد الذى يمتلكه الفاطميون، أو يحكمونه مباشرة.

أجل، كان الإمام الحاكم بأمر اللّه، يعرف ذلك كلّه، و لكن ما العمل و الظروف غير مواتية، فلقد كان فى شغل عن المغرب بما نجم فى الداخل و فى المشرق، و هو، على ما روت كتب التاريخ الفاطمى، كان ينوى العودة إلى المغرب ليقيم فيها نصف سنة على أن يقضى النصف الآخر فى مصر، كل سنة، و لكن الأجل داهمه و لمّا يخرج بعد فكرته إلى حيّز التنفيذ.

كان بلكين بن زيرى أول نائب عن الخليفة الفاطمى فى المغرب، و ليس فى حياته‌ما يدل على أنه قد فكّر بالاستقلال بالمغرب و فصله عن الدولة الفاطمية، و نحن قد روينا عن مرور باديس ابنه فى القاهرة فى طريقه إلى الحجّ فى مظاهر من الأبهة و الاستعلاء غضّ الإمام الحاكم بأمر اللّه الطرف عنها، رغبة منه فى الإبقاء و لو على صلة صورية تربط المغرب بالدولة الفاطمية.

و لكن، و الحديث الآن عن المغرب، لا بد من القول بأن التصدع الداخلى هناک قد بدأ بالخلاف الذى قام بين أفراد أسرة الزيريين الحاكمة. فباديس شنّ حربا على أبناء عمه الحمّاديين بسبب دعوتهم إلى الاستقلال التام، و الارتباط بالعباسيين، و كان باديس قد تناسى نصيحة الخليفة الإمام المعز لدين اللّه لجده بلكين يوم أقامه نائبا عنه على المغرب، و قال له و هو يودعه، و كان فى طريقه إلى مصر.

أحذّرک بأن لا تولى أحدا من أسرة الزيريين أية وظيفة فى الدولة ...

و لكن باديس خالف الوصية، و عهد لعمه «حمّاد بن بلكين» بالدفاع عن المغرب الأوسط ضد «البترزناتة» و ذلک سنة ٣٨٦ ه. فقام ببناء القلاع، و الحصون، و الاستحكامات. و بعد فترة أعلن الخروج على ابن أخيه سنة ٤٠٥ ه. و نصّب نفسه أميرا على دولة مستقلة، ثم أخذ يشجع «زناتة» فى طرابلس الغرب للخروج على باديس.

كان حمّاد جبارا، سفاحا يقتل الأطفال، و النساء و الأسرى، و يعيث فسادا فى كل مكان يدخله، مما حمل باديس على التوجه إليه لمعاقبته، و لكنه توفى سنة ٤٠٦ ه قبل أن ينفذ مهمته، فخلفه ابنه «المعز» الذى بدأ عهده بعقد صلح من حمّاد، و الإبقاء على ما فى يديه.

أما بالنسبة للفاطميين، فإن عوامل الفتور بينهم و بين الزيريين قد نجمت بعد موت بلكين، بل قبل ذلک، أى فى مستهل عهد الإمام المعز لدين اللّه، عند ما أخذ بعض الزيريين، و تابعوهم ينقضون عهودهم، و يعودون إلى اعتناق المذهب السنى بعد أن كانوا قد اعتنقوا المذهب الفاطمى.

و لكى نستقصى أسباب هذا التحول عن مذهب الفاطميين، يجدر بنا أن نعود إلى الحديث عن عقيدة أهالى شمالى أفريقيا قبل مجيء الفاطميين. فمن الواضح أن هذا الاعتقاد القديم كان يقوم على مذهب «أبى حنيفة» و لكن «سحنون بن سعيد» الذى قدم إلى «القيروان» سنة ١٩١ ه ألّف كتابا فى المذهب المالكى دعا الناس فيه إلى اعتناق هذا المذهب، لأنه يتفق، و طبائع أهالى شمالى أفريقيا.

و بالفعل لاقى الكتاب اعتبارا كبيرا، و أثّر فى الأفكار بحيث اعتبر فيما بعد أساسا للعقائد الدينية السائدة فى تلک البلاد.

و مهما يكن من أمر ... فإن أهل أفريقيا الشمالية، أيّدوا الفاطميين

لرغبتهم فى التخلص من حكم الولاة العباسيين من جهة، و لإبعاد الفوضى الضاربة أطنابها فى بلادهم من جهة أخرى ... أما بعد رحيل الفاطميين من المغرب إلى الديار المصرية، فإن الزيريين «نواب الفاطميين» أصبحوا وحدهم يمثلون المذهب الشيعى فى عاصمتهم «المنصورية». أما فى القيروان، و غيرها من مدن المغرب، فقد كان المذهب المالكى هو السائد، و لا شك فقد وصل النظام الفاطمى إلى الحد الأقصى من الانهيار بعد الثورتين المشهورتين: ثورة أبى يزيد الخارجى، و ثورة أبى ركوة. و قد ذكرنا عنهما فى الصفحات السابقة ما فيه الكفاية، كما يجب أن لا يغرب عن البال انقسام الزيريين على بعضهم البعض، و انحياز الفريق الثانى الحمّاديين للسنة، و تصدّيهم للشيعة حتى فى عاصمة الفريق الأول المنصورية.

أما «المعز بن باديس» الذى تسلّم الإمارة فى المغرب، و هو ابن ثمانى سنوات، فقد كان تحت سيطرة فقيه سنى اسمه «الحسن بن على بن أبى الزجّال» الذى تمكن من تحويله عن الفاطمية.

و تذكر المصادر التاريخية أن سبب الفتور، هو حدوث مصادمات بين الشيعة، و أهل السنة فى المغرب، فقد ذكر أن الدم جرى غزيرا فى شوارع القيروان. فكان السنيّون يهاجمون الشيعة فى الأسواق، و فى كل مكان، فيقتلون الأطفال، و النساء، و الشيوخ دونما تمييز، أو رأفة، و قد سارت أغلب مدن المغرب على هذه الخطة، فثار الأهلون على الشيعة، و قتلوا منهم أعدادا كثيرة، كما أحرقوا منازلهم بالنار و نهبوها، و أعملوا فيهم القتل عند ما حاولوا الفرار إلى صقلية، و كانوا يسمونهم المشارقة نسبة إلى أبى عبد اللّه الشيعى الذى جاء من المشرق.

و هناك رأى لا يبرىء «المعز بن باديس» من هذه الجريمة، فقد ذكر أنه دعا الناس بالسر، و شجعهم على القضاء على الفلول الشيعية بعد أن تجرأ على تغيير العملات، و نزع اسم الفاطميين عنها.

و بالرغم من كل هذا فإن الفتور لم يصل إلى حد القطيعة، لأن الزيريين أى الفرع الأول كانوا يعتمدون فى أمورهم السياسية على تأييد العباسيين. أما الخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه، فقد أزعجه أن تصل الأمور فى المغرب إلى هذا الحد، فأرسل إلى المعز بن باديس

يسأله عن الأسباب التى أدت إلى سفک دماء الأبرياء من الشيعة بهذا الشكل الوحشى؟ فأجابه، معتذرا، و ألقى المسؤولية على العامة الذين لم يكن بالإمكان كبح جماحهم. و من جانب آخر فإن المعز بن باديس أرسل إلى الخليفة الحاكم بأمر اللّه بشرى نهاية الدولة الأموية فى الأندلس كدليل على الرغبة بإبقاء العلاقات الوثيقة.

فأرسل إليه الإمام الحاكم بأمر اللّه سيفا مرصعا بالجواهر، و خلعة من ثيابه، و تبادلا على إثر ذلک رسائل الود.

##PAGE=127##

الظاهر لإعزاز دين اللّه

##PAGE=129##

الامام السابع عشر و الخليفة السابع

لقبه: الظاهر لإعزاز دين اللّه. اسمه على، و كنيته أبو هاشم و هو الإمام السابع عشر لجده على بن أبى طالب، و الخليفة الفاطمى السابع.

ولد بالقصر الفاطمى بالقاهرة المعزية، فى ١٠ رمضان سنة ٣٩٥ ه و تولى الخلافة بعد ستة أسابيع مضت على مصرع والده الحاكم بأمر اللّه، أى فى اليوم الأول من عيد الأضحى العاشر من ذى الحجة سنة ٤١١ ه و كان له من العمر سبعة عشر عاما.

توفى سنة ٤٢٧ ه بعين شمس، بعد حكم استمرّ ستة عشر عاما، و له من العمر إثنان و ثلاثون عاما. كان له شقيق أصغر وحيد اسمه «الحارث» و لقبه «أبو الأشبال»، و قد توفى فى عهد والده الإمام الحاكم بأمر اللّه سنة ٤٠٠ ه. و كانت له أيضا شقيقة صغرى اسمها «ست مصر».

و قد أجمعت المصادر التاريخية على أن عمته الأميرة «ست الملک» هى التى تولّت تربيته، و الإشراف على تعليمه، و تثقيفه ... و من الواضح أنها بذلت عناية كبرى فى سبيل إعداده للخلافة، و للملک حتى استطاع نيل ثروة كبيرة من الأدب، و المثالية، و الخلق الرفيع، و التهذيب، فكان الناس يذكرون أدبه، و علمه، و كثيرا ما شبهوه بجده الإمام «المعز لدين اللّه».

كان الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه حليما متواضعا، يحب الأدب و الشعر منذ الصغر، و يكره مبدأ العنف، و القتل و كان مهتما بالثقافة و الفنون و فى الوقت نفسه كان قوى العزيمة، لا يبالى

##PAGE=130##

بالصعاب، و عند حدوث المفاجآت، و هبوب العواصف يقف أمامها بعزم ثابت و صبر، و يتصدّى لها بعنف، و هو واثق من النصر، و كان رحب الصدر كثير الحلم، كريما يعفو عند المقدرة، و يستمع إلى الرعية، و شكاوى الفقراء، و المظلومين، كل هذا بالإضافة إلى تديّنه، و حرصه على تطبيق قواعد الدين الإسلامى، و التمسك بأهداب التعاليم الشرعية الصحيحة، و الرغبة فى الإبقاء عليها بمنجاة من الشرك، و الإلحاد، و كان دقيقا و عنيفا بإزالة كل ما علق بالأذهان من العقائد المخالفة، و المنحرفة التى ابتدعها الغلاة، فى عهد والده، و إبعاد كل ما اتهم به البيت الفاطمى من تهم باطلة كقولهم. إن الفاطميين يعطفون، و يمدون هذه الفئة بالسر، و يشجعونها و يتبنون عقائدها، فكانت أوامره صارمة بإبطالها و القضاء على هذه الفئة الضالة إذا ما استمرت فى غوايتها.

أشاد التاريخ إشادة واضحة بالخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه ... فقد ذكر أن باكورة أعماله كانت منحه الحرية التامة المطلقة للفرق و الأديان كافة بممارسة طقوسهم الدينية كما يشاؤون، دونما أى ضغط، أو مراقبة، أو تعكير الأجواء ... كما ألغى قرارات عديدة كانت قد صدرت فى عهد والده الخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه، و خاصة ما كان منها يعالج الحالة الاقتصادية للدولة، و ألغى أيضا الكثير من المنح، و الرواتب، و المخصصات، و الإقطاعات، و الأرزاق التى قررها والده، و التى أصبحت تشكل عبئا ثقيلا على خزينة الدولة، و أشاع العدل و القانون فى جميع الأرجاء، مما أعاد إلى الأذهان سيرة الخليفة الرابع الإمام المعز لدين اللّه. و لهذا فإن غالبية الشعب المصرى، و خاصة الطبقة الراقية، و المثقفة محضته الثقة، و أولته الطاعة، و دانت له ... و لكن كل هذا لم يثمر أمام تفاقم الأحداث، و ازدياد الاضطرابات، و تعرض البلاد إلى سوء الأحوال الطبيعية، و الآفات السماوية.

و من الجدير بالذكر أن «عمار بن محمد» رئيس الرؤساء، و خطير الملك قد أسهم إسهاما قويا بإيجاد المناخ الصالح لخلافة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه، و كان وقت اختفاء الإمام الحاكم بأمر اللّه يشغل وظيفة رئيس ديوان الإنشاء، و المشارقة، و الأتراك.

##PAGE=131##

تزوّج الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه، أمة سوداء كانت لتاجر يهودى اسمه «سهل بن هرون التسترى» و قد ابتاعها الإمام الظاهر منه، و تزوجها. فولدت له «المستنصر باللّه» الذى تسلّم الإمامة الفاطمية. بعد والده فكان ترتيبه الخليفة الثامن.

وزراء الظاهر لإعزاز دين اللّه

من المعلوم ... أن المدة التى قضاها الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه فى الخلافة كانت قصيرة بالنسبة لأسلافه. لهذا فإن عدد الوزراء الذين استخدمهم لم يتجاوز أصابع اليد، و ها هو ترتيبهم، و لمحة وجيزة عنهم.

١- عمّار بن محمد: رئيس الرؤساء، أو خطير الملك ... كنيته أبو الحسن، مسلم فلسطينى ... أسهم كما ذكرنا بإيجاد المناخ الصالح لخلافة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه، و عند ما اختفى الإمام الحاكم بأمر اللّه، كان يشغل وظيفة رئاسة ديوان الإنشاء، و المشارقة، و الأتراك. فوضع نفسه تحت تصرف «ست الملك»، و قاد الحملة التى هيأت الأجواء الصالحة للخليفة الجديد ... و لكن مع كل أسف اتهم فى آخر المطاف بتهمة الرشوة، و سرقة أموال الدولة، فحوكم ... و قيل إنه أعدم، و لكن لم يتحقق ذلك.

٢- موسى بن الحسين: هو بدر الدولة، و أبو الفتوح. كان يتولّى الشرطة ثم ولى ديوان الإنشاء بعد «ابن حيران». كان شيعيا فارسيا، و لكن المدة التى بقى فيها فى الوزارة كانت قصيرة. مات اغتيالا ... و ترك ثروة طائلة.

٣- مسعد بن طاهر الوزان: هو الأمير شمس الملوك المكين ...

مسلم فارسى، لم يعمّر فى الوزارة طويلا، و لا أحد يدرى الأسباب.

٤- الحسين بن صالح الروزبارى: هو عميد الدولة، و ناصحها كان يحمل كنية «أبو محمد» ... مسلم عراقى. من الواضح أنه ابن الوزير «صالح بن على الروزبارى» الذى كان وزيرا فى عهد الإمام الحاكم بأمر اللّه.

٥- على بن أحمد الجرجرائى «أبو القاسم»: نجيب الدولة أو الوزير الأجّل الأوحد. صفى أمير المؤمنين. إسماعيلى المذهب. كان

عالما قديرا. و عبقريا ... خدم الأسرة الإمامية الفاطمية بإخلاص، فهو الذى أخذ البيعة للخليفة الإمام «المستنصر باللّه» فى حياة والده الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه، و كان ابن ثمانية أشهر.

٦- قاسم بن على بن أحمد الجرجرائى: ... من الرجال القلائل المخلصين للدولة الفاطمية و للخليفة ... عمرانى خطّط، و عمل على توسيع مدينة القاهرة «المعزية» و شقّ شوارعها، و إقامة الحدائق و الأسواق و المساحات، و المبانى، كما نهض بالزراعة، و قدّم الكثير الكثير من الخدمات للفاطميين، و لكن الأقدار عاكسته.

و من الأشخاص المرموقين الذين لعبوا دورا مهما فى عهد الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه الخادم الأسود المسمّى «معضاد»، كان مقربا من الإمام فلذلک عينه لقيادة الجيوش و لقبه بعز الدولة و سنائها و «أبو الفوارس» و «معضاد الظاهر» و ذكر أنه كان من أقرباء زوجة الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه. و أنه كان الشخص الثالث فى الدولة الذى يملک صلاحية الدخول على الخليفة متى شاء، و مثله مثل الشريف الكبير «العجمى»، و الوزير «على الجرجرائى» و «الشيخ العميد- محسن بن بدوس». و يأتى بعدهم «شمس الملوک مظفّر» صاحب المظلة، «و ابن حيران» صاحب ديوان الإنشاء، و داعى الدعاة، و نقيب الطالبيين، و قاضى القضاة.

المغرب فى عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين اللّه

ذكرنا فى الصفحات الأولى من هذا الجزء، و فى معرض الحديث عن الإمام الحاكم بأمر اللّه ما فيه الكفاية عن أوضاع المغرب فى ذلک العهد، و تطرقنا إلى العلاقات بين الفاطميين، و بين نوابهم «الزيريين الصنهاجيين» التى وصلت إلى طريق مسدود، «فباديس بن بلكين» بالرغم من بقائه على الولاء للفاطميين بالظاهر، فإنه، فى السر، استأثر بكافة الصلاحيات، و لم يترک للفاطميين من النفوذ و السيطرة إلّا الاسم على العملة، و الخطبة فى المساجد فى أيام الجمع. و ذكرنا أن الإمام الحاكم بأمر اللّه، عرف كل هذا، و لكنه ظلّ حريصا على إبقاء العلاقات الودّية خاصة، و هو يعلم أن إمكانيات الدولة المالية،

و العسكرية لا تتحمل الدخول فى معارک بشأن المغرب فى ذلک الوقت.

و عند ما تسلّم الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه شؤون الخلافة. هبطت وفود عديدة من المغرب، تمثل القبائل، و الهيئات ذات الأهمية و الفعالية، و هى تحمل لخليفة مصر الفاطمى التهانى، و المبايعة، و لكن و مع كل هذا فإن الاعتقاد ظلّ سائدا لدى الناس كافة، بأن المغرب لم يعد البلد الذى يمتلكه الفاطميون، أو يحكمونه مباشرة.

و من الواضح ... أن أهل أفريقيا الشمالية أيّدوا الفاطميين لرغبتهم فى الابتعاد عن حكم الولاة العباسيين من جهة، و لإنقاذهم من الفوضى الضاربة أطنابها فى بلادهم من جهة أخرى. أما بعد انتقال الدولة من المغرب إلى مصر. فإن الزيريين أوصياء الفاطميين و نوابهم أصبحوا وحدهم يمثلون المذهب الفاطمى فى عاصمتهم «المنصورية».

أما فى القيروان و غيره ا من مدن المغرب فقد كان المذهب المالكى هو السائد، و الأرجح فالمذهب الفاطمى تأثر كثيرا، و أصيب بما يشبه الانهيار بعد الثورتين المشهورتين و أعنى بهما: ثورة أبى يزيد، و ثورة أبى ركوة.

و خلاصهٔ القول، هی أن المغرب، فی عهد الإمام الخلیفهٔ الظاهر لإعزاز دین اللّه، بات فی حکم المنفصل عن الدولهٔ الفاطمیهٔ.

المشرق فی عهد الخلیفهٔ الظاهر لإعزاز دین اللّه

کان الاعتقاد السائد فی بلاط الخلافهٔ الفاطمیهٔ، و فی ردهات قصر الخلیفهٔ الفاطمی الإمام الظاهر لإعزاز دین اللّه، و فی کل مکان فی القاهرهٔ «المعزیهٔ»، و فی أرجاء الدولهٔ الفاطمیهٔ، حتّی فی أوساط عائلهٔ الخلیفهٔ بأن مقتل الخلیفهٔ الإمام الحاکم بأمر اللّه و اختفاء کل أثر له تمّ علی أیدی جماعهٔ «الغلاهٔ» الذین نادوا بألوهیته، و أکثر هؤلاء من «الشعوبیین» الذین تسربوا من بلاد الفرس، و فیهم بعض عناصر «الیهود» من فارس الذین اعتنقوا الإسلام، و تسربوا إلی حرمه، و دخلوا فی الإسماعیلیهٔ بقصد تخریب هذه المجموعهٔ الکبیرهٔ و تقسیمها.

##PAGE=134##

فی تلک الفترهٔ التاریخیهٔ أی سنهٔ ۴۱۴ ه. أذاع الخلیفهٔ الإمام الظاهر لإعزاز دین اللّه مرسوما من القصر الفاطمی ... و هذا بعض ما جاء فیه، کما ورد فی کتاب «النجوم الزاهرهٔ» لأبی المحاسن ابن تغری بردی.

و ذهبت طائفهٔ إلی الغلو فی أبینا أمیر المؤمنین «علی بن أبی طالب» فغلت، و ادّعت فیه ما لا یصدقه العقل، و نجمت من هذه المجموعهٔ الکفرهٔ فرقهٔ سخیفهٔ العقل و ضالهٔ بجهلها عن سواء السبیل.

لقد غالوا فینا غلوا کبیرا، و قالوا فی آبائنا و أجدادنا منکرا من القول و زورا ... نسبونا بغلوهم الأشنع، و جهلهم المستفظع إلی ما لا یلیق بنا ذکره ... و إنّا لنبرأ إلی اللّه تعالی من هؤلاء الجهلهٔ الکفرهٔ، و نسأل اللّه أن یحسن معونتنا علی إعزاز دینه، و توطید قواعده، و تمکینه، و العمل بما أمرنا به جدنا المصطفی، و أبونا علی المرتضی، و أسلافنا البررهٔ أعلام الهدی».

و فی السجل یتبرأ الخلیفهٔ الإمام الظاهر لإعزاز دین اللّه من هذه المزاعم التی قیلت فی أبیه، و أسلافه، و یؤکد اعترافه إلی اللّه بأنه و أسلافه الماضین، و أخلافه الباقین مخلوقون اقتدارا، و مربوبون اقتسارا، لا یملکون لأنفسهم موتا و لا حیاهٔ، و لا یخرجون عن قبضهٔ اللّه تعالی، و إن الخارج منهم علیه لعنهٔ اللّه.

و قدّم الإمام الظاهر لإعزاز دین اللّه فی مرسومه إنذارا یدعو هؤلاء إلی التوبهٔ إلی اللّه من الکفر، و ینذرهم بوضع السیف علی رقاب من یصرّ علی البقاء علی الکفر، کما یعد التائبین و الراجعین إلی الصواب بالعفو.

هذا بالنسبة للغلاة. أما بالنسبة للأوضاع العامة فى بلاد الشام، التى لم تعرف الاستقرار، و لا ذاقت جفون أبنائها طعم الهدوء. و قد مرّ معنا فى الأجزاء السابقة تفاصيل ما وقع على أرضها من حروب، و ما أهرق فى ساحاتها، و ميادينها من دماء، و ما مثل على مسارحها من مشاهد تقشعر لذكرها الأبدان.

ففى عهد الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه فكر «فاتک الوحيدى» عزيز الدولة، أو أمير الأمراء بالعصيان، و الاستقلال بحلب، و ما يتبعها مستغلا بذلک غياب الخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه، و صغر سن الخليفة الإمام الخليفة الظاهر لإعزاز دين اللّه، و لكن «ست

الملک «دبرت الأمر، بأن أغرت خادمه بدر، فتولّى قتله عند ما كان فى حالة سكر، و عندئذ تولّى «بدر» ولاية حلب مكانه، مكافأة له، و لكنه مع كل أسف لم يستمر سوى بضعة أيام، لأن «ناصر بن صالح بن مرداس» الذى كان سجينا تمكن من الفرار من سجنه، و ظهر على مسرح الأحداث من جديد، و كان فى بداية أمره على علاقة طيبة بالفاطميين، و لكنه عاد فنكل ثم استولى فيما بعد على حلب، و ما يتبعها من القرى و البلدان. و من المعلوم أن المرداسيين ه‌م جماعة من الشيعة أقاموا إمارتهم على أنقاض الإمارة الحمدانية، عند ما انطلقوا من مواطنهم، و قاموا بحملتهم التى استهدفت الحمدانيين عند ما انطفأ آخر شعاع لهم من وادى الفرات. فاستولوا على حلب، ثم امتدوا بعد ذلک إلى «فبج»، و «الرقة» و «الرحبة» ثم حماة، و حمص، و صيدا، و بعلبک، و طرابلس، و امتدّ نفوذهم حتى «عانة».

و من مآثرهم انتصارهم فى إحدى المعارک على «ارمانس» ملک الروم فى معركة فاصلة وقعت فى شمالى سورية، و قد عرف أن مؤسس إمارتهم هو «صالح بن مرداس» أما «ناصر» فهو ولده، و كان معاصرا للخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه. و مما يجب أن نشير إليه أن المرداسيين كانوا من الشيعة، لذلک فإنهم كانوا يحملون عطفا خاصا للفاطميين ... و بالرغم من ذلک فإن العقيليين قضوا عليهم ... و كان آخر من حكم منهم هو «سابق بن محمود».

و نعود إلى بلاد الشام لنقول: إن «حسان بن جراح» تغلّب فى تلک الفترة على أكثر مدنها، و لم يستطع أحد من عمال الفاطميين، أو قوادهم المرابطين هناک صده، أو الوقوف بوجهه.

كل هذه الظواهر تعطينا الدليل الدامغ بأن الدولة الفاطمية التى كانت تمر فى أقصى مراحل ازدهارها قد أخذت بالتدهور، و الانحلال أو ما يمكن تسميته ببداية النهاية.

أوضاع صقلية

هذه القاعدة العسكرية الكبرى التى تحدثنا عنها فى الأجزاء السابقة، و ذكرنا وقائع ما جرى فيها، و المعارك التى دارت على أرضها ... هذه الجزيرة ظلّت على ولائها، و ارتباطها بمصر الفاطمية، فلم يفكر الحكام الذين تعاقبوا على حكمها من أسرة «الكلبيين»-

##PAGE=136##

بالتخلى عن إخلاصهم، و ولائهم للدولة التى ينتمون إليها، أو التنكر لسادتهم الفاطميين أو محاولة نزع سلطتهم. و فى هذا دليل على الإخلاص، و التربية، و المبادىء الأخلاقية التى اشتهرت بها هذه الأسرة العريقة.

##PAGE=137##

الاضطرابات الداخلية

لم يستطع الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه أن يضبط أمور دولته الفاطمية العامة، أو يهدىء النفوس الشريرة التى استيقظت بعد وفاة الإمام الحاكم بأمر اللّه، فهذه النفوس تجندت للعبث بالأمن، و الاستقرار، و تعكير الأجواء، و الإساءة إلى المجتمع، و الدولة ... و كان هذا النشاط الإرهابى التخريبى الذى ظهر فجأة بتخطيط، و تبنى عصابات اتخذت لنفسها مهمة تنفيذ الإجرام و الفساد، و إشاعة الخوف، و الفوضى. و ازداد نشاط هذه العصابات إثر وفاة الأميرة «ست الملك» التى كانت تمسك بيد من حديد زمام الأمور فى الدولة داخليا، و خارجيا، و جاءت الأيام حاملة معها المآسى، و هبّت الرياح العاصفة، فصبّت جام غضبها على مصر. فانخفضت مياه النيل، و تعطلت الزراعة، و أصيبت التجارة بنكسة إثر ذلك، و تعرّض الشعب إلى نقص فى الغذاء و الرزق، و كأن هذه الكوارث ما جاءت إلّا لتضع العراقيل فى وجه الخليفة الشاب الجديد، و تشل مساعيه و تنال من هيبته، مما جعله يقف أمام الأحزان واجما حزينا عاجزا عن أن يفعل شيئا.

افتتح الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه عهده سنة ٤١١ ه بإقامة مأتم لأبيه الإمام الحاكم بأمر اللّه، فجلّل القصور الفاطمية بالسواد، و جاء بالقرّاء و المرثين، و أمر بالندب و البكاء طوال الليل، هذا و مما يجب أن يذكر أنه بعد التولية التى حدثت فى أول يوم من عيد الأضحى، خرج لصلاة العيد، و على رأسه المظلة، فصلّى فى الناس، و عاد فكتب للعمال، و الولاة فى الأقاليم الخاضعة للدولة يذكرهم بتوليته الخلافة، و عكف من جهة أخرى على دراسة المراسيم، و القرارات التى طبقها والده، فألغى

العديد منها كما ذكرنا، و أخذ بتطبيق سياسة التسامح الفاطمية التى سار عليها الخليفة الإمام المعز لدين اللّه، و الإمام العزيز باللّه من بعده.

و نعود إلى الحالة الداخلية فى مصر فى تلك الفترة، لنشير بأنه سنة ۴۱۵ ه، ارتفعت أسعار الحاجيات الضرورية، و أصبحت المواد الغذائية مفقودة، و أسعارها لا تطاق ... كما تعذر وجود الخبز.

##PAGE=138##

و مما تجدر الإشارة إليه .. أن الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه عيّن خادمه الأسود «معضاد» قائدا أعلى لجيوش الدولة، و لقّبه ب «عز الدولة» و «أبو الفوارس» و «معضاد الظاهر».

و من تدابيره .. أنه منع الناس من ذبح الأبقار السليمة لندرتها، و قد ذكر أن الرأس منها بيع بخمسين دينارا، و كثر الخوف فى ظاهر المدينة، و انتشرت الفوضى و الاضطرابات، و جرت مداولات بين الوزراء، و المسؤولين لمصادرة أموال التجار و ممتلكاتهم، و دبّ الاختلاف بينهم، و تعالى ضجيج الجند من الفقر، و الحاجة، فلم يرد عليهم أحد، و راج سوق الحسد بين زعماء الدولة، و قوى تهافتهم على المناصب، و حياكتهم المكائد لبعضهم البعض. و ما يجب أن يشار إليه أن العميد «محسن» قد قبض عليه، و ضرب عنقه، بعد ثبوت مؤامرته.

و اشتدّ الغلاء، و فشت الأمراض، و برز الموت إلى الأرجاء، يهدد كل الناس، و فقد الحيوان الداجن، فلم يعثر على دجاجة، أو فرخ حمام، و عزّ الماء لقلة وجود الحيوانات التى تنقله. و من مظاهر الفوضى، و اضطراب حبل الأمن أن ركب الحجاج خرج من القاهرة فقطع عليهم الطريق بعد رحيلهم فى بركة «الجبر» الواقعة فى الجهة البحرية من القاهرة، و قد أخذت أموالهم، و قتل الكثير منهم، و عاد من بقى و لم يحج أحد من أهل مصر، و تفاقم الأمر من شدة الغلاء، فقام الناس بمظاهرة صاخبة، و صلوا فيها إلى قصر الخليفة، و كانوا ينادون:

«الجوع ... الجوع ... يا أمير المؤمنين. لم يصنع بنا هذا أبوك، و لا جدك ... فاللّه ... اللّه ... فى أمرنا»، و انتشرت الأمراض، و الأوبئة، و انتشر الموت بين الأطفال لعدم وجود الأقوات، و كثر الخوف من العصابات التى انتشرت فى كل مكان تسرق، و تنهب، و تقتل فى سبيل الكسب، و الدفاع ضد الجوع.

و مما يجب أن يذكر أن الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه، عمل سماطا بمناسبة عيد الأضحى فهجم العبيد على السماط، و هم يصيحون: الجوع ... الجوع ... ثم نهبوا، و التهموا كل ما كان عليه ...

أما الأرياف فقد أصابها موجۀ من الاضطرابات، و النّهب، و تجند

##PAGE=139##

العبيد لنهبها، و سلب كل ما فيها، كما قاموا بأعمال قبيحۀ، و احتاجت الدولۀ إلى الأموال لسد العجز بعد أن فرغت الخزائن من الأموال التى صرفت على شؤون التموين.

و أذاع الخليفۀ الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه، أمرا على الناس يقضى بقتل كل عبد يرونه فى الطريق، كما أنه جنّد فريقا من الجيش لحفظ الأمن، و السهر على راحۀ الأهلين، و لكن العبيد لم يهدأوا أو يستكينوا. فاستعدوا للقتال، و حفروا الخنادق، و رابطوا فى الدروب، و الأزقۀ، و الشوارع. فخرج إليهم قائد الجيش «معضاد» فى عسكر فطردهم، و قبض على الكثير منهم، كما ضرب أعناق بعضهم، و قد عزا العبيد كل هذه التدابير إلى الوزير «الجرجرائى»، و غيره من الوزراء، و المسؤولين الكبار فى الدولۀ، فهددوهم بالقتل مما حمل المسؤولين على طلب المزيد من الحراسۀ، كما امتنع بعضهم فى منازلهم. و فى هذا العام هاجمت عساكر «ابن الجراح» منطقۀ «الفرما». ففرّ أهلها إلى القاهرۀ.

و فى سنۀ ۴۱۷ ه. انتشر بمصر مرض يسمّى «الرعاف» أى سيلان الدم من الأنف، فلم يستطع أحد أن يجد له علاجا. كما لم تعرف أسبابه؟، و سقط الخليفۀ الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه عن فرسه، و لكنه لم يصب بأذى. فتصدق على الفقراء بمئۀ ألف دينار، و فى ذلک الوقت أيضا أمر الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه بطرد فقهاء «المالكيۀ» من مصر، بعد أن ازداد نشاطهم، و أخذوا يتصدون فى المساجد للمذهب الإسماعيلى، و فى الوقت نفسه أمر الخليفۀ الناس أن يحفظوا كتاب «دعائم الإسلام» للقاضى النعمان بن حيون التميمى، و هو كتاب يمثل الفقه الفاطمى، و كتاب «مختصر الوزير» للوزير «يعقوب بن كلّس»، كما جعل مكافآت لمن يحفظها جيدا عن ظهر قلب.

و من الأحداث العظيمۀ التى وقعت فى عهده التوقيع على معاهدۀ صداقۀ و هدنۀ مع امبراطور الروم «قسطنطين» الثامن و ذلک سنۀ ۴۱۸ ه. و يدخل فى نطاق هذه المعاهدۀ، إعادۀ الخطبۀ فى جامع القسطنطينيۀ و المساجد الواقعۀ داخل حدود الدولۀ البيزنطيۀ إلى ما كانت عليه حيث أرسل الخليفۀ إليه. بعد ذلک من مصر إماما،

##PAGE=140##

و مؤذنا، و بالمقابل سمح الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه للروم بفتح أبواب كنيسۀ القيامۀ بالقدس، و ممارسۀ الصلوات فيها.

و فى سنة ۴۱۸ ه. وقعت فتنة كبرى بين المغاربة و الأتراك، قتل فيها خلق كثير من الفريقين، فاضطربت أحوال القاهرة، و مصر من جراء ذلك، و لم يستطع الجيش أن يطفىء النار أو يقضى على الفتنة، أو يعيد الأمن إلى نصابه، إلا بعد فترة طويلة.

و فى سنة ۴۲۰ ه. ولد للإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه من زوجته السوداء ولده البكر فسمّاه «معدّ». و أقيمت الاحتفالات و المواكب فى جميع أنحاء البلاد، و وزعت الهدايا على الناس، و الأموال على الفقراء، و المحتاجين. و مما تجدر الإشارة إليه، أنه لم يمض على ولادته سوى ثمانية أشهر حتى بويع بولاية العهد، و قد أنفق الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه على تلك المباهج ما يجلّ عن الوصف.

و يعود الغلاء و النقص فى المواد من جديد، أى بعد مضى عامين، كما أخذت مياه النيل بالنقصان، مما أعاد إلى الأذهان ذكريات السنين العجاف التى أشاعت الرعب، و الموت، و المرض فى مصر.

و فى سنة ۴۲۳ ه. قتل الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه أحد زعماء فرقة الغلاة الفرس، و كان يقيم فى القاهرة. فثار أتباعه لمقتله، و قاموا بما يشبه الثورة، و كادت تقع فتنة كبرى عند ما انتصر له بعض الأتباع الذين كانوا يعيشون، و يمارسون عقائدهم، و طقوسهم بصورة سرية، و لكن الخليفة سيطر على الموقف. و تمكن بعد عدة معارك و مداهمات من القبض على عدد كبير منهم، و إبعادهم إلى خارج البلاد.

و فى سنة ۴۲۳ ه. أيضا .. أركب الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه ولده و ولى عهده «المستنصر باللّه» على فرس من القاهرة إلى مصر.

فزينت الطرقات، و البنايات، و اصطفّ الناس على الجانبين يقبلون الأرض .. و كان والده الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه قريبا منه ينثر الأموال على الناس، و هكذا الطفل المستنصر باللّه .. و يذكر التاريخ أن مصر لم تشهد مثل هذا اليوم.

##PAGE=141##

و فى سنة ۴۲۵ ه. أرسل الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه دعاته إلى بغداد، و فارس، و الأندلس. فاستجاب لهم خلق كثير. و من الجدير بالذكر أن الأوبئة، و الأمراض و الآفات السماوية عادت فى هذا العام لتفتك بالناس.

و فى سنة ۴۲۷ ه. مات الخليفة السابع الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه فجأة و كانت مدة خلافته خمسة عشر عاما و ثمانية أشهر.

##PAGE=142##

لا نستطيع أن نغض الطرف، أو نتناسى، و نحن نكتب تاريخ الإسماعيليين، عن نشاط الدعاة فى عهد الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه، و خاصة فى العراق و فارس، و كل هذا يتصل اتصالا مباشرا بموضوعنا، و يشكل ناحية مهمة فى هذا التاريخ.

و كما ذكرنا فإن الدعوة الإسماعيلية ازدهرت ازدهارا منقطع النظير فى المشرق، و خاصة فى فارس، و العراق، و بلاد الشام فى عهد «الإمام الحاكم بأمر اللّه» و ابنه الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه، و عند ما نسجل على صفحات هذه الموسوعة اسم الفيلسوف الإسماعيلى «أحمد حميد الدين الكرمانى» صاحب العقلية الفلسفية المتفوقة فى القرن الرابع للهجرة- و كنا ذكرنا مختصرا عن تاريخ حياته، و مؤلفاته، و وفوده على مصر بأمر من الخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه، عند ما راج سوق الإلحاد، و الشرك، و المغالاة- عند ما نذكر الكرمانى نرى من واجبنا أن نذكر بعده داعى الدعاة «المؤيد فى الدين» هبة اللّه الشيرازى المعروف بمناظرته، و صداقته لأبى العلاء المعرى، و هذا الداهية الكبير، و الأديب العلامة سوف نفرد له فصلا خاصا فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

و بالرغم من ذلك لا بد من القول: إن والده «موسى بن داؤد» كان داعى الفاطميين فى إقليم فارس، و إنه كان على جانب كبير من عزة النفس، و المكانة بين مواطنيه، حتى أن الوزير «الواسطى» كان يزوره فى منزله دون أن يزور الوزير فى داره، أو فى مقر وزارته. و من الواضح ... أن المؤيد فى الدين أخذ عن والده علوم الدعوة، و هكذا شقيقه الثانى، و أن الوالد كان يهىء ولده البكر لهذا المنصب من بعده، و قد ذكر التاريخ أن الداعى «موسى» أرسل إلى الحاكم بأمر اللّه كتابا يطلب فيه تعيين أحد أولاده فى منصبه، فجاء جواب الخليفة كما يلى:

«و أما فتياك، و ما ذكرت أنك تورثها لهما، فذلك على ما يروم الإمام فى وقته، و حينه ... الأيام تعد يا موسى ... و الأنفاس تحصى، و الرد إلى اللّه تعالى، و إلى

ولىّ أحق و أحرى، و لا تقولنّ لشى ء إنى فاعل ذلك غدا إلّا أن يشاء اللّه ...

و اذكر ربك إذ نسيت، و قل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا».

و ذكرت بعض المصادر الإسماعيلية: أن المؤيد فى الدين أصبح داعيا فى فارس، و أنه تدرّج فى مراتب الدعوة حتى صار حجة فارس، و بعد وفوده إلى مصر صار داعيا للدعاة.

و لا بدّ من القول إن الدعوة الفاطمية ازدهرت فى المشرق ازدهارا كليا بفضل جهود هؤلاء الدعاة، لدرجة أن الناس كانوا يتسابقون إلى الانتساب للدعوة الفاطمية و الانضواء تحت لواء هؤلاء الدعاة المثقفين المتفوقين فى كل علم و فن. فهذه العقيدة التى تقوم على أسس تنزيلية و تأويلية اجتذبت العديد من المستجيبين و العلماء فى العالم الإسلامى، فعملوا على اعتناق مبادئها بالرغم من أن دراستها شاقة.

و الاضطلاع بها مسؤولية كبرى تتطلب التضحية فمن الواضح أنها تقوم على أسس قديمة من المعرفة، و على دعائم ثابتة من البيان المحجوب عن العامة. و على العموم فهى ارتفاع من حضيض الجهل إلى ذرى الاستبصار، و نفاذ إلى قلب الحقيقة البعيدة المنال، و استخلاص الحقائق من براثن الباطل، و الوقوف على الينبوع العذب، و التفيؤ فى ظل المعرفة، و اليقين العقلى القاطع المعد لجلاء النفوس.

##PAGE=145##

الاسماعيلية فى اليمن

##PAGE=147##

طلائع الدعوة

فى الأجزاء السابقة من هذه الموسوعة ذكرنا ما فيه الكفاية عن الحركة الإسماعيلية فى اليمن، و كان موضوع البحث يتركز على الداعيين «منصور اليمن» و «على بن الفضل» و فصّلنا كيف انتهت فتوحاتهما أخيرا، بعد أن اختلفا، و بعد أن تحاربا حتى أصبحا فى عداد الأموات، و بعد ذلك تحولت الدعوة الإسماعيلية فى اليمن إلى دعوة سرية ضعيفة، و كان قد تعاقب على رئاستها تسعة من الدعاة بعد منصور اليمن، و على بن الفضل، و هؤلاء الدعاة كما ذكرنا عاشوا فى سرية مطلقة، و من الواضح أن تاريخ هذه الفترة غامض جدا كما يتضح من مجريات الأحوال، و الوقائع اليمنية ... و لا بد من القول إن الفترة الآنفة الذكر امتدّت من عهد عبد اللّه المهدى الخليفة الفاطمى الأول حتى عهد الإمام السابع الظاهر لإعزاز دين اللّه ... و هذه هى أسماؤهم مع موجز عن حياتهم.

١- عبد اللّه بن عباس الشاورى: تمرّن على يد «منصور اليمن».

قدم على الخليفة الفاطمى الأول- عبد اللّه المهدى فى القيروان. قتله «الحسين بن منصور اليمن» سنة ٣٣٦ ه. و ذلك فى عهد الخليفة الفاطمى الثالث الإمام المنصور باللّه.

۲- یوسف بن موسی بن أبی طفیل: تولّی رئاسة الدعوة فی عهد الخلیفة الفاطمی الرابع الإمام المعز لدین اللّه ... قتله إبراهیم بن عبد الحمید السباعی.

۳- جعفر بن أحمد بن عباس: ذکر ... إنه ابن أخی عبد اللّه بن عباس الشاوری ... الذی ورد ذکره.

##PAGE=148##

۴- عبد اللّه بن محمد بن بشر: کان داعیا فی عهد الخلیفة الفاطمی الخامس الإمام العزیز باللّه، و هو من وادی «قطابة من قدم».

۵- هرون بن محمد بن رحیم: کان داعیا فی الیمن للإسماعیلیة فی عهد الخلیفة الفاطمی السادس الإمام الحاکم بأمر اللّه، و قد أرسل إلیه سجلا سنة ۳۹۱ ه. و ربما یکون قد عاصر الخلفاء الثلاثة المعز لدین اللّه، و العزیز باللّه، و الحاکم بأمر اللّه.

۶- یوسف بن أحمد بن الأشج: هو من أهل «شبام حمیر» عاصر الخلیفة الإمام الحاکم بأمر اللّه، و کان مسؤولا عن الیمن بعد هرون.

۷- سلیمان بن عبد اللّه بن عامر الزواحی: هو من ضلع «شبام حمیر» کان نشیطا، و مسؤولا عن الدعوة الإسماعیلیة فی الیمن فی عهد الخلیفتین الإمامین: الحاکم بأمر اللّه، و الظاهر لإعزاز دین اللّه، و قیل إنه أدرک الخلیفة الفاطمی الثامن الإمام المستنصر باللّه ... و کان مقره حصن «کوکبان».

و مهما یکن من أمر ... فإن هؤلاء الدعاة الثمانیة، قاموا بأعمال، و نشاط فی القصر الیمنی فی عهد أطلق علیه المؤرخون اسم عهد الشدائد و المحن، و فقدان المصادر، و الأخبار ... و لا بد من القول:

بأنهم کانوا یعملون بصمت و هدوء، و قد ساعد علی نجاحهم طبیعة بلاد الیمن الجبلیة الوعرة، و اتخاذهم الحصون المنیفة، و الجبال الشاهقة وسیلة للتستر، و الابتعاد عن الأعداء، و مکامن الأخطار، و قد ظلوا علی هذا الحال حتی ظهور الداعی الثامن «علی بن محمد الصلیحی» رأس الأسرة الصلیحیة الحاکمة. و من الواضح أن عهده بدأ فی زمن الخلیفة الإمام الظاهر لإعزاز دین اللّه، ثم عاصر الخلیفة الإمام المستنصر باللّه.

##PAGE=149##

الاسرة الصلیحیة

كما سنذكر فى الصفحات التالية، و التى ستكون تكرارا لما جاء فى كتابنا عن الملكة أروى، لسببين: أولهما هو أننا ما زلنا نقف عند النتائج التى توصلنا إليها فى بحثنا ذاك و ثانيهما هو معرفتنا بأن الكتاب المذكور و قد طبع فى مصر منذ عقدين من الزمان، صار فى حكم المفقود و ليس من السهل الحصول عليه:

كانت اليمن فى القرنين الرابع، و الخامس الهجريين فى حالة من التدهور و التفكك، ففى خلال تلك المدة استولى «الموالى» على الأقاليم اليمنية، و استبدوا بالحكم، و عاثوا فسادا، و ظلما، و بالرغم من أن «الحسين بن سلامة» تمكن فى مدة ولايته من الحفاظ على دولة «بنى زياد» فإن استبداد «الموالى الحبشيين» بالحكم مكّنهم من تأسيس الدولة «النجاحية» فى زبيد سنة ۴۱۲ ه على أنقاض دولة «بنى زياد» فكانت لهم «تهامة» و «زبيد» و كان استيلاؤهم على تلك الأمكنة من الأسباب التى حفزت العرب إلى الانتفاض، و عدم الخضوع لدولة الأحباش، فكان من جراء ذلك أن تقطعت أوصال البلاد بعد موت «الحسين بن سلامة» و أصبحت كل منطقة تخضع لنفوذ أمير من الأمراء، و عمّت الفوضى المناطق، و أعلن العصيان فى القلاع و الحصون، و الاستقلال فى المناطق، و الأقاليم. فكان «مخلاف جعفر» يضم: جبلة و أب، و العدين، و المذيخرة، و ذى سفال.

و «مخلاف المعافر» و يضم: تعز، وجبا، و غيرهما.

و «مخلاف الجند، و حصن السمدان» لآل الكرندى، و كانت لهما، مكارم، و مغافر، و سلطنة ظاهرة.

أما «عدن» و «أبين» و «لحج» و «حضرموت» و «الشحر» فقد استولى عليها بنو معن سنة ۴۱۲ ه. و تغلّب أسعد بن وائل على «مخلاف و حاظه»، و من مدنه: شاطح ... و امتلك بنو عبد الواحد «مخلاف يربوع» و أهم مدنه: الغمد، و برع، و حصن مسّار. و استولى بنو أصبح على حصون حب، و الشحر، و السحول. ثم استولى على حصن و صاب، و مخاليفها قوم من قبيلة بكيل ثم من همذان.

##PAGE=150##

من هذا ... نرى أن اليمن لم تكن فيها وحدة سياسية تجمع شملها تحت لواء واحد، بل كانت إمارات صغيرة متفرقة القوى فيها يأكل الضعيف. أو بلغة أصح قل: إن السلطة كانت موزعة بين الأمراء، و الزعماء، و المتباغضين المتنافرين، و جميعهم لم يكن يربطهم ببغداد إلّا رباط إقامة الخطبة للخليفة العباسى، و ضرب السكة باسمه، و إعلان الولاء له، و لو بالظاهر.

هذا ... و من الجدير بالذكر ... أنه من سنة ۴۰۵ ه إلى سنة ۴۴۸ ه. عمّ الخراب صنعاء و غيرها من مدن و بلدان اليمن بسبب الخلافات، و النزاع، و الظلم، و فساد الأحوال، و توالى على العاصمة صنعاء الدمار، و قلّ الخير، و ضعفت المدينة حتى قيل إن دورها أصبحت ألفا بعد أن كانت مائة ألف.

على بن محمد الصليحى

فى هذا الجو المكفهر الحالک المضطرب، و فى تلک الأحوال السياسية المتقلبة ظهر على مسرح اليمن «على بن محمد الصليحى» رأس الأسرة الصليحية التى تنتسب إلى قبيلة «الإصلاح» من بلاد «حراز»، و كان على كما وصفه ابن الجوزى فى كتابه مرآة الزمان:

«شابا أشقر اللحية، أزرق العينين، و ليس فى اليمن فى ذلک الوقت من يماثله فى ذلک».

و كان والده «القاضى» محمد الصليحى مسلما سنيا شافعى المذهب، حسن السيرة، مطاعا فى أهله و جماعته ... لا يخرجون عن أمره، و لا يعصون قوله

أما المؤرخ «عمارة اليمنى» فقال:

كان أهل حراز أربعين ألفا يدينون له بالطاعة. نشأ على نشأة طيبة فى بيئة عربية عريقة لها تقاليدها فى الأخلاق الفاضلة، و العادات الطيبة السمحة، و قد أورد عماره اليمنى فى تاريخه: أنه قد ظهرت عليه علامات النجابة، و دلائل الفضل، و العزّة، و طموح النفس، و يروى أنه قام يحج بالناس على طريق «السراة»، و الطائف خمسة عشر عاما، و كان الناس فى أول ظهوره يقولون له: «قد بلغنا أنک ستملک اليمن بأسره، و يكون لک شأن و دولة».

##PAGE=151##

إن أولى فتوحات على الصليحى كانت استيلاءه على بلدة «زبيد»، و فى تلک الفترة أحب الأمير الشاب ابنة عمه السيدة الحرة «أسماء بنت شهاب» الصليحية. و قد أورد المؤرخ عمارة اليمنى فى تاريخه قصة زواجها. فقال:

«كان على باب زبيد من داخل السور دار لرجل حبشى يقال له: فرج السحرتى» و كان من أهل الفضل، و الأخلاق الرفيعة، و الصدقات، و المعروف. فخرج ذات ليلة، و مرّ برجل يقرأ القرآن فسأله عن العشاء ...

فأنشد قول الشاعر المتنبىء:

من علّم الأسود المخصىّ مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصّيد

فأخذه الحبشى، و طلع به إلى أعلى مكان فى داره، و أكرم مثواه، و استخبره عن سبب قدومه إلى تهامة فقال له: على الصليحى:

إنّ لى عما يقال له «شهاب» و له ابنة يقال لها «أسماء» قليلة النظير فى الجمال، معدومة المثل فى العقل و الأدب، و قد خطبتها إليه، فاشتطّ على فى مهرها ... و أمها كانت تقول:

لا نزوجها إلّا بعض ملوك همذان بصنعاء، أو أمراء بنى الكرندى «بمخلاف جعفر» و قد استاموا علىّ من المال مبلغا لا قدرة لى عليه، و أنا متوجه إما إلى «بنى معن» فى عدن و إما إلى «بنى الكرندى».

و يزيد المؤرخ عمارة على قوله:

إن السحرتى دفع له مالا جزيلا أضعاف ما أدّى، و جهّز العروسين بجهاز يحتفل به الملوك لعقائلهم، و عاد إلى عمه حيث زوّجه «أسماء».

و ذكر «الأزدى» فى كتابه «الدول المتقطعة» قوله:

«و كانت أسماء من أعيان النساء، و كان الصليحى يثق بها ثقة عمياء، لكمالها، و قد كان يوكل إليها أمر تدبير الدولة، و لم يخالفها فى أغلب أمورها، و يجلها إجلالا عظيما و كانت إذا حضرت مجلسا لا تستر وجهها عن الحاضرين، و فوق كل هذا كانت من حرائر النساء ... و زاد على قوله:

و كانت من الكرم، و السؤدد ... تمنح الجوائز السنية الجزيلة للشعراء، و الصلات الواسعة فى سبيل اللّه تعالى، و فى سبيل الخير و المروءة بحيث يمدح أولادها و أخوتها و بنى عمها بمفاخرها».

و نعود إلى ما قبل هذا. فنقول:

لما انتقلت رئاسة الدعوة الفاطمية فى اليمن إلى «سليمان بن عبد اللّه الزواحى» شرع يلاطف، و يجالس القاضى «محمد الصليحى» والد

«على» فكان يكثر من التردد عليه بالنظر لرئاسته، و سؤدده، و صلاحه. و علمه، و كان كلما ذهب إليه يرى ولده «عليا» فيشاهد على محياه دلائل النجابة، و الذكاء، و الشجاعة. ففرس فيه، و هو دون البلوغ التعاليم الإسماعيلية، و ما زال حتى استماله، و جعل فى فكره العلوم، و الآداب، و التفانى فى سبيل المبادىء الفاطمية.

و لما اطمأن «الزواحى» إلى رسوخ تعاليمه فى فكر تلميذه على أوصى له بخلافته، و استحصل على موافقة الخليفة الإمام «الظاهر لإعزاز دين اللّه» و بهذا تمكن من إحراز أكبر انتصار عند ما استطاع أن يضم إلى صفوف دعوته الإسماعيلية شابا من خيرة شباب اليمن رجولة، و غيرة، و علما، و حسبا.

أجل تمكن الداعى الإسماعيلى «سليمان الزواحى» بما أوتى من قدرة، و لباقة، و سعة علم، و طلاوة فى الحديث من استقطاب «على الصليحى»، و إقناعه بضرورة الانتساب إلى الدعوة الفاطمية، و لم يلاق صعوبة فى ذلك، لأن عليا، و منذ المرة الأولى أبدى رغبة صادقة- و أظهر نية حسنة، و استهوته المبادىء التى اعتنقها أستاذه، و بذل كل شىء فى سبيل دراسة هذه المبادىء، و التفوق فى فهمها. أما سليمان فقد أوصى له بمبلغ كبير من المال إضافة إلى الوكالة العامة التى تعطيه صلاحية الاستمرار، و البقاء فى رئاسة الدعوة.

و يقول المؤرخ عمارة اليمنى:

«فأصبح على الصليحى عالما فقيها فى الفلسفة، مستبصرا فى علم التأويل، و قد أدّت معارفه إلى أن ينهج نهجا جديدا، و أن يسلك طريقا يختلف عن طرق من سبقه من الدعاة الذين تولوا شؤون الدعوة فى اليمن ... و هكذا اتخذ بادىء ذى بدء ميدان الحج حقلا لغرس مبادئه، و تنميتها، و صار يحج بالناس عن طريق «السراة و الطائف» نحوا من خمس عشرة سنة فسار ذكره فى البلاد على لسان الخاصة، و العامة».

و مما يجب أن يذكر: أن هذه المدة الطويلة التى مرّت بين موت «الزواحى» إلى حين قيام «الصليحى» بثورته فى «مسار» تقرب من الخمسة عشر عاما، و على الأرجح أنها كانت كافية لصقل «على» و إنماء معارفه، و تجاربه، و تكوين جماعة تدين له بالطاعة، و الاحترام، و الإخلاص.

و لما كان الدين هو جامعتهم الكبرى، و من أكبر أسباب سعادتهم، تمسك الصليحى بالعقيدة الإسماعيلية الإسلامية، و بالمثل العليا. فلم يكن يصارح أحدا إلّا من يثق بإخلاصه، و بعد مروره فى فترة اختبار، و لم يجعل مبادىء دعوته وقفا على الأمراء، و عليّة القوم و أصحاب المصالح. لأنه كان يعلم تمام العلم أن هؤلاء سيعلنون الحرب عليه.

بل وجّه اهتمامه إلى العامة، و المتحمسين للدين و للسواد الأعظم من الرعية الذين منهم تجبى الأموال. و منهم يتألف الجيش، فنفذ إلى صفوفهم، و كسب ثقتهم. و جذب قلوبهم، و غرس فى صدورهم الدين ...

الدين وحده ... فليس يسيطر على العقول فى تلك العصور سوى الدين ... و إذا اجتمعت السياسة، و الدين تحت وسائط السلطة، و خاصة فى مجتمع عرف عن عامة أهله شدة تمسكهم بأهداب الدين، و محافظتهم على التراث القديم.

أجل ... عرف «على الصليحى» هذا كله، و عرف أيضا أنه لا بد له من التطلع إلى آماله، من زاوية خاصة، فدأب على تحقيق طموحه بصبر، و تؤدة، و هو يعلم أن هذه الخطة كفيلة بنجاحه، و تحقيق أغراضه، و جاء موسم الحج فى سنة ۴۳۸ ه. فكان بمثابة عهد جديد فى إنجاح حركة الصليحى حيث بايعه ستون رجلا من قبيلة همذان، و عاهدوه على الطاعة و الموت، و علم كل واحد منهم أنه جندى يبيع نفسه بيع السماح عند ما تأزف الساعة الرهيبة، و تتضافر القوى على نصرة الدعوة بالأنفس و الأموال. و يعتبر كل هذا نصرا أكيدا للدعوة الإسماعيلية، و خاصة إذا عرفنا أن هؤلاء الذين بايعوه إنما كانوا فى عزة، و منعة من قبائلهم، و كل هذا لا يتعارض مع ما ذكرنا، من اعتماد الصليحى على فئة العامة، خاصة و أن أكثريتهم من قبيلة همذان، هذه القبيلة القوية العزيزة الجانب التى بلغت شأوا بعيدا فى اليمن، و هابتها جميع القبائل، و حسبت لها، و قد كان هذا الانضمام عاملا كبيرا كبيرا، و مشجعا لمن كان مترددا من المستجيبين، و باعثا للكثير من القبائل الأخرى على الانضواء تحت لواء الدعوة الفاطمية.

و بعد أن وصل على الصليحى إلى هذه النتيجة.

تمكن من تكوين جماعة مخلصة، و إن تكن قليلة العدد، فإنها

أصبحت فيما بعد نواة لقوة كبيرة. فكان أول عمل قام به هو استيلاؤه على حصن «مسّار» و تعميره، و جعله مركزا لدعوته، و قاعدة لحروبه، و لكن هذا المشروع كان يقتضى الحيطة و الاستعداد، و لهذا أخذ يعد عدة الثورة، و يهيء لها السلاح، و الرجال، و ساعدته الظروف إلى حد كبير، فتمكن من تكوين جيشه من بطون «همذان» الذين اقتنعوا بصدق الوعد الذى بشروا به، و

استقرّ فى قلوبهم أن مواجهة الصعاب تقتضى الشجاعة، و الإقدام، و الإيمان باللّه، و بطاعة الخليفة «المستنصر باللّه» الذى ما فتىء يعدهم بالنصر الأكيد.

و بذل الصليحى، و أصحابه جهدا كبيرا فى سبيل جمع الكلمة، و توحيد الهدف، فتمكن بفضل ما أوتيه من القوة، و الذكاء، من التغلب على كل ما اعترضه: و جعل أتباعه يعتقدون أنهم إنما يحاربون إعلاء لكلمة اللّه، و ليس لأمر من أمور الدنيا. فكتب له التوفيق، و كان فى الوقت نفسه على اتصال بخليفة مصر الفاطمى الثامن الإمام المستنصر باللّه يطلعه على كل شاردة، و واردة، و يأخذ برأى المخلصين من أعوانه، و يعاهدهم على الوفاء بتطبيق سنن العدالة، و فى هذه الفترة الأولى من عمر دولته تمكن من عقد اتفاق مع الهمذانيين يقضى بأن يصلوا إليه فى يوم معلوم.

و عند ما شاع الخبر فى أرجاء اليمن بأن على الصليحى يستعد للثورة و القتال، و بأنه ينتظر وصول مساعدات، و توجيهات من الخليفة الفاطمى فى مصر الإمام «المستنصر باللّه» ازدادت نقمة الأعداء عليه، و على اتباعه، فهبّ «ابن جهور» صاحب «لهاب فى حواز» على أتباع على المقيمين فى ناحيته، فأصلاهم نارا، و أسر القاضى الفاطمى «لمك ابن مالك»، و عددا كبيرا من قومه ... فضاق الأمر على الصليحى، و كتب إلى الإمام المستنصر باللّه يطلب إليه الموافقة على القتال، و نشر الدعوة، و كان يعتقد أنه لا يمكن أن يعارض الفكرة بحال من الأحوال و لا سيما، و أن الدعوة لا بد لها من تضحية و بذل دماء، و عند ما وافته الموافقة أرسل إلى أتباعه أينما كانوا فى اليمن يحثهم على القدوم إليه، و أخذ من جهة ثانية يبتاع العدة، و العدد. فخفّ لمقابلته كبار رجال الدولة، من نواحى «حراز» خاصة، جاؤوا ليشاركوا فى المعركة، كما وافاه آخرون من أراضى «يام» من همذان، و نواحى صنعاء، و بقاع حمير. و بعد أن تمّ حضورهم أطلعهم على

خطته، و أخبرهم بعزمه على احتلال حصن مسار، و ما يجاوره، و تدفقت فى هذه الأثناء الأموال و المساعدات.

فلما تمّت الاستعدادات و التجهيزات أرسل أربعين رجلا من «هوازن» و أمرهم أن يسيروا إلى «مسار» و أن يلزموا ذروة الجبل، ثم يولوا وجوههم بعد ذلك شطر «صعفان» بعد أن علم أن أهل مسار قد تأهبوا لقتاله و حصّنوه من كل جهة، و قد علم الصليحى ذلك عن طريق بعض أعوانه الذين تسللوا إلى قمة «مسار»، و وقفوا على استعدادات الأعداء ... و هنا رسم خطته فداهم الجبل المنيع، و استولى على قمته، و هى من أهم المواقع الحربية فى اليمن.

و فى سنة ٤٣٩ ه. تقدم فى مسيره، فوصل إلى «عبرى سهام» و هناك طمع أهل مسار فى محاربته، و لكنهم لم يتمكنوا. فاتجهوا إلى قمة الجبل للاعتصام فيها. فوجدوا أهل هوازن قد ملكوها. فاضطروا إلى الهرب، فصعد الصليحى، و اتمّ احتلال

الجبل، و نشر الأعلام الفاطمية فى كل مكان، دون أن يواجه أية مقاومة، و لكن لم ينتصف ذلک اليوم حتى أحاط به عشرون ألف محارب من مختلف الجبال، و أنحاء البلاد لقتاله، و قالوا له: «إن نزلت و إلّا قتلناک أنت و من معک بالجوع» فأجابهم بما يدل على حكمته و حنكته، قائلا «لم أفعل هذا إلّا خوفا علينا و عليكم أن يملكه غيرنا، فإن تركتمونى أحرسه و إلّا نزلت إليكم». فانصرفوا عنه.

و فى تلک الأثناء، عادت رسله من مصر بكتاب فيه أوامر الخليفة الإمام «المستنصر باللّه» بإعلان الدولة الفاطمية فى اليمن ... فقرأ الكتاب على أتباعه، و أخذ نفوذه يزداد، و بدأت الأموال و المساعدات ترد إليه من جميع الجهات، و هذا ما جعله يقوم بعمارة مسّار، و يجعل له الدروب إلى البيوت.

و نورد هنا «المنشور» الذى أذاعه على أهالى حراز و ذلک بعد استيلائه على جبل مسّار.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه الذى أورى زناد الحق، و رفع عماد الصدق بالذين أكمل بهم الحجة على الخلق، و أنارهم ما بين الغرب، و الشرق، الهداة إلى الخير، و الأدلة ... الدعاة إلى أشرف المنهاج و الملّة ... خلفاء أنبيائه، و أمنائه،

##PAGE=156##

و أصفيائه، و سلالة رسله من لدن آدم، و وصل نظامهم، و أعلى مقامهم، و فتق بالنور أيامهم، و نشر بالعدل أعلامهم. مرهم أعلام الدين، و الدعاة إلى الحق المبين الشيعة الميامين. و السلالة الطيبين، آل طه و يس و صلاته على من ختم به الرسالة، و فتح بالأئمة من عقبة أبواب الدلالة سيدنا محمد النبى، و على أخيه، و وصيه «على» ... و على الأئمة من نسل الحسين الزكى، ورثة التنزيل، و خزنة التأويل.

و أفضل صلاته، و أنمى تحياته و بركاته على وارث علمهم، و القائم من بعدهم بقية السلف، و خيرة الخلف مولانا «معد» أبى تميم الإمام المستنصر باللّه أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه و على خلفه و سلفه.

أما بعد يا أهل حراز ألهمكم اللّه رشدكم، و جعل الجنة قصدكم. فلم أطلع إلى حصن «مسّار» متجبرا باغيا، و لا متكبرا على العباد عاتيا، و لا أطلب الدنيا و حكامها، و لا طالبا ملک غوغائها، و طغامها. لأن لى بحمد اللّه ورعا يحجزنى عما تطمح

النفوس إليه، و دينا أعتمد عليه، و إنما قيامى بالحق الذى أمر اللّه عز و جل به و العدل الذى أنزله فى محكم كتابه. أحكم فيه بحكم أوليائه، و سنن أنبيائه، و أدعو إلى حجته الذى فى أرضه و القائم بفرضه.

لست من أهل البدع، و لا من ذوى الزور و الشنع الذين يعملون فى الدين بآرائهم، و يحكمون بأهوائهم ... بل أنا متمسک بحبل اللّه المتين ... عامل بما شرع اللّه فى الدين، وداع إلى أمير المؤمنين عليه صلوات رب العالمين.

لا أقول إلّا سددا، و لا أكره فى الدين أحدا. فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، و من ضلّ فإنما يضلّ عليها ... و ما اللّه يريد ظلما للعباد.

و اعلموا يا أهل «حراز» أنى بكم رؤوف، و على جماعتكم عطوف، للذى يجب علىّ من رعايتكم، و حياطتكم، و يلزمنى من عشرتكم، و قرابتكم.

أعرف لذى الحق حقه، و لا أظلم سابقا سبقه، و أنصف المظلوم، و أقمع الظالم الغشوم، و أبث فيكم العدل، و أشملكم بالفضل. فاستديموا ذلک بالشكر، و لا تصغوا إلى قول أهل الكفر، الذين من بقايا أهل الكفر فيحملوكم من ذلک على البغى، و العدوان، و الخلاف، و العصيان، و كفر الأنعام و الإحسان تستوجبوا بذلک تغيير الإنعام و تعجيل الانتقام.

و كتابى هذا حجة عليكم، و معذرة إليكم. و السّلام على من اتبع الهدى، و تجنب أمور الردى.

و الحمد للّه على ما أعاد و أبدى ... و صلواته على من أرشد به من الضلالة و هدى، سيدنا محمد النبى و آله الأئمة الشهداء، و سلّم تسليما. حسبنا اللّه و نعم الوكيل

«على محمد الصليحى»

##PAGE=157##

مما لا ريب فيه أن ازدياد نفوذ الصليحى، و انتشار أمره بهذه السرعة، استفزّ جماعة من زعماء اليمن. فأعلنوا خوفهم من تلک الانتصارات التى يحرزها يوما بعد يوم، و كان أن قام جعفر بن القاسم بن على العيانى صاحب صعدة فى جمع كبير من أصحابه و هاجم حصن الآخروج و قاتل أهله و كان عليه «الحسين بن المهلهل» من أصحاب الصليحى، و جماعة من «حمدان» و «بنى شهاب»، و انتهز هذه الفرصة أيضا «جعفر بن العباس الشاورى» صاحب مغارب اليمن الأعلى. فقام على رأس جيش كبير من «حراز و كرار» و غيرهما، و قصد «عبرى» أسفل جبل «مسّار» و أراد الصعود إليه، فنزل أنصار الصليحى للدفاع عن

بقائهم، و انتصارا لمبادئهم، لأن الانتصار معناه البقاء لدولتهم الفتية، و أما الهزيمة فمعناها الفناء التام، و القضاء المبرم، و لما تكاثر القوم على جيش الصليحى خشى الهزيمة، و ما يترتب عليها من سوء العاقبة. فنزل بنفسه، و من بقى معه من القوى الاحتياطية، و استمدّ من الحرج قوة ... فشدّ بذلک. عزم أتباعه، و حمى و طيس القتال، فربح الجولة.

أما جيش ابن عباس فقد لاذ بالفرار مغلوبا على أمره، و لكنه ما لبث أن عاد ثانية بقوة أكثر عددا، و كان يطمع فى النصر هذه المرة أيضا ... و لكن تدابير الصليحى القتالية، و أساليبه مكنته من السيطرة على الموقف، و قتل ابن عباس، و كثر أتباعه المقاتلون، و قد غنم الصليحى، و أصحابه الكثير من العدة، و السلاح، و الأمتعة، فقوى بذلک مركزه، و ازداد نفوذه، و ارتفعت روحه المعنوية، و خافه من كان يترقب من القبائل نتيجة هذه المعركة، و فى هذه الفترة اضطرّ الشريف «جعفر بن القاسم» عند سماعه بالأنباء، فترک حصن الأخروج، و نجا بنفسه.

و كانت هذه التجربة اختبارا لقوة الصليحيين، و تعاونهم، و تمسكهم بمبادئهم، كما أن شخص الصليحى، و جلال قدره، و حسن بلائه فى تأييد أمره، أسكن النفوس الغضبى. فسار بالأمر قدما، و استدل على «حضور» و أخذ حصن «بتاح» ... و هنا خاف أهل حراز النزال، فقرروا الدخول فى طاعته إلا «ابن جهور» فقد صمّم على الاستمرار فى المكابرة، و اعتصم فى حصن «لهاب»، و لكن الصليحى كلّف القائد الفاطمى «عامر بن سليمان الزواحى» فصعد إلى جبل «شبام»

##PAGE=158##

و «بيت عناد» و معه جماعة من بنى «قليد و هوازن» و «بنى الهجرى» ثم وصل «أحمد بن المظفرّ الصليحى»، و جماعة من الحجازيين و فيهم «عباس بن المكرم» فعمروا دارا فى قمة جبل «شبام» كما عمروا جبل «بيت عناد» استعدادا لمقاومة «ابن جهور»، و بعد أن تحصنوا فى هذه الناحية، اتجه جيش الصليحى إلى محاربة «ابن جهور» و كان فى «لهاب»، بعد أن أقاموا الحصون فى هذه الناحية ... فضيقوا عليه الحصار، و فكّوا أسر جماعة كبيرة من أصحابهم و منهم القاضى «لمک ابن مالک» و لكن ابن جهور استمرّ فى عناده، و تمكن من أن يؤثر على أتباعه، و يقنعهم فى الاستمرار فى المقاومة.

و لما ضعف جيشه، و رأى أن مصيره إلى الهلاک استعان «بنجاح» فى «زبيد» و كانت علاقته مع الصليحى حسنة، فتوسط بالصلح، و لكن وساطته لم تثمر، و تمادى «ابن جهور» فى بغيه، فاضطر الصليحى عندئذ إلى محاصرة حصن «زبّار» حتى سقط، و هنا رضخ ابن جهور و سلّم نفسه إليه مكرها فى مسّار، فأنزله الصليحى فى ضيافته، و أحسن إليه.

و يدل تسامح الصليحى مع عدوه على نبله، و عراقته، و طيب محتدة، فقد كان من المفروض، و المنتظر أن يأمر بقتل ابن جهور الذى تسبّب فى إقلاق راحة الصليحيين مدة من الزمن، حتى أنه استمات فى سبيل الوصول إلى النصر، و تحريض الحانقين، و الناقمين عليهم.

بالرغم من هذا كله، وجد الصليحى أن المعاملة الحسنة أجدى، و أنفع فى مثل هذه المواقف، و آثر أن يكسب ثقة الناس بالمزيد من أعمال الخير، و قد تحققت سياسته تلك، فانقسمت منطقة «لهاب» إلى فريقين: فريق انضمّ للصليحيين، و قدّم المساعدات المالية، و فريق استمرّ فى عداوته، مما جعل الصليحى يرد كيدهم إلى نحورهم، و يجتذب إليه الفريقين أخيرا، و لم يتوقف عند هذا الحد، بل نزل إلى «عبرى دعاس» و عقد مؤتمرا ضمّ أهل حراز جميعهم حذّرهم فيه من الخلاف عليه، و الشقاق، و أعلن قيام الدولة الفاطمية، كما وعدهم بحسن السياسة، و المحافظة على الشرع.

و افتتح الصليحى حكمه على الأسس التى أعلنها، و تقدّم فى تنفيذ

##PAGE=159##

سياسته المرسومة بخطى حازمة سريعة، و كان من ضمنها اتباع سياسة المهادنة إزاء أمراء اليمن، و أصحاب الدويلات المجاورة ...

هذا إذا نفعت السياسة، و إلّا فليس أمامهم إلّا الحرب، و إخضاعهم بالقوة. و لما ملك الصليحى جبال حرّاز، و ما يجاورها.

خشى ملوك تهامة أيضا من بأسه الشديد، و تملكه الحصون، و البلدان، و خاصة حصن «حضور» و ما يجاوره ... و هنا بدأت التقولات، و الإشاعات، و كان لا بد له من مهادنة «أبى حاشد» صاحب صنعاء، كما هادن «يحيى بن إبراهيم الصحارى» أباه من قبل. فلما مات يحيى سنة ۴۴۰ ه. أرسل الصليحى بعض أصحابه، و بنى عمه إلى صنعاء لتعزيته فى أبيه، و الإحسان إليه، و لكن أبا حاشد اعتبر تطلعات الصليحى تدخلا فى أموره، فساءت العلاقة بينهما مما أدى إلى قيام حرب بين الفريقين، و قد انتهت تلك الحرب بمقتل صاحب صنعاء، و استيلاء الصليحى عليها، و بوصوله إلى هذه المرحلة، أقبل الناس على خطب وده، و الانضواء تحت رايته، و الدخول فى طاعته.

كان الإمام الزيدى «الناصر الديلمى بن الحسين بن محمد بن زيد ابن الحسن بن على بن أبى طالب» قد وصل من الديلم إلى اليمن سنة ۴۳۷ ه، و بوصوله أعلن المذهب الزيدى الشيعى. فانضمّت إليه قبائل كثيرة فى صعدة، و منها سار إلى صنعاء و ملكها، فطرده «يحيى ابن أبى حاشد» و «الشريف جعفر بن الإمام منصور العيانى». فعاد إلى «ذى أبين». أما ناصر هذا، فكان

من العلماء الأجلاء، و له تفسير للقرآن فى أربعة مجلدات، و قد اعتبر الناصر استيلاء الصليحى على صنعاء يشكل تهديدا له و لغيره من زعماء اليمن، فكان أن اتصل «بنجاح» صاحب تهامة، و طلب منه إخراج الصليحى من صنعاء، و هذه البادرة التى ظهرت من الناصر كانت مدعاة لغضب الصليحى.

و فى هذا العام ثار الهمدانيون، و هم أكبر القبائل التى دانت للصليحيين، و فكروا فى خلع طاعتهم، و الخروج على حكمهم، على الرغم من أن الصليحى كان يسير فيهم سيرة الحق و العدل ...

فاتصلوا بالشريف «القاسم بن جعفر بن الإمام منصور العيانى» و استنهضوه، و أتباعه فاستجاب لطلبهم، و خرجوا جميعا سنة ۴۴۸ ه. لغزو الصليحى. فتقابل الجمعان بالقرب من قرية

«الهدابة» ببلاد «حاشد». فردهم الصليحى، و حاصر الشريف، و من معه فى أحد الحصون، و نصب عليهم المنجنيق، و لكن أتباع الشريف دافعوا دفاع الأبطال، و مات أكثرهم بسبب نفاد المؤونة ... و عند ذلک اضطر الشريف إلى تسليم نفسه للصليحى، فأكرمه، و خلع عليه، و لم تكن سياسة الصفح التى اتبعها الصليحى فى هذه المرة سياسة هوادة أو تردد، بل قصد منها تسكين الثارات، لأن فى تسكينها إعادة الأمن، و الخير، و السعادة، و الاستقرار لليمن و لليمنيين.

و تمشيا مع هذه السياسة القائمة على المهادنة، و الملاطفة ... كان الصليحى يلاطف القائد نجاحا صاحب الدولة الحبشية فى «زبيد» و «تهامة» التى حملت لواء دعوة أهل السنة فى اليمن بعد دولة «بنى زياد» و لكنه كان يدرک أن دولته الفاطمية الفتية لا يمكن أن تكون لها شخصية معنوية قوية، و كيان متين إلا إذا قضى على أكبر منافسيه و هو «نجاح». و كان الصليحى يلاطفه حتى قوى مركزه، و دانت له معظم الجزيرة اليمنية. ثم بدأت العلاقات تتوتر بين الطرفين بسبب سعايات الإمام الزيدى «أبى الفتح» صاحب «صعدة» الذى أفسد بين الصليحى، و صاحب «زبيد»، فحلّت الوحشة محل الأنس، و انقلبت الصداقة إلى عداوة، فأرسل نجاح جيشا قويا لمحاربة الصليحى، و التقى الفريقان فى خلف «صفعان» فى «الجنة» المتصلة بتهامة، و دارت بينهما معارک طاحنة، و مصادمات عنيفة، و كان الانتصار الأخير للصليحى، و لجيشه المؤلف من العرب على جموع الأحباش.

---

[۳۹] تامر، عارف، تاريخ الاسماعيليه،4جلد، رياض الريس للكتب و النشر – لندن، چاپ: اول،1991 م.

و مهما يكن من أمر ... فإن الأحباش عادوا فاجتمعوا سنة ۴۵۰ ه.

فى «ابن طرف»، و كان جيشهم يتألف من عشرين ألفا، فسار إليهم الصليحى فى الفين و سبعمائة فارس، و هنالک التقى الجمعان «بالزرائب» فدارت الدائرة على الأحباش، و لم يسلم منهم إلا ألف لجأوا إلى جبل يعرف «بالعكوتين» فوق بلدة «الزرائب».

و فى سنة ۴۵۲ ه. مات نجاح «بالكوراء» و يروى: أن الصليحى هو الذى دبّر قتله، على يد جارية حسناء كان قد أهداها إليه فيما مضى لتحقيق هذا الغرض، على أن أكثر المؤرخين يؤكدون: بأن موت

«نجاح» كان طبيعيا، و لكن هذا الموت لم يكن حدا فاصلا بين الطرفين. بل على العكس كان بداية لعهد طويل من النزاع بين الصليحيين، و النجاحيين الأحباش و من الواضح أن «سعيد بن نجاح» تولّى الزعامة على الأحباش بعد والده. أما الصليحى فقد أظهر مرونة، و بعد نظر، و براعة فى السياسة، و ذلک عند ما أجّل أمر النجاحيين، و قرّر أن يقضى أولا على الفوضى الضاربة أطنابها فى دويلات اليمن الأسفل، و بعد ذلک يتجه إلى عدوه الرئيسى، و كل هذا حتى لا تشغله جبهة أخرى فى داخل البلاد، و فى هذا تتجلّى حكمته، و رأيه السديد. فزار «مسّار» و «صنعاء» زيارة قصيرة، ثم قصد بجيوشه اليمن الأسفل، و استولى عنوة على جبل «صبر»، و على بلاد «بنى الكرندى»، و ملوک «المعافر» و حصن- «الدماة» كما استولى على بلاد «الحسين التبعى» صاحب حصن «حب» و «بعدان» و «السحول» و «الشوانى»، و دخل «الجند» و هى يومئذ مدينة اليمن الأولى، و لم يكن فى اليمن أشهر منها، و من مدينة صنعاء، و ذلک منذ عهد الجاهلية حتى عهد الصليحى.

ثم سار إلى «عون» و استولى على بلاد «بنى معن» الذين كانوا يملكون «عون» ثم هادنهم أخيرا، و سلّم إليهم بلادهم، بعد أن بذلوا له السلم، و أعلنوا الخضوع، و الائتمار بأمره، ثم قصد بعد ذلک «تهامة»، و سار إلى «زبيد» و افتتحها، و احتلّ «التهائم» كلها، و طرد منها أولاد «نجاح» الذين فروّا إلى جزيرة «دهلک» فى البحر الأحمر، و استقروا فيها.

و هكذا طوى الصليحى بلاد اليمن طيا، فرضخت لنفوذه، و سلطانه، و افتتح كل ما كان مغلقا فى وجهه، فلم يأت عام سنة ۴۵۴ ه إلّا و قد ملک الأقطار اليمنية، و قلاعها، و حصونها، و مدنها، و سهولها، و جبالها، كافة و امتدّ نفوذه من «مكة» حتى «حضرموت»، و تمنّعت عليه «صعدة» بعض الوقت، و لكنه ما لبث أن احتلّ «القائم» و ملكها، و بذلک تمّت أمور الدولة، و استقرّت كلمة اليمن و توحّدت.

و جعل الصليحى «صنعاء» عاصمة لدولته، و بنى فيها القصور، و أسكن معه جميع ملوک و أمراء اليمن تحت علم واحد، و رأت اليمن بعد قرون طويلة وحدة البلاد فى ظل حكم عادل قوى يقوم على

##PAGE=162##

الحرية، و الحق، و العدالة، و كل هذا كان من برنامج «الملک على الصليحى» الذى أخذ يوطّد دعائم ملكه على هذا الأساس، و يرسى قواعده، و ينظم سياسة البلاد، و إدارتها، و يولى فى المناطق و الحصون من يرتضيه، و يثق به من الولاة، و الحكام، و القواد. فولّى على «تهامة» «الأمير أسعد بن شهاب الصليحى» صنو السيدة الحرة «أسماء بنت شهاب» زوجته ... و هكذا دخل «زبيد» سنة ۴۵۶ ه. و سكن «دار شحار» فأحسن السيرة فى الرعية، و أذن لأهل السنة فى إظهار مذهبهم، كما أمرهم بذلک الصليحى، و عامل أيضا أرباب الدولة النجاحية بالحسنى.

و كان الصليحى قد أقسم ألا يولى «التهائم» إلّا من يزن له مائة ألف دينار، ثم ندم على ذلک، حينما أراد أن يوليها «أسعد بن شهاب» و هنا وزنت له زوجته الملكة أسماء عن أخيها المال المطلوب ... فقال لها:

من أين لک هذا؟

فقالت:

«من عند اللّه ... إن اللّه يرزق من يشاء بغير حساب»، فتبسّم و عرف أنه من خزائنه ... فقال:

هذه بضاعتنا ردّت إلينا و غير أهلنا، و نحفظ أخانا.

و عين الصليحى أيضا ابنه «الأمير المكرّم» على «الجند» و ما يليها ...

كما عيّن أخاه «عبد اللّه» على بلدة «ذى جبلة»، فأخذ يصلحها، و يعمرها.

لم يكن اهتمام الصليحى مقصورا على اليمن فحسب، بل كان ينظر إلى ما وراء حدود بلاده، و بالأخص الحجاز، و هى أقرب البلدان إلى اليمن، و أهمها فى نظر المسلمين، و أحوجها إلى الأمن و الاستقرار، و كان يتفانى فى سبيل الدعوة الفاطمية و الخليفة الإمام المستنصر باللّه، فكان ينفذ أوامره طائعا متبركا برضاه، معتزا بثقته. فلمّا خرجت «مكة» عن طاعة المستنصر باللّه،

و قطعت الخطبة التى كانت باسمه سنة ۴۵۳ ه. أرسل الصليحى إلى واليها «شكر الحسينى» يحذره مغبة خروجه عليه، و تبودلت بين الطرفين مراسلات تنطوى

##PAGE=163##

على الكثير من التهديد، و الوعيد. و لما عيل صبر الصليحى، و ضاق صدره طلب من الخليفة المستنصر باللّه أن يأذن له بإزالة الشريف «شكر» من مكة، فأجابه الإمام المستنصر باللّه بكتاب ينهاه عن سفك الدماء بالحرم الشريف قائلا:

«إياك أن تلقى اللّه بدماء بنى فاطمة»، فأطاع الصليحى أمر الخليفة الإمام المستنصر باللّه مكرها على ما كان يجرى فى البلاد المقدسة. ثم توجه إلى «مكة» أخيرا سنة ۴۵۴ ه، و قضى فريضة الحج و معه أمراء اليمن، و زعماؤها، فانتزعها من «بنى أبى الطيب»، و لما توفى «شكر» خلفه «ابن جعفر» رئيس الهواشم، و تزوج ابنة «شكر»، فشن حربا على السليمانيين، و أخرجهم من بلاد الحجاز، و استقل بإمارة «مكة»، و أقام الخطبة للخليفة الإمام «المستنصر باللّه»، و لكنه لم يعمل على الاحتفاظ بسيادة الفاطميين على مكة، لأنه لم يلبث أن انحرف عنهم، و أمر بذكر اسم الخليفة العباسى «القائم».

و لما انتهى الصليحى من فريضة الحج، أخرج من الأموال، و الصدقات للبيت، و للحرم، و للمناسك ما يفوق حد التصور، و عامل الناس بالحسنى، و أظهر العدل، و الإحسان، و عمل على استمالة الناس إلى جانبه بما امتلك من الأموال، فطابت قلوبهم، و رخصت الأسعار، و أمنت الحجاج أمنا لم يعرف مثله من قبل، حتى إنهم كانوا يعتمرون ليلا و نهارا، و أموالهم محفوظة، و رحالهم محروسة، و لم تقف أعماله هناك عند هذا الحد، بل إنه شنّ حملة تأديب على القبائل الثائرة التى كانت تعتدى على الحجاج، و ردّ «بنى شيبة» عن قبيح أعمالهم، و أفعالهم بالحجاج، و ردّ إلى البيت من الحلى، و الأثاث ما كان «بنو الطيب» الحسينيون قد أخذوه عند ما تملكوا بعد «شكر» و كانوا قد عروا البيت، و الميزاب، ثم أخذ يصلح ما أفسده الأشراف فى هذه البلاد، و تحمّل ديات القتلى من ماله الخاص، فكسب بحسن سياسته، و إدارته رضا الخليفة الإمام المستنصر باللّه، فضلا عن ثقة الكثيرين من البلدان الإسلامية المجاورة، لما قدمه من خدمات للحجاج عامة، و ما قام به من كسوة الكعبة بالديباج الأبيض، و ما جلبه من الأقوات إلى أهالى تلك البلاد ... فلهجت الألسن بالدعاء له فى كل مكان، و الثناء على كرمه، و أفعاله.

##PAGE=164##

أقام الصليحى فى الأراضى المقدسة حتى يوم عاشوراء سنة ۴۵۵ ه. فخطب للخليفة الإمام المستنصر باللّه، و عاب على العباسيين إهمالهم شؤون الدين. و فى أثناء إقامته فى مكة، راسله الأشراف الحسينيون، المغلوبون على أمرهم، و طلبوا منه أن يختار من بينهم واليا عليهم لكى يبذلوا له الطاعة، فأقام على البلدة و اليها السابق «محمد بن جعفر» و أعطاه مالا و سلاحا، و

أصلح بين العساكر. فدلّ بكل هذا على حسن سياسته لأنه لم يتعنّت مع الحسينيين، و لم يظلمهم، و آثر أن يحسن معاملتهم ليكسب ودهم، و خاف أن يترك البلدة قبل أن تستقر الأمور فيها، فتقع فى أيديهم، و يستمرون فى عنادهم، و خلافاتهم، فاستعمل معهم اللين، و بذلک نجح فى تحقيق سياسته مؤقتا، و قفل بعد ذلک عائدا إلى صنعاء.

و من الجدير بالذكر ... أن الشريف «محمد بن جعفر» أمير مكة لم يعمل طوال عهده الذى بدأ من سنة ۴۵۳ ه إلى سنة ۴۸۷ ه. على تنظيم الأمور فى الأراضى المقدسة، و إقرار الأمن بها، بالرغم من المساعدات المالية التى كانت ترد إليه من الخليفة العباسى أحيانا، و من الخليفة الفاطمى أحيانا أخرى، بل أساء التصرف، و السيرة فيها، و أصبح الحجاج فى أواخر أيامه لا يأمنون على أنفسهم، كذلک لم يبد من هذا الشريف ما يشعر برغبته فى الاستقلال عن الخلافة العباسية، أو الفاطمية، بل دان لكل منهما بالطاعة فى فترة متقاربة حتى وصفه «أبو المحاسن» فى كتابه «النجوم الزاهرة».

«بأنه كان متلونا تارة مع الخلفاء العباسيين العراقيين، و تارة مع الفاطميين المصريين، و يظهر من هذا أنه كان يلعب بمصالح البلاد المقدسة، و مصالح المسلمين جريا وراء المال ... و هنالک من يقول: «إن هذا التلون يعود إلى دوافع سياسية، و أخرى اقتصادية».

و بعد عودة الصليحى إلى «صنعاء» شكر له الخليفة الإمام المستنصر باللّه حسن صنيعه، و امتثاله لأوامره بعدم إراقة الدماء فى الأراضى المقدسة، و لكن الشريف «محمد بن جعفر» رجع إلى ما كان يفكر به، و خرج على من أحسن إليه. فهاجم مدينة «الحلى» و استولى على ما فيها من متاع للصليحى، و لم يكتف بذلک، بل عمل على إثارة الفتن، و تهييج العامة، و فى أثناء غيابه عن اليمن أيضا، قامت الفتن،

و الثورات فى بعض أنحاء المملكة. فثار عليه قوم من «عنس و زبيد» و أظهروا الخلاف، و العصيان، و التفوا حول رجل منهم، ثم التجأوا إلى جبل «مثوة» و ما جاوره من الجبال، و عند ما عظم فسادهم ...

قصدهم الصليحى، و اقتحم معاقلهم عنوة حتى دانوا له بالطاعة.

عاد الملک «على الصليحى» للتفكير فى شؤونه الخاصة، و أمور الملک، و منها ولاية العهد، و كان ولده الأكبر «الأمير محمد» قد بلغ مبلغ الرجال. فرغب فى أن يوليه ولاية العهد لينوب عنه فى الملک فى حياته، و بعد مماته. فكتب إلى الخليفة الإمام المستنصر باللّه سنة ۴۵۶ ه.

يخبره بما استقرّ عليه رأيه. فورد إليه سجل الخليفة الإمام المستنصر باللّه بالموافقة، و أعطاه لقب «الأمير الأعز شمس المعالى»، و أذن له أن يعلن هذا اللقب على منابر اليمن، و فى ذلک الوقت توفى «الأمير أسعد بن شهاب» حاكم «زبيد» و ما يتبعها. فرأى الصليحى أن يولى ابنه «الأمير محمد» ما كان عليه خاله أسعد، و أعطاه صلاحية التصرف فى الشؤون العامة لكى يختبره، و يدربه على الحكم.

وصل «الأمير محمد» إلى «زبيد» سنة ۴۵۷ ه. و بعد خمسة أشهر من حكمه سار والده، و والدته، و ولدهما الثانى «المكرّم» سنة ۴۵۸ ه. إلى «زبيد» و أقاموا فى ضيافته مدة قصيرة، و بعدها عزموا على العودة إلى صنعاء. فصحبهم مودعا، و كان يريد أن يبلغ معهم «الغمد»، و لكن عند ما وصل إلى «الصقع» أصابته الحمّى، فأمره والده بالرجوع إلى «زبيد»، و اشتدّ المرض عليه، و لم يمهله القدر فمات سنة ۴۵۸ ه. و كان له من العمر سبع و عشرون سنة. وصل الخبر إلى والده، و هو على وشک الطلوع إلى حصن «مسّار» مع الملكة أسماء و قفل الملک عائدا إلى «زبيد» بجمع من أهله، و أركان دولته حيث قاموا بمراسم دفنه ... و بعد عودته إلى «صنعاء» كان عليه أن يتلقى خبر وفاة ابنته «ميمونة» التى ماتت غما على أخيها ... و قبل أن تصل رسل الصليحى إلى مصر لإعلام الخليفة بالنبأ أرسل إليه سجلا يعزيه بوفاة ولى عهده. و يعين «الأمير المكرم» وليا للعهد ...

فى تلک الفترة أوفد الصليحى إلى القاهرة وفدا مؤلفا من: القاضى عمران بن الفضل، و نجيب بن عفير، و يوسف بن محمد، و عنتر بن

غشم ... يحملون للخليفة رغبة الصليحى بزيارة القاهرة، و التشرف بالمثول بين أيدى الخليفة، و لكن الإمام المستنصر باللّه رفض طلبه.

شفقة عليه من بعد المسافة، و مشقات السفر.

و لعل سبب هذا الرفض يعود إلى أوضاع مصر العامة، و وجودها تحت حالة «الشدة العظمى» التى استمرّت من سنة ۴۵۹ ه إلى سنة ۴۶۶ ه. و هى المدة التى تعرّضت خلالها للفوضى و للخراب، و للفساد و للنهب ... و من الجدير بالذكر أنه خلال تلک الفترة كلّف الخليفة الإمام المستنصر باللّه «بدرا الجمالى» الأرمنى بالوزارة، فتغلب على المصاعب، و أعاد الأمن، و الثقة و الاستقرار.

و فی سنهٔ ۴۵۹ ه غادر الملک «علی الصلیحی» صنعاء قاصدا الدیار المقدسهٔ لأداء فریضهٔ الحج، و ترک لولی عهده «الأمیر المکرّم» إدارهٔ شؤون المملکهٔ بالنیابهٔ عنه، و کان قد أرسل قبل سفره خمسین أمیرا من أمراء الیمن المغلوبین علی أمرهم، و مائهٔ و سبعین من آل الصلیحی، و غیرهم ممن أرادوا أداء فریضهٔ الحج من قبائل «یام» و «جنب» و «سخان» و «أهل حراز»، و قد قصد من إرسالهم قبله تفادی ازدحام الطریق بهذا العدد الکبیر من الرجال، ثم تبعهم بعد أن أرسل قبله ألفی فارس و خمسمائهٔ فرس مطهمهٔ بالسروج، و محلّاهٔ بالذهب، و الفضهٔ، و خمسین هجینا، و غیر ذلک من الهدایا، و العطاء مما لا یمکن إدخاله تحت حصر.

و لکن نار الحقد، و حب الانتقام ظلّت مستعرهٔ فی قلوب «بنی نجاح» و زعیمهم «سعید الأحول». فکانوا یتربصون، و یتحینون الفرص للإیقاع بالصلیحی الذی اعتبروه سبب زوال ملکهم، و علم «الصلیحی» بتحرکات مریبهٔ من قبلهم، فاستقدم إلیه أحد متقدمیهم «فرج البیشتی» و هو من الأحباش العبید المسموعی الکلمهٔ بین بنی قومه، فذکره بإحسانه إلیه، و تقدیمه له، و رفعهٔ مکانته. فأنکر «فرج» أن یکون له: ضلعا فیما یجری، و أقسم الإیمان المغلظهٔ عن استعداده للذهاب، و إحضار رأس سعید الأحول إذا أراد الملک، و لکن الأمر جاء علی العکس، فإن «فرجا» لما وصل إلی زبید أخذ یحرّض العبید، و الأحباش علی الثورهٔ، و یوغر صدورهم، فأمر الصلیحی بإلقاء القبض علیه، و قتله. و هنا ثارت نفوس العبید، و شقوا

عصا الطاعهٔ، و هاجموا ولاهٔ الصلیحیین و قتلوهم و منهم: «أبو السعود» و «أحمد بن أسعد بن شهاب الصلیحی» کما قتلوا کل من کان معهما من أهل «حراز» ثم نهبوا کل ما کانوا یملکونه من أموال، و متاع. و فی الوقت نفسه استدعوا کل من کان علی رأیهم من العبید، و الأحباش، «بتهامهٔ» و الحجاز، و جندوا جنودهم، و کانوا قد علموا أخیرا أن الصلیحی فی طریقه إلی الدیار المقدسهٔ، وحیدا، لا یرافقه أحد من المحاربین، و أهل البأس، فرجاله قد سبقوه إلی الدیار المقدسهٔ، و أن جمیع أمواله، و أثقاله مبثوثهٔ فیما بین «هجر» و «المهجم»، و هذه البلاد قد تمهّد مهادها، و استقام عمادها، و أمنت السبل، و خضع فیها کل عزیز، و لم یکن مع الصلیحی فی «المهجم» إلّا ابنه «الموفق» و زوجته «أسماء بنت شهاب» و أخواه «عبد اللّه» و «إبراهیم» و جماعهٔ من بنی الصلیحی، فلما علم أن الأحباش فی طریقهم لقتاله أنفذ عبیده الذین کانوا معه لمقاتلهٔ العدو المهاجم، و کان ظنه أنهم یقدرون فضله، و إحسانه، و یفدونه بالمهج و الأرواح.

فذهبوا مسرعین، متظاهرین بالحماسهٔ، و فی قلوبهم تکمن الخیانهٔ، و الغدر، فلما التقوا بأبناء جلدتهم انضموا إلیهم، و فی نیتهم الشر، و قالوا للمهاجمین: «إن فاتکم غدا لحق بأصحابه و عسکره، و امتنع علیکم».

فساروا مجدين، حتى باغتوه فى قرية يقال لها «أم الدهيم» فانقضوا عليه، و لم ينفع دفاعه، و دفاع أخوته، و أبناء عمومته ... فوقعوا تحت حراب الكثرة من العبيد، و هكذا قتل الصليحى، و كل من كان معه باستثناء «الأمير الموفق» و «مهنّا بن على المظفر الصليحى» و كانا قد اتجها إلى مكان السيدات لحمايتهن، و لكن العبيد ما لبثوا أن حاصروا المكان ... و استمرّ حصارهم أربعة أيام، و عند ما استأمن مهنا، خرج إليه «الأحول»، و أعطاه ميثاقا بالمحافظة على الحرائر الصليحيات، و أقسم أنه سيطلق سراحهن ليسرن إلى صنعاء، فوثق بقوله، و لكن الأحول نقل النساء إلى دار أخرى، ثم غدر بكافة الرجال، و قتلهم عن آخرهم، و نهب كل ما كان معهم من أموال، و حلى، و هدايا كان الصليحى قد أعدها لينفقها على الحجاج المسلمين، و مرافقيه من الخدم، و العبيد.

و هنا ... سألت الملكة أسماء «سعيدا الأحول» أن يسمح لها و من معها

##PAGE=168##

من النساء بالعودة إلى صنعاء فامتنع، و سار بهن إلى «زبيد» و معه رأسا الملك «على الصليحى» و أخيه «عبد اللّه» محمولان على رمحين أمام هودج الملكة «أسماء» و قد نصب الرمحان فيما بعد أمام الشباك الذى تنظر منه الملكة أسماء فى الدار التى حلّت بها، إلّا أن سعيدا بذل ما استطاع من الجهد فى سبيل المحافظة على صيانة السيدات الصليحيات و كرامتهنّ ... و نحن عند ما نتوقف لنسدل الستار على تاريخ هذا الرجل العظيم «على الصليحى» نقول:

إن عهده يعتبر بالنسبة لتاريخ اليمن من أنضر، و أسعد العهود، و يكفى أن يكون معدودا بين الرجال الذين أسسّوا دولة كبرى، و من الذين قلّ أن يجود بهم الدهر ... خاصة و أن اليمن لم تجتمع لملك واحد، بل كان الرئيس منهم من يتسنّى له امتلاك إقليم صغير، أو حصن حتى يأتى من هو أقوى منه فينتزعه. فاليمن كانت تعانى فوضى الإمارات الصغيرة المتنابذة. أما الصليحى فقد تمكن من جمع اليمن كله تحت لواء واحد.

يقول المؤرخ عمارة اليمنى:

«إن هذا أمر لم يعهد فى جاهلية، و لا فى إسلام».

و ذكر «العرشى» فى كتابه «بلوغ المرام»:

«و لم يقع لأحد فيمن ملک اليمن ما وقع «لعلی بن محمد الصليحی»، فإنه استولی علی اليمن سهله، و جبله، شماله، و جنوبه، شرقه، و غربه فی مدۀ يسيرۀ بعد أن قهر أعداءه فهو لذلک لا يقل فی نظرنا عن بعض القواد الفاتحين الذين لمع إسمهم علی صفحات التاريخ بما أحرزوه من انتصارات، و ما قاموا به من فتوحات و أعمال مجيدۀ، و إن يک ذلک لمدۀ وجيزۀ».

من هنا نری ... أن الصليحی حكم البلاد اليمنيۀ حكما مطلقا، و لكنه كان حكما مستنيرا عادلا قائما علی أسس حكيمۀ، يتجلّی فيها السمو، و الرفعۀ. و بالرغم من أنه ينتسب إلی الإسماعيليۀ فإنه لم يكره أحدا علی الدخول فی عقيدته، و لكنه لم يكن يغفر لأحد تهاونه فی أمور الدين.

و ذكر المؤرخ «الفاسی» فی كتابه «تحفۀ الكرام». عن عهده فقال إن فيه:

«طابت قلوب الناس، و رخصت الأسعار، و أمنت الحجاج أمنا لم يعرف له مثيل من قبل، حتی إنهم كانوا يعتمرون ليلا و نهارا، و أموالهم محفوظۀ و رحالهم محروسۀ».

و قال «ابن الجوزی» فی «مرآۀ الزمان» إنه:

ردّ بنی شيبۀ عن قبيح أعمالهم، و أفعالهم مع الحجاج، و ردّ إلی البيت من الحلی ما كان «بنو الطيب» الأشراف قد سلبوه، و هؤلاء ملكوا الديار المقدسۀ بعد «شكر الحسينی» و عرّوا البيت، و الميزاب».

و مهما يكن من أمر ... فإن ما قام به الملک «علی الصليحی» من إصلاحات فی الأراضی المقدسۀ أكسبه ثقۀ الكثيرين من البلدان الإسلاميۀ ... من جهۀ أخری فإن تسامحه مع علماء أهل السنّۀ و السماح لهم بممارسۀ طقوسهم، و شعائرهم بحريۀ، أعاد ثقۀ الناس به.

و كذلک فعل «أسعد بن شهاب» عند ما كان واليا علی زبيد سنۀ ۴۵۶ ه فإنه أحسن السيرۀ فی الرعيۀ، و أذن للناس، و خاصۀ لأهل السنۀ بإعلان عقائدهم بحريۀ.

و كان الصليحی أديبا، و شاعرا يعطف علی الأدباء، و يصل الشعراء، و ذلک ليقينه بأن الشعر يجب أن يكون السلاح الماضی فی خدمۀ الدولۀ، و أنه من أهم وسائل الدعايۀ لها ... فلم يشأ أن يترک هذا السلاح دون أن يشهره فی وجه خصومه للدفاع عن دولته، و المباهاۀ بها و الإشادۀ بذكرها. و من أشهر الشعراء الذين عاشوا فی عصره:

عمرو بن يحيى الهيثمى، و الحسين بن على القمّى، و الحسن بن أبى عقامة.

هذا و تذكر كتب الأدب اليمنية بعض المقطوعات «لعلى الصليحى» قالها فى مناسبات عديدة، و منها قصيدة يذكر فيها احتلال حصن «وراخ».

يقول:

ما اعتذارى و قد ملكت وراخا عن قراع العدا وقود الرعال

و يقول:

و ألذّ من قرع المثانى عنده فى الحرب «ألجم يا غلام و أسرج

خيل بأقصى حضرموت شدّها و صهيلها بين العراق و منبج

##PAGE=170##

و كان «على الصليحى» بالإضافة إلى كل ما ذكرناه عالما، و فقيها مستبصرا فى الفلسفة، و علم التأويل، كما كان خطيبا مفوّها.

و فى الختام لا بدّ من القول: بأنه، و إن يكن مجهولا بالنسبة للتاريخ العربى ... فإن تاريخ اليمن يعتبره مؤسس دولة، و مقيم دعوة، و بانى حضارة إسلامية ساهمت كثيرا فى توطيد الأمن، و العدالة، و الحرية.

الملك المكرّم الصليحى

ظهر الملك «المكرم بن على الصليحى» على صفحات تاريخ اليمن بعد مقتل والده الملك «على الصليحى» الذى مرّ ذكره. و قد اتصف المكرّم بالشجاعة، و كرم الأخلاق، و علو الهمة و التسامح، و كأنه نسخة عن والده.

وصفه صاحب «قلادة النحر» بقوله: كان المكرّم ضخما، شجاعا، و فارسا مقداما. و مهما يكن من الأمر، فقد وقع المكرّم فى حيرة من أمره، حينما وصلته الأنباء بمقتل والده و من معه، و أسر والدته و نساء أسرته و فى تلك الفترة تأهب أعداء الدولة الصليحية للانتفاض مستغلين هذا الحدث الكبير. فحاصر الأحباش «مالک بن شهاب الصليحى» فى حصن «مسّار»، و تآمرت معه قبائل من «كحلان» و «وهران» و «عنس» و «زبيد» و «يحصب»، و امتدت نار الثورة حتى «صنعاء» العاصمة نفسها فاتخذ قراره بالتصدى للمتآمرين، و استمدّ من اليأس قوة، و أخذ يشجع من ظلّ مقيما على العهد من أتباعه.

قال المؤرخ «إدريس عماد الدين» فى تاريخه «عيون الأخبار»:

كان المكرّم يثبت أصحابه على الدين، و يذكرهم بما وعد اللّه عباده الصابرين، و هكذا استطاع أن يرفع عن «صنعاء» الحصار، و يتتبع الأعداء حتى ناحية «حضور» حيث خاض المعركة الأولى التى انتهت بانتصاره.

و هذا الانتصار، قوّى من عزيمة أعوانه، فخاض «إسماعيل بن أبى يعفر الصليحى» معركة ثانية بجهات «كحلان» و «وهران»، و فيها حقق انتصارا ثانيا باهرا. كان من شأنه رجوع هيبة الدولة الصليحية إلى الوجود.

##PAGE=171##

و تشاء الظروف أن يعود إليه قواد دولته الذين ذهبوا مع والده لأداء فريضة الحج، و هم الذين أمرهم بالمسير إلى الديار المقدسة قبله، و على رأسهم:

«عامر بن سليمان الزواحى» و «مدافع بن حسن الجنبى» و «عمران ابن الفضل اليامى» و «الحسين بن عمر السخانى». و من الجدير بالذكر ... أنهم لاقوا فى طريق العودة صعوبات كثيرة من الأحباش الذين كانوا يتتبعون أثرهم، و يسدون عليهم منافذ الطرق، و الإيقاع بالأعداء و عند ما وصلوا إلى صنعاء استقبلهم «المكرّم» استقبالا منقطع النظير، فرفضوا كل مظاهر التكريم، حتى يظفروا بالأحباش، و يأخذوا الثأر، و هكذا تعاهدوا، و عاهدوا اللّه على ذلک.

لقد كان «المكرّم» يعتقد أنه لا بد له من عملية حربية كبرى يقوم بها لتخليص، والدته «أسماء» من سجن «سعيد الأحول». فهذه الصورة القاتمة مرسومة فى ذهنه، ترافقه، و تقض مضجعه، و قد انعكست أيضا فى نفوس أصحابه المخلصين، فأصبحت نار الغيظ، تلذع أكبادهم، و تؤجج نفوسهم، و لكن ظهور عوامل الاضطراب، و الثورات فى مختلف أرجاء البلاد كانت تجبرهم على تأجيل كل عمل حربى ضد الأحباش إلى أن يتم إعادة الهدوء و الأمن. فأرسل المكرّم قائده «عامر ابن سليمان الزواحى» إلى بلاد حمير، و إلى مغرب اليمن، فأعاد الهدوء، و قضى على الفتنة، و عند ما أبت فئة من الفئات أن تستجيب إلى الدعوة، قاتلهم

قتالا شديدا، و تتبعهم فى السهل، و الوعر، حتى قضى على فلولهم، و لم يتركهم حتى جاؤوا إلى المكرّم طائعين مستجيرين. أما القائد «إسماعيل بن أبى يعفر» فإنه توجه إلى «يحصب» و «رعين» بجهات «كهلان» و «وهران» فباشر المعارک مع الثائرين، و ما زال حتى قضى على فلولهم التى شردت فى الجبال و القفار، و فى سنة ۴۵۹ ه. قام الأمير الزيدى «حمزة بن أبى هاشم الحسينى» بدعوته الجديدة فالتفّ حوله فريق من الناس، و بايعوه على أن يكون إماما و سمّى نفسه «أمير المؤمنين»، و بعد أن استجاب له خلق كثير هاجم «صنعاء» بخمسمائة فارس، و خمسة عشر ألف راجل من همذان و غيرها من القبائل. فأرسل المكرم يستدعى «عامر ابن سليمان الزواحى» من مغرب اليمن، فوصل مع جيشه، و انضمّ إليه المكرم، و القائد «أحمد بن المظفّر الصليحى» فالتقوا بالأمير

الزيدى فى «الملوى» و دارت الدائرة منذ الدقائق الأولى عليه ... و هكذا ولى أصحابه الأدبار هاربين، و بقى هو و ولده يقاتلان حتى قتلا مع بعض اعوانهما.

و يذكر تاريخ «عيون الأخبار» بأن هذه المعركة انجلت عن ثمانمائة قتيل من أصحاب الأمير الزيدى، و عند ما كانت هذه المعركة دائرة حول «صنعاء» اعتقد أعداء «الصليحيين» بأنها ستكون خاتمة المطاف و إن عليها تتوقف الأمور. فلما انقشعت السحابة، و تمّ النصر للمكرم، رجعوا عن غيهم ... و سكتوا على مضض. أما المكرّم فبدأ يقوم بأعمال التصفية فى ضواحى صنعاء ... و من جهة ثانية أرسل قواده الثلاثة: أحمد بن المظفّر الصليحى و إسماعيل بن أبى يعفر، الصليحى و عامر بن سليمان الزواحى إلى «حراز» و كان كبار أهلها لا يزالون يدينون بالطاعة للصليحيين، بينما الدهماء يحاصرون حصن «مسّار» الذى كان يحكمه «مالک بن شهاب الصليحى»، و فى طريقهم إلى الحصن المذكور وافاهم العديد من قبائل «مجيح» و «كرار» حيث قدموا فروض الطاعة، و بعد ذلک تقدموا إلى حصن «مسّار» فاستولوا عليه، و بعد أن عاهدتهم قبائل «حراز» على الطاعة تابعوا سيرهم نحو ديار قبيلة «بكيل» و كانت شركتها على المنابذة قوية، و صولتها على المحاربة شديدة، فبلغوا الديار سنة ۴۶۰ ه. و أرسلوا إلى زعماء بكيل يدعونهم إلى الاستجابة فأبوا إلّا القتال، و عند اليوم الثانى جاءت «بكيل» للقتال، و نشبت المعركة الحاسمة، فكانت الدائرة على «بكيل» حيث قتل العديد من زعمائها و قوادها. أما الباقون فقد هرعوا لإعلان الطاعة و الولاء، و كل هذا شجع القواد الثلاثة على العودة إلى «صنعاء» ظافرين.

و فى تلک الفترة انتهز «بنو نجاح» الأحباش فرصة انشغال جيش المكرم فى إخضاع بكيل و غيرها من القبائل. فأغار «بلال» و «أبو الفتوح» إبنا نجاح بعساكر كثيرة من العبيد، و الأحباش، و أهل تهامة على أسعد بن عبد اللّه الصليحى، فى حصن

«التعكر» و وقع بين الطرفين قتال شديد دارت الدائرة فيه على الأحباش «بذى أشرق» من قرى «المخلاف»، و لكن «بلال» و «أبا الفتوح» تمكنا من النجاة.

و لما توطّدت أركان الدولة الصليحية، و استقرت الأمور فى «صنعاء»، عوّل المكرّم على السير إلى «زبيد» لتصفية الحساب مع الأحول، و اتفق أن وصلته من أمه «أسماء» رسالة وضعتها فى رغيف خبز، و سلمتها إلى أحد الشحاذين، فأوصلها إلى المكرّم لقاء مبلغ من المال، و كانت الرسالة تحمل كل ما يثير الخواطر. فجمع الأعوان و قرأها عليهم ثم خطب فى الناس قائلا:

«من يكن يرغب فى الحياة فلا يكن معنا».

و أخيرا جمع قواده، و سار على رأسهم بعد أن ترك فى صنعاء «إسماعيل ابن أبى يعفر» الصليحى نائبا عنه، و قد أخذ قبل خروجه العهود، و المواثيق على «الشريف القاسم بن جعفر بن الإمام المنصور القاسم العيانى» و على أخيه «محمد بن جعفر» بأن لا ينقضا العهد، ثم أحسن إليهما، و منحهما الهدايا و الأموال.

و خرج المكرم فى عشرة آلاف رجل و فارس ... فخطبهم قائلا:

إننا لم ننزل لعرض من الدنيا نصيبه، و لا لمال نخزنه، و لا لشىء نذهب به من متاع الدنيا سوى إدراكنا ثأرنا، من هؤلاء العبيد، و الأحباش، و استنقاذ حريمنا، و إن قصدنا ليس الإضرار بأحد من الناس، و لا تغيير شىء مما يملكون، و علينا أن لا نتعدى على زروعهم، و مواشيهم و حريمهم.

و قد رجوت أن تكون سيرتكم جميلة، و لكم حسن الأحدوثة، فتنالون حميد العاقبة و الثناء.

ثم وطىء «المكرم» و جنوده تهامة «من شرقى «زبيد». فحطّ الرحال على مقربة من قرية «التربية» و دخل مسجدها عند طلوع الفجر، و كان إمام المسجد قد فرغ من الصلاة، و وقف يتلو بعض الآيات، فنظر، و إذا بفارس يركز رمحه و يشرع بالصلاة ... فقال الإمام: «ما رأيت شخصا من ولد آدم أتم منه خلقة، و لا أحسن منظرا، و روائحه روائح الملوك».

... و لم يلبث الصباح أن طلع، فأقبلت الخيل، و وقف كل رعيل يسلّم، و يقف و كانت تحيتهم له: «انعم اللّه صباحک مولانا و أدام عزک» فيرد عليهم بقوله: مرحبا «يا وجوه العرب».

و عند ما تكامل عددهم، قصدوا «باب الشبارق» و هو الباب الشرقى لبلدة «زبيد» و حين دنا المكرم من زبيد عبأ جيشه، فكان هو، و أحمد بن المظفّر الصليحى و عامر بن سليمان الزواحى و أبو الحسن بن المهلهل، و الحسين ابن عمرو السخانى ... فى القلب، و معهم قبائل: نهد و سخان و حمير و كان عمران بن الفضل اليامى، و مدافع بن الحسن الجنبى، و محمد بن على اليامى من قبائل همدان و يام و جنب و سواهم فى الميمنة، و مالک بن شهاب الصليحى و معه الحرازيون فى الميسرة، ثم إنهم أقبلوا على الأحباش، و كانوا ستة كراديس، و عددهم ثمانية عشر ألفا. فتقابل الجيشان فى شهر صفر سنة ۴۶۰ ه. و قاتل «سعيد الأحول» فى هذا اليوم و جيشه قتالا عنيدا، و لكن الجناحين انطويا على جماعة الأحباش، فتراجعوا، و تمزقوا، و هزموا شر هزيمة، و لكن خيول الصليحيين لاحقتهم و طحنتهم طحن الرحى، و لم يسلم منهم إلّا من كتبت له حياة جديدة، و كان الأحول قد أعدّ خيلا مضمّرة على الباب الغربى المسمّى «باب النخل»، فهرب مع

بعض رجاله إلى البحر حيث نقلتهم السفن إلى جهة مجهولة و قيل إلى جزيرة «دهلک». أما الملک المكرم فانشغل بأمر والدته أسماء ... و هكذا فإنه لم يتبع المهزومين و دخل رجاله زبيد عنوة، و ظلّ القتال بينهم و بين الأحباش حتى صلاة الظهر. و عند ما هدأت المعركة الضارية جاء المكرّم إلى الدار التى تقيم فيها والدته أسماء، و كان قد تنكر، و أخفى وجهه ...

فقال:

«أدام اللّه عز مولاتنا» ... فقالت:

«مرحبا يا أخا العرب ... من تكون؟».

فقال: «أنا أحمد بن على بن محمد ...» فقالت:

«إن أحمد بن على فى العرب كثير، فأحسر عن وجهک حتى أعرفک»، فرفع المكرم عن وجهه ... و هنا قالت: مرحبا بمولانا المكرم ... من كان مجيئه كمجيئک فما أخطأ و لا أبطأ»، و بعد اللقاء المؤثر بين الوالدة و ابنها جاء قواد الجيش و رؤساء القبائل فدخلوا، و سلموا عليها، و عندئذ كشفت عن وجهها أما المكرم فقد نزل عن ظهر جواده، و سجد للّه شكرا، و عفّر خده بالتراب، و بعد ذلک أمر بإحراق الدار التى اعتصم فيها بعض الأحباش، و لكنه لم يجعل لأحد سبيلا إلى حريم «بنى نجاح» كما أنه أطلق أخيرا من وقع أسيرا من أولادهم، و قبل أن يغادر «زبيد» نقل رأس والده و عمه إلى صنعاء، و بنى عليهما مشهدا ...

بعد هذا الانتصار الحاسم الذى تمّ فى ربيع الأول سنة ۴۶۰، خرج من زبيد يريد الإجهاز على الأحباش الهاربين، و لكن الأخبار وصلت من نائبه فى صنعاء «إسماعيل بن أبى يعفر الصليحى» تقول:

بأن الشريف «قاسم بن جعفر العيّانى» قد نقض العهد، و اتخذ من غياب المكرم و قواده و جيشه فرصة للانقضاض على «صنعاء»، و علم أيضا بأن نائبه إسماعيل قد اشتدّ عليه المرض، و أن الحجازيين، و أهل حراز قد ساءت بينهما العلاقات، فخاف المكرم بأن ينال المخالفون من صنعاء ما يبتغون، فخفّ مسرعا بالعودة، و معه والدته الملكة أسماء و الحرائر الصليحات، و فى ذلک يقول الشاعر اليمنى عمرو بن يحيى الهيثمى:

أوبة أسماء إلى قصرها — بعد فراق الملک الأوحد

كرجعة الشمس و قد جنّها — دجن و سربال دجى أسود

فيالها من نعمة احتلها — بأس ابنها بانى العلى أحمد

وصل المكرم إلى صنعاء، و كان أول ما فعله، القضاء على فتنة الشريف إذ لحق به إلى أرض «ذبيان» و باشرهم القتال، و لكنهم لم يستطيعوا الصمود، فتقدموا إليه، و أعلنوا خضوعهم، و من هناک سار

##PAGE=175##

لإصلاح المغرب اليمنى، و منها إلى «ذى أشرق» ثم إلى جبل «مسّور» و جبل «حملان» ... و هناک علم أن سعيدا الأحول قد صار بالمخلاف، و أن التبعى، و السخطى، و الكلالى، و يعفر بن الكرندى، و يحصب، ورعين، قد ساروا صفا واحدا، و أخذوا يهددون الدولة الصليحية، فعاد إلى صنعاء، و منها اتجه إلى المخلاف، ثم انتهى أخيرا إلى «وادى بينون» فأخضع بنى صعب من عنس، و بنى الحارث، و مذحج، و ما زال فى طريقه حتى وصل إلى جبل «الشعر» الذى تحصّن فيه التبعى، و السخطى فهاجمهما و لكنهما فرا، و اعتصما فى جفن القرانح، و لم يتوقف المكرم عن ملاحقتهما، و الحصار عليهما فى هذا الحصن، و لما كانا يعلمان بتسامح المكرم و حلمه ... سلما نفسيهما إليه.

و فی عام سنهٔ ۴۶۱ ه. غادر المکرم صنعاء إلی زبید بعد أن وصلته الأخبار بأن سعیدا الأحول قد عاد للظهور ثانیهٔ علی المسرح الیمنی، و هناک طوّق جبل الشعر الذی اعتصم فیه سعید الأحول، و رجاله، ثم حمل علیهم حملهٔ من یختار الموت علی الحیاهٔ ... فهزمهم هزیمهٔ منکرهٔ و قتل أحد قواد المکرم سعیدا الأحول عند ما کان یحاول الفرار، و کان ذلک علی مقربهٔ من قریهٔ «مآبهٔ» کما قتل القائد عامر بن سلیمان الزواحی ولدی نجاح و هما «بلال» و «مالک» ثم ولّی أمر زبید «سبأ ابن أحمد الصلیحی» و عاد إلی صنعاء حیث استقرّ فیها یصرف أمور دولته بحکمهٔ، و إدارهٔ، و مرونهٔ، و عدل.

و فی سنهٔ ۴۶۷ ه. توفیت والدته «أسماء بنت شهاب» و کانت قبل وفاتها قد زوجته «بأروی الصلیحی»، کما أشارت علیه أن یجعل «ذا جبلهٔ» دار هجرهٔ و قرار، «و ذو جبلهٔ» مدینهٔ بمخلاف جعفر اختطها «عبد اللّه الصلیحی» بأمر أخیه «علی الصلیحی» و یقال:

إن «جبلهٔ» اسم رجل یهودی کان یسکن فیها، و یعمل الفخار فی الموضع الذی بنی فیه «عبد اللّه الصلیحی» «دار العز» الأولی ... و تسمّی مدینهٔ «النهرین» لأنها تقع بین نهرین کبیرین فی الصیف و الشتاء ... و یقال فی المثل المشهور: «إن جبلهٔ لا یدخلها إلّا طاهر ... و صباحها صباح عروس»، و لما انتقل المکرم إلیها اختطّ فیها «دار العز» الثانیهٔ فی «ذی بور» و کان حائطا فیه حدائق، و أشجار کثیرهٔ، و هو یطل علی النهرین، و علی الدار الأولی.

##PAGE=176##

و مما تجدر الإشارهٔ إلیه ... إن الملکهٔ «أروی» قالت له عند ما انتقل إلی ذی جبلهٔ:

«العیش هنا أفضل، و أسلم للمملکهٔ، و أثبت لقواعدها ... فهی متوسطهٔ بین الیمن الأعلی، و الأسفل، و فیها یخصب العیش، و یطیب المحل».

و لکن و بینما هو فی غمرهٔ الفرح فی عاصمته الجدیدهٔ داهمه مرض الفالج فأشار علیه الأطباء أن یحتجب عن الناس ... فترک ذی جبلهٔ و صعد إلی حصن «التعکر» بعد أن فوّض لزوجته «أروی» شؤون إدارهٔ الدولهٔ.

و لا بد من القول ... و نحن فی طریقنا إلی قول الکلمهٔ الأخیرهٔ من سیرهٔ الملک المکرّم:

بأن الدولهٔ الیمنیهٔ الإسماعیلیهٔ بلغت فی عهده أقصی درجات الأمن، و الاستقرار، و قد اتفق المؤرخون علی القول: بأنه کان ملکا شجاعا، و شهما جوادا، و مقداما سموحا ... و قد لقبه الخلیفهٔ الفاطمی «المستنصر باللّه» «بذی السیفین» و «داعی

السيف»، و كان إلى جانب كل هذا خطيبا فصيحا، و لم يكن فى زمانه من يستطيع حمل رمحه، و سيفه، و قوسه، و لكن الأقدار لم تعطه الفرصة لإكمال البناء، فأصيب بصحته.

و أخيرا مات الملک المكرم فى حصن «التعكر» سنة ۴۷۸ ه. و ختمت حياة الرجل العظيم و فتحت صفحة جديدة فى تاريخ اليمن، و هذه الصفحة المشرقة لا تقل عن سابقاتها، و أعنى بها صفحة «الملكة أروى الصليحى».

الملكة أروى الصليحى

كان أهل اليمن يخاطبونها بلقب «السيدة الحرّة» و هذا اللقب منحه إياها الإمام «المستنصر باللّه» تقديرا و إجلالا. و هى «أروى بنت أحمد ابن محمد الصليحى».

ولدت سنة ۴۴۰ ه. و يروى أن والدها، هو أحمد بن محمد الصليحى، و كان قد بعثه الملک على الصليحى على رأس وفد يمنى إلى القاهرة «المعزية» لمقابلة الخليفة الإمام المستنصر باللّه، و ذلک بعد

استيلائه على حصن «مسّار»، و لكنه مات فى «عدن» عند ما سقط عليه البيت الذى كان يأوى إليه. أما أروى فكانت فى ذلک الوقت طفلة صغيرة.

أمها: «الرواح بنت الفارع بن موسى الصليحى، و قد تزوجت من «عامر بن سليمان بن عبد اللّه الزواحى» بعد موت زوجها أحمد، فرزقت منه «سليمان» القائد الذى لعب دورا هاما فى الفتوحات الصليحية فهو إذن أخوها لأمّها.

قامت بتربية أروى، و تهذيبها، و تأديبها السيدة «أسماء بنت شهاب» زوجة الملک على الصليحى بعد زواج أمها فربّتها تربية صالحة، و كانت فى الوقت نفسه موضع اهتمام الملک على الذى كثيرا ما كان يقول لأسماء: «اكرميها ... فهى ... و اللّه ... كافلة ذرارينا، و حافظة هذا الأمر على من بقى منا»

كانت أروى على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة إلى جانب ما تمتعت به من جمال الخلقة ... فكانت بيضاء اللون، سوداء الشعر، مشربة بحمرة، مديدة القامة، معتدلة البدن، تميل إلى السمنة، كاملة المحاسن، جهورية الصوت، متعلمة تحفظ الأخبار، و التاريخ، و أيام العرب، و الشعر. و ذكر أن لها تعليقات و هوامش على الكتب، و كان يقال لها: «بلقيس» اليمن الصغرى، و كانت

بالإضافة إلى كل ما ذكرناه عنها متبحرة فى العلوم الإسماعيلية ... فكان يقصدها الدعاة، و يتعلمون منها من وراء الستر و يأخذون عنها، و يرجعون إليها.

و إنه من الطبيعى بعد هذا أن يختارها الملك على زوجة لابنه المكرّم، و بالفعل اقترنت به بعد أن سمى وليا للعهد سنة ۴۵۸ ه. و كان لها من العمر ثمانى عشرة سنة، و هذا الزواج وصفه الشاعر القمّى بقوله:

و كريمة الحسين يكنف قصرها أسد تخاف الأسد من صولاتها

و تكاد من فرط الحياء تغضّ عن تمثالها المرئى فى مرآتها

ظفرت يداك بها فبخ إنما لك تذخر العلياء مضنوناتها

و كان الملك على قد أصدقها «عدن» حين زواجها من ابنه المكرم، و قد ظلّ إنتاج عدن يدفع إليها من حين زواجها، و هو مائة ألف تزيد، أو تنقص.

##PAGE=178##

أولادها من المكرّم هم:

على، و محمد، و فاطمة، و أم همدان ... فأما على و محمد فسنتكلم عنهما فيما بعد. و أما فاطمة فتزوجت من شمس المعالى على بن سبأ بن أحمد الصليحى، و قد توفيت سنة ۵۳۴ ه. و أما أم همدان فتزوجت من ابن خالها أحمد بن سليمان بن عامر بن سليمان الزواحى فرزقت منه «عبد المستعلى» و توفيت سنة ۵۱۶ ه.

بدأت الملكة أروى نشاطها السياسى فى عهد زوجها الملك المكرّم، و يقول المؤرخ عمارة اليمنى:

«لما توفيت «أسماء بنت شهاب والدة المكرّم ... فوّض الأمر لزوجته الملكة أروى فقامت بالأمر وحدها، و استعفته فى نفسها و قالت: «إنّ المرأة التى تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر ... فدعنى و ما أنا بصدده».

و كانت تستشير فى هذه الفترة «عمران بن الفضل اليامى» و «أبا السعود بن أسعد بن شهاب الصليحى» و لما توفى زوجها سنة ۴۷۷ ه. حملت وحدها عبء هذه المسؤولية الجسيمة، و أصبحت بتفويض من الخليفة «المستنصر باللّه» تتصرف بأمور اليمن و الهند و عمان.

إن سياسة الخليفة الإمام المستنصر باللّه، تدل على بعد نظر فى الأمور فهو رفض تولية «سبأ بن أحمد الصليحى» الملك، بالرغم من وصية المكرّم له، و ولّى «على بن المكرّم» بالرغم من صغر سنه، لأنه كان يعلم أن والدته «أروى» لها من القوة و الجدارة ما يمكنها من الاضطلاع بشؤون الدولة، و إنها أبعد نظر من الملوك الرجال أنفسهم.

أجل ... لم يراع الخليفة الإمام المستنصر باللّه وصية المكرم، و لا شخصية «الأمير سبأ» الممتازة، و محبة الناس له، و غيرته على الدولة الصليحية، و مواقفه فى خدمتها، و رفع شأنها، و لكن أروى و هى السياسية المحنكة أدركت أن عليها القضاء على هذه العاصفة الهوجاء، فأعطت الأمير «سبأ» وظيفة النيابة أو الوصاية على ولدها الصغير، و فوّضت إليه قيادة الجيوش على أن تبقى زمام الأمور العليا بيديها. فدخل فى حروب متوالية مع «جيّاش بن نجاح» ... و آخر معركة وقعت كانت فى «زبيد» سنة ۴۷۹ ه. و هى المعروفة بمعركة «الكظائم» التى انهزم فيها سبأ و من معه ... و من الجدير بالذكر أن

##PAGE=179##

أخاه الأمير قيس قد قتل، و محمد بن مهنّا، و القاضى عمران بن الفضل اليامى، كما عقرت فرس الأمير سبأ، فاضطر أن يسير راجلا حتى حمله أخيرا جنده على جواد آخر، و هكذا ملك الأحباش زبيد، و لم يقدر الصليحيون على أخذ تهامة بعد تلك المعركة، و مما تجدر الإشارة إليه: أن «الأمير محمد» ابن الملك المكرّم مات فى حياة أبيه، و بعد فترة قصيرة مات «الملك على بن المكرّم» فقام الأمير سبأ يطالب بحقه فى تولى أمور الدولة، و لكن الملكة أروى لم تمكنه من ذلك، ثم إنها أعلنت عن نفسها بأنها المسؤولة عن تدبير أمور الدولة. و هنا ...

اتخذ الأمير «سبأ» سبيلا آخر لإقناعها بأن طلب يدها للزواج، و لكنها رفضت ذلك، و أنكرته غاية الإنكار، و عندئذ جمع الأمير سبأ جيوشه، و سار من حصن «أشيح» إلى «ذى جبلة» لا لمحاربة الملكة أروى، و لكن لإظهار قوته و سيطرته ... فجمعت هى جموعها، و كادت رحى الحرب تدور بينهما لو لا أن «سليمان بن عامر الزواحى» شقيق الملكة أروى لأمها أنقذ الموقف بأن أشار على الأمير سبأ بأن يتصل بالإمام المستنصر باللّه، و يقيمه حكما فاصلا، فترك الأمير سبأ المنهج العسكرى، و رجع إلى حصن «أشيح» ثم سيّر إلى الخليفة الإمام المستنصر باللّه رسولين هما القاضى «الحسين بن إسماعيل الأصبهانى» و «أبو عبد اللّه الطيب» ... و هنا تظهر الاضطرابات التاريخية. فبعض المصادر تذكر أن الخليفة الإمام المستنصر باللّه أصدر أمره

إلى الملكة أروى بالقبول بالأمير سبأ زوجا لها ... و تضيف هذه المصادر بأنها رفضت الأمر. و هناك مصادر أخرى تشير إلى أنها قابلت الأمر بالرضى و القبول، و أن الزواج قد تمّ فعلا.

إن جميع المصادر اليمنية التاريخية تؤكد بأن أروى رفضت أوامر خليفة مصر، و لم تتزوج و لكنها بالرغم من ذلك أقامت الأمير سبأ قيما على الدولة، و لكن تحت إشرافها المباشر ... أما سبأ فكان كما وصفه المؤرخون:

فاضلا، ورعا، تقيا ما وطىء أمه قط، و لا شرب مسكرا، كان كريما، طيبا، يقصده الشعراء، و أصحاب الحاجات، و كان أيضا فصيحا، و شاعرا يجيب الشعراء على قصائدهم ثم يجيزهم، و يزيد فى برهم ...

و فى ذلك يقول الشاعر القمّى:

و لما مدحت الهز برىّ ابن أحمد أجاز و كافانى على المدح بالمدح

##PAGE=180##

فعوّضنى شعرا بشعر و زادنى عطاء فهذا رأس مالى و ذا ربحى

شققت إليه الناس حتى لقيته فكنت كمن شقّ الظلام إلى الصبح

فقبح دهر ليس فيه ابن أحمد و نزّه دهر كان فيه من القبح

و هكذا ظلّ «الأمير سبأ» فى حصن «أشيح» يقدم المساعدات، و الاستشارات إلى الملكة أروى حتى وافته المنية سنة ٤٩١ ه، و تشاء الأقدار أن يموت بعده بعام واحد «عامر بن سليمان الزواحى» أخو الملكة أروى لأمها، و كان من القواد الكبار الذين خدموا الدولة الإسماعيلية اليمنية بإخلاص و تفان ... و بعد موت هذين القائدين خرجت «صنعاء»، و ما يتبعها عن دولة

الصليحيين و لم تفكر الملكة أروى باسترجاعها، و كانت قد عهدت إلى «المفضل بن الوليد الحميرى» بإدارة شؤون الدولة، و قيادة الجيش.

و كان المفضل من الشخصيات البارزة، و القواد المعترف بإدارتهم، و قيادتهم، فغزا تهامة مرارا، و هبط إلى عدن أيضا، و كانت له مواقف حميدة حتى أنه حارب «الأمير على بن سبأ» عند ما أعلن العصيان فى حصن «قيضان». فأخرجه منه سنة ۴۹۵ ه. كما حارب القبائل التى خرجت عن الطاعة. و استرجع خراج عدن بالقوة من «آل زريع».

أجل ... كان المفضل حازما. و شجاعا، و شهما له مفاخر جمة، و قد توفى سنة ۵۰۴ ه. و بعد وفاته خرجت بعض الجهات عن الدولة، و أخذت العواصف تهب من كل جانب، و لم ينفع تعيين «الأمير أسعد» مكان ابن عمه «المفضّل» بل إن التدهور ظلّ مستمرا، و ازدادت الأمور تعقيدا، و هذا ما حدا بالملكة أروى إلى الطلب من الخليفة الآمر بأن يعين لها مستشارا يبقى إلى جانبها، و يساعدها فى تدبير و إدارة شؤون الدولة. فأرسل إليها سنة ۵۱۳ ه «على بن إبراهيم بن نجيب الدولة». فجاء إلى «ذى جبلة» و تقلّد أمر الجيوش، و الدولة، و بدأ أعماله بفض الخلافات، و إعادة الأمن و الطمأنينة إلى البلاد ... فكان أول عمل قام به هو تأديب الخولانيين، لأنهم كانوا قد بسطوا أيديهم على الرعايا فى البلاد، و استهانوا بالملكة أروى، فطردهم من «ذى جبلة» و نواحيها، و أوقع بمن بقى منهم، و من بقى منهم ظلّ على الطاعة، و تأييد الدولة ... و أمّن ابن نجيب البلاد، و استقرّت الأمور فى

عهده، و رخصت الأسعار بحسن سياسته، و تدبيره، و أقام العدل، و عزّز جانب الدولة، و بعد فترة من الزمن أرسل إليه الوزير «المأمون البطائحى» بأمر من الخليفة الآمر أربعمائة محارب أرمنى، و سبعمائة محارب إفريقى «أسود» و جميعهم من الرماة المجربين، و هذا ما جعل «ابن نجيب» يسرع فى محاربة الدولة «النجاحية- الحبشية» فى «زبيد» سنة ۵۱۸ ه. و كان عليها «الفاتک» أحد عبيد «بنى نجاح».

و كان عشرة رماة من الأرمن أصحاب «ابن نجيب» قد استأمنوا إلى أصحاب «زبيد»، و لما بدأ الزحف رمى رجل من العشرة المستأمنة بسهم فلم يخطىء أنف الفرس الذى يركبه «نجيب الدولة» فسقط إلى الأرض، و شبّ الفرس فانهزم عسكره، و قتل السود بأسرهم، و لم ينج من الأرمن سوى خمسين، و كانوا أربعمائة. أما «ابن نجيب» فقاتلت عنه «همدان» أشد قتال حتى أن رجلا منهم اسمه «السباعى» أردفه على فرسه، و عاد به إلى «ذى جبلة» فاجتمع بالملكة أروى، التى عاضدته، و أعطته

الأموال، و جمعت إليه الرجال، و لكن كل هذا لم ينجه من المنافسين الذين أخذوا يوقعون بينه، و بين الملكة أروى، فأخذت علاقته بها تفتر منذ سنة ۵۱۹ ه. حتى قيل إنه رماها بالخبل حين قال:

«لقد خرفت، و استحق عندى أن يحجر عليها».

و فى إحدى المعارک التى خاضها «ابن نجيب» حاصره أعداء الدولة الصليحية فى «الجند» و هى ذات سور منيع. فلمّا اشتد عليه الحصار أرسل إلى الملكة «أروى» يطلب منها النجدة، فأرسلت إلى «عمرو بن عرفطة الجنبى» فأتاها و ضمّ فى «ذى جبلة». و بعثت إلى أمراء القبائل، ففرقت فيهم عشرة آلاف دينار مصرية، و قالت للرسل:

«اشيعوا فى العسكر ... أن ابن نجيب فرّق فى الناس عشرة آلاف دينار مصرية، فإن أنفق الأمراء شيئا من الذهب المصرى بقينا و إلا ارتحلنا».

فلما طالب العسكر الأمراء بذلک، و عدوهم، و لما كان الليل ارتحل الجند و رجع كل واحد إلى بلده، و أصبح الأمراء بلا جيش، و الحشود بلا أمراء، و انفضّ الناس أخيرا عن الجند بهذه الحيلة الحربية ...

##PAGE=182##

و هنا قيل لابن نجيب ... هذا تدبير من قلت عنها إنها خرفت، فركب إلى «ذى جبلة»، و تنصّل، و اعتذر، و لكن هذا الاعتذار لم ينقذه من المصير المحتوم لأن أخباره كانت قد وصلت إلى الخليفة الآمر، فأرسل «الأمير الموفق بن الخياط» فى مئة فارس إلى اليمن للقبض على «ابن نجيب» فلم تسلّمه الملكة أروى إلا بعد أن أخذت العهود، و المواثيق على «ابن الخياط» بأن لا يمسوه بأذى، كما أنها أرسلت إلى الخليفة الآمر كاتبها «محمد بن الأزرى» يتشفع لابن نجيب.

و هنا اختلف المؤرخون فى نهايته ... فمنهم من ذكر أنه قتل، و شهر به سنة ۵۲۴ ه و منهم من ذكر أنهم اكتفوا بإبعاده، و بعد رحيله عن اليمن اختارت الملكة أروى «على بن عبد اللّه الصليحى» للقيادة، فلم يتمكن من إعادة الأمور إلى حالتها الأولى، لأنه لم يكن من الرجال الأكفاء، و يبدو أن الدولة الصليحية قد وصلت فى هذه المرحلة إلى درجة الإنهيار، فكانت عوامل الانحلال، و الشيخوخة قد تملكت قلب الدولة، و لم يعد بالإمكان التغلب، و الإنقاذ.

و من الجلى الواضح ... أنه فى تلک الفترة الأخيرة استولى «ابن المفضل ابن أبى البركات الحميرى» على «ذى جبلة» و ملک ابنه منصور حصن «أشيح» و ما يتبعه، و لكنه ظلّ يدين بالطاعة للملكة أروى حتى وفاتها سنة ۵۳۲ ه. و بعد ذلک استولى

على ما كان تحت يدها من حصون، و أموال، و ذخائر، و لما تقدمت به السن، و صار لا يستطيع حماية هذه الحصون من الطامعين باعها سنة ۵۴۷ ه. إلى «محمد بن سبأ الزريعى»، و ظلّت بأيديهم حتى استولى على بلادهم «توران شاه بن أيوب». و هكذا انتقلت السيادة فى اليمن إلى الأيوبيين الذين أعلنوا الخطبة باسم العباسيين، و ذلک بعد حكم فاطمى دام ما يقارب المائة عام.

و مهما يكن من أمر ... فإن الملكة «أروى الصليحى» ستبقى خالدة فى نفوس اليمنيين، و العرب مدى الدهر، و ستظلّ وحيا، و نورا مهما اختلفت الطرق، و اشتدت الأزمات، و أبعدت المسافات، و تخلّفت القوافل ... لأنها وحيدة كل زمان، و المرأة التى حكمت اليمن بعد «بلقيس».

و أخيرا ماتت الملكة أروى سنة ۵۳۲ ه عن عمر ناهز/ ۹۲/ عاما،

##PAGE=183##

و دفنت فى مسجد «ذى جبلة» ... هذا و إذا كانت الدول الناهضة فى العصر الحاضر تعمل على تنمية اقتصادياتها بشتى الوسائل لإسعاد شعوبها، و توفير الرخاء لأكبر عدد من سكانها، و رفع مستوى المعيشة بين أفرادها، فإن «أروى» لم تترک فرصة تمر إلّا و عملت و بذلت كل عنايتها فى سبيل الهدف المنشود.

لقد اهتمت الملكة أروى بالزراعة، و الصناعة، و التجارة، و المواصلات، و استعانت بالخبراء، كما إنها أولت الزراعة، و الفلاحة اهتماما خاصا لأنها كانت تعتقد أن هذه الطبقة العاملة الفقيرة المحرومة يجب أن تنال حقوقها، و أن يتوقف الولاة و الأمراء عن التحكم بها، و استعبادها، و أن مثل هذه المبادىء كانت تلاقى كل قبول من قبل الطبقات العاملة. و تحول دون انتشار روح التذمر. من جهة أخرى ...

فإن الملكة أروى عرفت قدر التجارة، و اعتبرتها من دعائم الاقتصاد، و لهذا كان لا بدّ من الاعتماد على المواصلات التى اعتبرتها أيضا الركن الأساسى لتسهيل نقل الحاصلات، و الواردات. فعبّدت الطرق، و أولت حركة البناء، و التعمير اهتماما زائدا، و أنشأت المدارس، و بنت المصحّات، و المساجد، و الحدائق ... و من مآثرها أنها منحت رعاياها فى عموم اليمن حرية الاعتقاد، و ممارسة الطقوس الدينية و هكذا فاخرت الملوک بأعمالها، و أوامرها التى استمدتها من مصلحة الشعب، و أتاحت لها الفرصة لجميع الكفاءات، لتتعاون فى بناء الوطن الذى كان معتبرا بنظرها ملكا للشعب، و ليس لها أو لأحد من أسرتها.

و تؤكد المصادر التاريخية الإسماعيلية النزارية بأن الملكة أروى عاصرت «الفتنة الكبرى» التى وقعت فى مصر بين أبناء الخليفة الإمام المستنصر باللّه «نزار» «و المستعلى» ... فهذه المصادر ذكرت: أن الملكة أروى كان لها ميول نزارية، و أنها فى مجالسها الخاصة كانت تشجب الاعتداء الذى وقع على الإمام «نزار بن المستنصر» من قبل «الأفضل الجمالى» الأرمنى الذى نصب ابن شقيقته «المستعلى باللّه» ابن المستنصر باللّه بقوة السلاح، دون مراعاة الوصية الرسمية النزارية.

##PAGE=185##

المستنصر باللّه

##PAGE=187##

الخليفة الفاطمى الثامن و الامام الثامن عشر

لقبه «المستنصر باللّه». اسمه «معد» كنيته «أبو تميم». ولد فى القاهرة «المعزية» فى السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ۴۲۰ ه. و بويع بالخلافة فى النصف الأول من شعبان سنة ۴۲۷ ه. و ذلک بعد وفاة والده الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه، و كان له من العمر وقتئذ سبع سنين و عدة أشهر.

توفى فى القاهرة «المعزية» سنة ۴۸۷ ه. عن سبع و ستين عاما، و خمسة أشهر قضى منها فى الخلافة ستين سنة و أربعة أشهر و ثلاثة أيام، و هى أطول مدة قضاها خليفة إسلامى.

والدته أمة سوداء عاشت لدى تاجر يهودى فى مصر اسمه «سهل بن هرون التسترى» و كان الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه قد اشتراها منه، و تزوجها و استولدها «المستنصر باللّه». فلما آلت إليه الخلافة، و هو فى سن مبكر، قبضت على شؤون الدولة، و عاونها مربيها التسترى، كما أشرف على أمور الدولة الوزير «الجرجرائى» فى حينه.

و مما تجدر الإشارة إليه ... أنها كانت على جانب كبير من الفهم و الذكاء، و بعد النظر ... تضع الأمور فى مواضعها، و تحكم على القضايا المعروضة، و الطارئة بحسب الواقع و العقل، و عند ما اشتد ساعد ولدها و كبر، تسلّم شؤون الخلافة، و أدار دفتها وفق توجيهات والدته الساهرة المتيقظة، فكان عهده من أطول العهود التى عرفها التاريخ الإسلامى، و متى علمنا أن المدة التى قضاها فى سدّة الخلافة تجاوزت الستين عاما، أدركنا أية أحداث جسام واجهته.

##PAGE=188##

... إن الخبراء فى الدراسات الإسماعيلية التاريخية يعتبرون عهد المستنصر باللّه بداية النهاية للدولة الفاطمية، و معنى ذلک أنه آخر خليفة شرعى للدولة الفاطمية ... إذ أنه بعد وفاته، و إن تكن الخلافة الفاطمية قد استمرّت فترة أخرى فى الديار المصرية، إلّا أنها ارتدت طابعا غير شرعى فالخليفة الذى تسلّم الأمر بعد المستنصر باللّه لم يكن صاحب نص شرعى، بل وصل إلى كرسى الخلافة غصبا، بعد موآمرة كبرى أطاحت بالوارث الأصيل «نزار» و كل هذا سنأتى على ذكره فى الأجزاء التالية:

و من الواضح ... أن الخليفة الإمام المستنصر باللّه كان يتميز بطيبة القلب و محبته لشعبه، و حدبه على الفقراء، و كان بالإضافة إلى كل ذلک محبا للأدب، يقرّب العلماء و يعطف عليهم و يمد إليهم يد المساعدة، و كان يتذوق الشعر و يقرضه. و ذكر أنه ترک ديوانا، و لكن الآثار الفاطمية، الأدبية و العلمية قد بادت على يد صلاح الدين الأيوبى، الذى وجد فى إتلافها و طمسها، لذة و ثوابا إثر سقوط الدولة الفاطمية.

وزراء المستنصر باللّه

تجاوز عدد الوزراء الذين استخدمهم الخليفة الإمام المستنصر باللّه إبان حكمه الخمسين، و بإلقاء نظرة على أسمائهم، و تاريخهم يتبين أن أكثرهم كانوا يمكثون أياما فى الحكم ثم يصرفون، و ربما أعيدوا إلى الوزارة بعد ذلک، و هكذا دواليک، و كل هذا كان سببه الفوضى، و عدم استقرار أمور الدولة ... مما سنذكره فى الصفحات التالية:

١- على بن أحمد الجرجرائى (فخر الدولة- صفى أمير المؤمنين): هو وزير الخليفة الإمام «الظاهر لإعزاز دين اللّه» ... كان مقطوع اليدين من المرفقين. و قيل إن الخليفة الإمام الحاكم بأمر اللّه قد قطعهما سنة ۴۰۴ ه. على باب القصر البحرى بعد أن اتهم بالفساد، و الرشوة، و كان آنئذ يتولّى رئاسة بعض الدواوين العليا.

عراقى الأصل ... إسماعيلى المذهب. موطنه الأول قرية «جرجرايا» فى سواد العراق فى سنة ۴۰۶ ه. عين على رأس ديوان النفقات، ثم صار فيما بعد وزيرا للخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه أى سنة ۴۱۸ ه. و بعد وفاة الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه أخذ البيعة

للمستنصر باللّه. من أعماله أنه أعاد النظام إلى ديار الشام، و دبر أمور الدولة المالية.

توفی سنهٔ ۴۳۶ ه. و کانت مدهٔ وزارته سبع عشرهٔ سنهٔ. و ثمانیهٔ أشهر ... کان مخلصا للخلیفهٔ الإمام الظاهر لإعزاز دین اللّه، و من بعده لولده «المستنصر باللّه».

۲- الحسن بن علی الأنباری (فخر الملک): من أصحاب الجرجرائی. خلفه فی الوزارهٔ، و لکنه لم ینعم بهذا المنصب لأن أمره قد فسد بسبب عداوته «للتستری». فقبض علیه، و صودرت أمواله، و قتل فی سجنه ... کان إسماعیلیا، و ذکر أنه عراقی.

۳- صدقهٔ بن یوسف الفلاحی (فخر الملک): کان یهودیا، ثم أسلم، و انتسب إلی الإسماعیلیهٔ. کان بارعا فی ضروب الکتابهٔ و البلاغهٔ. ولی أولا النظارهٔ فی الشام، و لکنه فرّ من أمیر الجیوش «أنوشتکین الدزبری» و قدم إلی القاهرهٔ «المعزیهٔ» حیث لاذ بالوزیر الجرجرائی الذی رقّاه، و أشار علی الخلیفهٔ بتوزیره.

دخل الوزارهٔ سنهٔ ۴۳۶ ه، و فی عهده سیطر «التستری» علی کافهٔ المرافق، و هکذا لم یبق لصدقهٔ من الوزارهٔ سوی الاسم، و لما ضاقت به الأمور أغری بعض الجنود الأتراک و دفعهم لقتل التستری، و بعد ذلک ظنّ أن الدنیا قد صفت له، و إن الجو قد خلا ... و لکن التحقیقات السریهٔ کشفت عن تدبیره مؤامرهٔ القتل، فأقصی عن الوزارهٔ، و قتل سنهٔ ۴۴۰ ه.

۴- الحسین بن أحمد الجرجرائی (عماد الدولهٔ): هو ابن أخی الوزیر علی الجرجرائی. خلف الفلاحی فی الوزارهٔ ... کان سیء السیرهٔ، و الإدارهٔ. ففی عهده قبض علی کثیر من الأبریاء، و ازدادت المصادرات للأموال، و النفی و التشرید، فکثر ذم الناس له، لأنه کان یظلم الناس دون رأی الخلیفهٔ، و قد حاول أن یبعد «الیازوری» الذی حلّ محل التستری فی دیوان «والدهٔ الإمام المستنصر باللّه» و یشغله بمنصب قاضی القضاهٔ، و لکن «الیازوری» أحبط مسعاه، و بقی فی منصبه.

و أخیرا کان لفشله فی سیاسته الداخلیهٔ و الخارجیهٔ، أن غضب علیه

##PAGE=190##

الخلیفهٔ، فنفاه إلی مدینهٔ «صور» سنهٔ ۴۴۱ ه، ثم أفرج عنه بعد ذلک، فذهب إلی دمشق، و أقام فیها حتی آخر حیاته.

کان علی المذهب الإسماعیلی ... و مدهٔ وزارته هی سنهٔ و تسعهٔ أشهر و عشرهٔ أیام.

۵- صاعد بن مسعود (عمید الملک وزین الکفاهٔ): کان من کبار رؤساء الدواوین، و المسؤول الأول عن منصب رئیس دیوان الشام، و ذلک بعد إبعاد الجرجرائی عن منصب الوزارهٔ، و کان هذا المنصب قد ظلّ شاغرا عدهٔ أیام و بعد ذلک عرضت علیه

الوزارة على أن يكون «وسيطا» لا وزيرا ... فقبل و لكن يبدو أن اليازورى وضع المصاعب فى طريقه ... مما أدّى إلى فشله، و عزله أخيرا، و كان ذلک سنة ۴۴۲ ه.

و من الجدير بالذكر أن مدة وزارته لم تتجاوز العام ... و كان مسلما سنيا.

۶- الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى (غياث المسلمين و خليل أمير المؤمنين): هو من أشهر وزراء القلم فى الدولة الفاطمية ... كان وزيرا ناجحا، و أدى للدولة الفاطمية خدمات كبرى فى المجالين الداخلى و الخارجى. فلسطينى الأصل من قرية «يازور» و مسلم سنى ... كان والده ثريا معدودا انتقل إلى الرملة، و ولى القضاء فيها، و عند ما نقل إلى القاهرة «المعزية»، اتصل بوالدة الإمام «المستنصر باللّه» فأعجبت به، و عينته مديرا لأعمالها بعد مقتل التسترى، فاتسع نفوذه، و أضيف إليه قضاء القضاة، و عند ما شغرت الوزارة بعد صاعد بن مسعود سنة ۴۴۲ ه. عين بالوزارة.

و من الجدير بالذكر أن اليازورى لعب دورا كبيرا فى حياة الدولة الفاطمية، و ظلّ يملک ناصية الأمور حتى قبض عليه سنة ۴۵۰ ه.

و قتل فى «التنيس» بعد أن ثبتت عليه مراسلة القائد السلجوقى «طغرلبک» المعادى للفاطميين.

۷- عبد اللّه بن محمد البابلى (كفيل الدين و شرف الملّة): تولّى الوزارة ثلاث مرات ... كان فى عهد اليازورى رئيس ستة دواوين عليا ... ثم أسندت الوزارة إليه بعد اليازورى مباشرة. كانت سيرته سيئة فى الأوساط الشعبية، و كان الناس يذكرون إساءته لمن أحسن إليه، و قدمه، و أعنى به اليازورى. صرف من الوزارة الأولى بعد

سبعين يوما من توليته ثم اعتقل. و أخيرا أفرج عنه ... كان مسلما سنيا.

۸- محمد بن جعفر المغربى: هاجر من العراق إلى مصر فرارا من «البساسيرى» فاتصل باليازورى الذى ولّاه ديوان الجيش. كانت أم الإمام المستنصر باللّه توليه عناية خاصة، و هكذا اليازورى ... قبض عليه فى جملة من قبض عليهم من أصحاب «اليازورى» و ظلّ معتقلا حتى تقررت له الوزارة و هو فى المعتقل، و ذلک بعد عزل البابلى. ظلّ رئيسا لديوان الإنشاء بعد صرفه من الوزارة. توفى سنة ۴۷۸ ه.

كان مسلما سنيا ... لم تتجاوز أيامه فى الوزارة الأشهر.

۹- عبد اللّه بن محمد البابلی (مرة ثانیة) من التاسع من رمضان سنة ۴۵۲ ه حتی الثالث من محرم ۴۵۳ ه.

۱۰- عبد اللّه بن یحیی بن المدبر (شرف الوزراء و تاج الأصفیاء): عرفت أسرته فی الدولة العباسیة بالعراق ... کان یتصف بالأدب، هو ابن المدبر متولی خراج مصر فی أیام ابن طولون. تولّی الوزارة مرتین، و توفی سنة ۴۵۵ ه. مصری الأصل، و مسلم سنی.

۱۱- عبد الکریم بن عبد الحاکم بن سعید الفارقی (کفیل الدین و قاضی القضاة): کان والده قاضیا لطرابلس الشام، ثم انتقل إلی القضاء فی مصر، و کان أفضل من تولاه. توفی و هو فی الوزارة سنة ۴۵۴ ه. مصری الأصل، و مسلم إسماعیلی.

۱۲- أحمد بن عبد الحاکم بن سعید (ثقة المسلمین و خلیل أمیر المؤمنین): کان مثل أبیه و أخیه یعمل فی القضاء، و کان مأمونا و دینا محقا ... انتقل من القضاء إلی الوزارة، لم تحدد المدة التی قضاها فی الوزارة. ذکر التاریخ أنها سبعة عشر یوما ... مصری الأصل ...

مسلم إسماعیلی.

۱۳- الحسین بن علی بن محمد بن الحسن بن عیسی الماشلی (سدید الدولة و ذو الکفایتین): أدیب کبیر، و کاتب مبرز غزیر المادة. تولّی نظارة دواوین الشام، و کانت إقامته فی دمشق.

استدعی إلی مصر، و تقلّد الوزارة. ظلّ فی الحکم من ربیع الأول سنة ۴۵۴ حتی الثانی من شعبان من السنة المذکورة. فی عهده حدثت الواقعة المشهورة بین العبید، و الأتراک. تولّی بعد صرفه من

الوزارة دیوان الشام، ثم رحل إلی مدینة صور حیث أقام فیها عدة سنین، و عاد إلی مصر أخیرا، و أصبح المشرف العام علی شؤون الإسکندریة، ثم صرف من الخدمة. توفی سنة ۴۸۷ ه. کان مصریا و مسلما سنیا.

۱۴- البابلی: من شعبان سنة ۴۵۴ إلی المحرم سنة ۴۵۵ ه.

۱۵- أحمد بن عبد الکریم بن عبد الکریم (مجد الأصفیاء و سید الوزراء): کان مثل عمه یتولّی القضاء تارة، و الوزارة أخری. صرف من الوزارة بعد شهرین أی من ۱۳ محرّم سنة ۴۵۵ ه حتی ۱۷ صفر من العام المذکور. توفی فی دمشق.

۱۶- ابن المدبّر (للمرة الثانية) من صفر أو من ربيع الأول سنة ۴۵۵ ه حتى وفاته من جمادى الأولى من السنة المذكورة.

۱۷- عبد الظاهر بن الفضل بن الموفق فى الدين- ابن العجمى- (تاج الوزراء و الأمين المكين): اشتهر بالجرأة، و الإقدام. تولّى الوزارة غير مرة سنة ۴۵۵ ه ثم صرف، و قبض عليه فى ۲۷ شعبان من السنة المذكورة. مصرى الأصل ... مسلم سنى.

۱۸- الحسن بن أسد بن أبى كدينه (جلال الإسلام و ظهير الإمام): مثله مثل أبناء عبد الحاكم فى التردد بين الوزارة و القضاء ...

كان سيء الطبع، قاسى القلب، عرف بأنه من ولد «عبد الرحمن بن ملجم» الذى غدر بالإمام على بن أبى طالب، قبض عليه «بدر الجمالى» و سيّره إلى دمياط حيث قتل فيها ... مسلم سنى. وزارته كانت من شعبان سنة ۴۵۵ ه. حتى الخامس من ذى الحجة سنة ۴۵۵ ه.

۱۹- أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم: تولّى الوزارة للمرة الثانية فى الخامس من ذى الحجة سنة ۴۵۵ ه. حتى ۱۳ من شهر محرّم سنة ۴۵۶ ه.

۲۰- المشرّف بن أسعد بن عقيل (وزير الوزراء و أبو المكارم):

كان من صنائع «البابلى» و خاصته. و كان رئيسا لديوان الذخيرة ...

تولّى الوزارة مرتين، و أخيرا قتله «بدر الجمالى » فيمن قتل من وزراء مصر و رجالها. وزارته كانت من ۱۳ من محرّم سنة ۴۵۶ ه. حتى ۲۷ من ربيع الآخر من السنة المذكورة.

۲۱- ابن العجمى: ... تولّى الوزارة للمرة الثانية من ربيع الآخر حتى رجب سنة ۴۵۶ ه.

۲۲- الجرجرائى (للمرة الثانية): من مستهل رجب سنة ۴۵۶ ه. حتى العشر الأخير من رمضان سنة ۴۵۶ ه.

۲۳- ابن أبى كدينه (للمرة الثانية): ... من بدء العشر الأخير من رمضان سنة ۴۵۶ ه حتى الرابع من ذى الحجة من السنة المذكورة.

۲۴- الحسن بن إبراهيم بن سهل التسترى (العميد و علم الكفاءة): كان يتولّى بيت المال، قبل إسناد الوزارة إليه ... ينسب إلى «تستر» و هى بلدة من كور الأهواز فى خوذستان. تولّى الوزارة من ۴ من ذى الحجة سنة ۴۵۶ ه. حتى منتصف محرم سنة ۴۵۷ ه.

۲۵- محمد بن الأشرف بن على خلف (فخر الملک و أبو شجاع):

كان أديبا، و له كتاب «مراد البيان» فى ترتيب كتاب الدول، ولى الوزارة ليوم واحد ... عراقى الأصل، مسلم إسماعيلى.

۲۶- ابن كدينه (للمرة الثانية): و لمدة أربعة أيام، أى من ۱۷ إلى ۲۱ من شهر محرّم سنة ۴۵۷ ه.

۲۷- ابن خلف (للمرة الثانية): من ۲۱ محرّم حتى منتصف ربيع الأول سنة ۴۵۷ ه.

۲۸- هبة اللّه بن محمد الرعيانى (تاج الأصفياء و سديد الدولة): قيل إنه عراقى الأصل ... ولى الوزارة مرتين، و كل مرة عشرة أيام أى من منتصف ربيع الأول سنة ۴۵۷ ه. حتى آخره.

۲۹- ابن كدينة (للمرة الرابعة): من ربيع الآخر سنة ۴۵۷ ه.

حتى منتصف رجب سنة ۴۵۷ ه.

۳۰- المشرف بن أسعد (للمرة الثانية) ... من منتصف شهر رجب من العشر الأخير من شوال سنة ۴۵۷ ه.

۳۱- على بن الأنبارى (كافى الكفاة): كان صديق «المؤيد فى الدين» هبة اللّه الشيرازى ... داعى دعاة الدولة الفاطمية ... يقال إنه ابن الوزير الحسن بن الأنبارى. أقام شهرا فى الوزارة، و صرف فى شهر ذى الحجة سنة ۴۵۷ ه.

##PAGE=194##

۳۲- ابن كدينة (للمرة الخامسة): تولّى الوزارة من ذى الحجة سنة ۴۵۷ ه حتى/ ۲۶ صفر سنة ۴۵۸ ه.

۳۳- الرعيانى (للمرة الثانية): من ۹ ربيع الآخر حتى ۱۶ منتصف سنة ۴۵۸ ه.

۳۴- أحمد بن عبد الكريم (للمرة الثالثة): من ۴ جمادى الآخرة سنة ۴۵۸ ه، و قد صرف منها بعد أيام.

۳۵- الحسن بن سديد (تاج الرئاسة و سيد السادات): هو أخو الوزير الماشلى السابق ذكره. أقام أياما ثم صرف، سار بعدها إلى الشام مع أخيه ثم عاد أخيرا إلى مصر. مسلم سنى.

۳۶- ابن خلف (للمرة الثالثة): أقام فى الوزارة أياما ثم صرف.

۳۷- طاهر بن وزير (نفيس الدولة و سيد الكفاة): هو من أهل طرابلس الشام، كان على ديوان الإنشاء. تولّى الوزارة فى شهر جمادى الآخرة أو رجب سنة ۴۵۸ ه. أقام فى الوزارة أياما و صرف.

كان مسلما سنيا.

۳۸- محمد بن حامد التنيسى (شمس الأمم و سيد رؤساء السيف و القلم): هو من أصل «تنيس» كان ذا يسار و رفعة. وزارته كانت أيام الفوضى و الفتن ... أقام فى الوزارة يوما واحدا، و قتل بعد ذلک ... مصرى، و مسلم سنى.

۳۹- منصور بن أبى اليمن الملقب بابن زنبور (عميد الخلافة و شرف الكفاة): كان والده نصرانيا، و منصور على دينه، فلما أفضت إليه الوزارة. أسلم أقام أياما، فطالبه الجند بأرزاقهم. فوعدهم، و طمأنهم، ثم هرب أخيرا خوفا على حياته ... مصرى نصرانى.

۴۰- عبد الغنى بن نصر بن سعيد الضعيف: كان يخدم «اليازورى» فى دولته ... قبض عليه أمير الجيوش «بدر الجمالى» و نفاه إلى «قيساريّة» ثم نقله إلى «تنيس» حيث قتل فيها. بقى فى الوزارة أياما ثم صرف عنها.

۴۱- ابن كدينة: «صرف عن الوزارة للمرة السادسة، و ذلک يوم الثلاثاء الثامن المحرّم سنة ۴۵۹ ه.

۴۲- عبد الحاكم المليجى: تولّاها فى الثامن من محرّم سنة ۴۵۹ ه.

۴۳- ابن كدينة: أقام ليلتين ثم صرف.

۴۴- المليجى: أقام ليلتين ثم صرف.

۴۵- ابن كدينة: أقام إلى ۲۸ من ذى القعدة سنة ۴۵۹ ه.

۴۶- أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم (للمرة الرابعة): تولّى الوزارة من ۲۸ ذى القعدة سنة ۴۵۹ ه حتى شهر محرّم سنة ۴۶۰ ه.

۴۷- المليجى: من محرم سنة ۴۶۰ ه. حتى صفر سنة ۴۶۰ ه.

۴۸- ابن كدينة: من ربيع الأول حتى جمادى الأولى سنة ۴۶۰ ه.

۴۹- أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم: من جمادى الأولى حتى العاشر من ذى الحجة سنة ۴۶۰ ه.

۵۰- ابن كدينة: من العاشر من ذى الحجة سنة ۴۶۰ ه ... حتى ۲۳ صفر سنة ۴۶۱ ه.

۵۱- محمد اليازورى (خطير الملک): تولّى الوزارة سنة ۴۶۱ ه.

و لا يعرف متى صرف عنها. فلسطينى و مسلم سنى.

۵۲- محمد بن جعفر المغربى (للمرة الثانية): و غير معروف تاريخ توليته الوزارة، و لكنه صرف عنها فى شهر رمضان سنة ۴۶۱ ه.

۵۳- أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم: تولاها فى شهر رمضان سنة ۴۶۱ ه. و صرف عنها بعد أيام.

۵۴- محمد اليازورى (للمرة الثانية): تولاها فى شهر رمضان سنة ۴۶۱ ه. حتى شوال من العام نفسه. قتله القائد شاذى بسبب وشاية.

۵۵- ابن كدينة: من شوال إلى ذى القعدة سنة ۴۶۱ ه.

۵۶- المليجى: تولاها فى ذى القعدة سنة ۴۶۱ ه. و لم يذكر تاريخ صرفه.

۵۷- ابن كدينة: من ربيع الأول سنة ۴۶۴ ه. حتى آخر السنة.

۵۸- العجمى: للمرة الثالثة سنة ۴۶۵ ه. قتل فى رجب من السنة المذكورة ... قتله القائد «الدكز».

۵۹- ابن کدینهٔ: من ربیع الأول سنهٔ ۴۶۶ ه. حتی یوم مقتله علی ید «بدر الجمالی» فی شهر جمادی الأولی من السنهٔ نفسها.

۶۰- بدر الجمالی (أمیر الجیوش و سیف الإسلام): من ۲۸ جمادی الأولی سنهٔ ۴۶۶ حتی سنهٔ ۴۸۷ ه.

هو أرمنی الجنسیهٔ. کان مملوکا لجمال الدولهٔ بن عمار، تربّی عنده ثم خرج فیما بعد، و کان ابن عمار یعتبره من ذوی الشهامهٔ، و العزم، و الرجولهٔ. انتسب إلی الدولهٔ الفاطمیهٔ، و اعتنق المذهب الإسماعیلی کما ذکرت المصادر، و لکن المصادر الفاطمیهٔ تؤکد بأن الاعتناق المذکور لم یکن إلّا فی سبیل المناصب، و النفوذ، و المغانم. تنقل فی الرتب حتی ولی بلاد الشام ... و من الجدیر بالذکر أنه تقلّد إمارهٔ دمشق مرتین. و لما ثار علیه أهلها نقل إلی عکا ... فی تلک الفترهٔ کانت أحوال مصر تسیر من سیء إلی أسوأ. فالجیش قد تغیّر، و الجنود قد تغیروا و تبعثروا أیضا، و الفتن قد اتصلت، و تأصلت، و الوزراء یقفون بالاسم دون الأمر، و النهی، و الرخاء، و الصلاح لا وجود له فی الدولهٔ، و قبیلهٔ لواته المغربیهٔ قد ملکت الریف، و العبید استولوا علی الصعید، و الطرقات انقطعت برا، و بحرا إلّا بالخفارهٔ الثقیلهٔ، و المارقون ینوی بعضهم الاحتیال و الغدر، و یضمر کل منهم لصاحبه الشر، و القتل، و الغدر، و فی غمرهٔ هذه الأوضاع الردیئهٔ، وصلت إلیه دعوهٔ الخلیفهٔ الإمام «المستنصر باللّه» بالحضور إلی القاهرهٔ «المعزیهٔ» فجاء، و لم یلبث أن تسلّم الوزارهٔ، و القیادهٔ، و شؤون الدعوهٔ الدینیهٔ، و فی فترهٔ قصیرهٔ تمکن من القضاء علی مثیری الفتن. و رتّب الدواوین و المستخدمین و هکذا عاد الاستقرار و الازدهار إلی البلاد.

و مهما یکن من أمر ... فإن بدرا تحکّم فی الدولهٔ الفاطمیهٔ، و سیطر علی أمورها، و ردّ الغزوات عنها. فهو من الشخصیات التی لعبت دورا بارزا علی مسرح الدولهٔ الفاطمیهٔ. مات سنهٔ ۴۸۷ ه.

و مما تجدر الإشارهٔ إلیه أن الخلیفهٔ المستنصر باللّه تزوّج ابنهٔ بدر الجمالی و رزق منها غلاما سمّاه «أحمد»، و هذا الغلام ولّاه خاله «الأفضل بن بدر الجمالی» و کان قد أصبح بعد وفاهٔ أبیه قائدا للجیوش، و وزیرا أولا للدولهٔ الفاطمیهٔ، و ذلک بعد إبعاد و قتل الوصی الشرعی للخلافهٔ و للإمامهٔ «الإمام نزار» ... و بعمله هذا مثل دور

الطاغیهٔ الذی حمل معول الهدم للدولهٔ الفاطمیهٔ ... و کل هذا سنفصّله فی الأجزاء التالیهٔ من هذه الموسوعهٔ.

۶۰- الأفضل بن بدر الجمالی (سیف الإمام و شاهنشاه): ... تولّی الوزارهٔ و القیادهٔ بعد وفاهٔ والده سنهٔ ۴۸۷ ه. و من الجدیر بالذکر أنه تدرب علی شؤون الحکم و الإدارهٔ علی ید والده ... اعتبر أیضا من وزراء الخلیفهٔ الفاطمی التاسع «المستعلی باللّه» أو القیم علیه.

نلاحظ، و نحن نستعرض أسماء الوزراء الذين استخدمهم الخليفة الإمام المستنصر باللّه. أن الدولة الفاطمية إبان عهدهم كانت تسير بخطى وئيدة نحو المصير المحتوم ... فالأقاليم التابعة للدولة الفاطمية الأم، سادها الاضطراب، و الفوضى، و الفساد، و الولاة طمعوا و شجعوا الثورات، و حركات الاستقلال، و نبذ طاعة الدولة ... و فى الداخل اختل الأمن، و ضاع الاستقرار و ذهب الإخلاص، و لم تنفع الحكمة، و السياسة. فكان الوزير لا يمضى إلّا أياما فى الحكم حتى تقتله أيد مجهولة لا يعرف لها جنسية، و لا انتماء، فيذهب ضحية المؤامرات.

و فى آخر المطاف تسرّبت الأسرة الأرمنية المستأجرة إلى حرم الدولة الفاطمية، و تمّ لها تنفيذ المخطط المرسوم الذى هدف إلى القضاء على الدولة الكبيرة، و كان ذلک عند ما تزوج الخليفة الإمام المستنصر باللّه ابنة الوزير «بدر الجمالى» ذلک الزواج الذى مكنه من التحكم بالدولة و بالبلاد الفاطمية «فالأفضل بن بدر الجمالى» قد فرض و عيّن ابن شقيقته «أحمد» خليفة و إماما بالقوة. بعد أن قتل أسرة نزار، الإبن الأكبر للمستنصر باللّه و أبادها، و ولى العهد المعترف به، و الذى كان قد مضى على ولايته للعهد ما يقارب الثلاثين عاما، و قد كانت هذه المؤامرة بداية النهاية، إذ أن الدولة الفاطمية أصبحت خاضعة لأئمة غير شرعيين كانوا خاضعين لعناصر أرمنية. حتى انهارت الدولة و ذهبت ضحية الاستخفاف.

أما الأحداث التى سبقت الوقائع فيمكن اختصارها بما يلى:

فى سنة ۴۴۴ ه. هبط منسوب مياه النيل، فلوتفعت الأسعار فى مصر، و اشتد الغلاء، و فقدت المواد، و تفشّت الأمراض، و الأوبئة،

و كثر الموت فى الناس، ثم عادت هذه الموجة من جديد سنة ۴۴۶ ه.

و خلال تلک المدة اشتبه على الخليفة الإمام المستنصر باللّه أمر رجالات الدولة، و أصبح يشک فى الناس الذين يجتمعون حوله. و لا يأمن لأحد منهم.

و فى سنة ۴۵۳ ه. كثر تنقل الوزراء، و القضاة، و رؤساء الدواوين، و تضاعفت الوشايات، و برز الحسد و الجشع، و عمّت السرقات و الفساد، و اختلّ النظام و الأمن بحيث أصبح الحكم للرّعاع و للأراذل، و لأبناء الشوارع، و وقع الاختلاف بين

الجنود، و القواد، و ضعف شأن الوزراء لقصر مدة حكمهم، و خفّت الواردات، و قلّ الإنتاج، و سادت البلاد موجة طاغية من الاستخفاف بالأمور، و استمرت هذه الفترة العسيرة التى سميت الشدة العظمى، زهاء عشر سنوات.

و فى سنة ۴۵۴ ه. وقعت الفتنة الكبرى بين العبيد و الأتراک. و قيل إن «أم المستنصر» انتصرت للعبيد فكانت تمدهم بالأموال، و السلاح، و تساعدهم على الوصول إلى حقوقهم كاملة، و لكن هذا لم يجد نفعا، فانتصر الأتراک، و تمكنوا من طرد العبيد إلى الصعيد، و قد نتج عن هذه الأحداث قيام المعارک التى دمّرت كل شىء فى كل مكان، و جعلت البلاد تحت سيطرة شراذم من الجيش المنقسم على نفسه، و الخارج على النظام.

و بعد اعتقال الوزير اليازورى دخلت الدولة حالة من الاضطراب و الفوضى و خاصة حين تولى الوزارة، وزراء ضعاف، غير متمرّسين بشؤون الحكم، و كان أكثر هؤلاء لا يبقى فى الوزارة إلا أياما قليلة.

و من المشهور عن الوزير اليازورى أنه رغم خدماته للدولة الفاطمية، فقد جمع كل مظاهر القوة، و السلطان بفضل ثقة «أم المستنصر»، و كان بالإضافة إلى كل ذلک، رجلا مؤهلا للحكم، و محبا لحياة الرفاهية، ميالا للترف، و شغوفا خاصة بالفن و التصوير ... و قيل إنه أمر بصنع خيمة بلغت نفقة إقامتها ثلاثين ألف دينار، و قد اشترک فى صنعها مئة و خمسون صانعا ظلّوا يعملون فى صناعتها و تطريزها تسع سنوات، و قد صوروا عليها كل حيوانات الأرض، و طيورها.

أمّا مائدته فكان يجلس إليها كل يوم القضاة، و الفقهاء، و الأدباء،

و كانت أغنى من موائد الملوک، و كان الخليفة الإمام «المستنصر باللّه» يحضرها كل يوم ثلاثاء، و هى عادة درج عليها. و عرف عن اليازورى أنه كان أنيقا فى ثيابه، و لباسه ... و هذا البذخ استرعى الانتباه، و أثار الشكوک حول استغلاله لموارد البلاد ... ففكّر فى الهرب من البلاد حينما شعر أن الخليفة الإمام بدأ يتغيّر عليه، و قد جعل أمواله فى سبائک من ذهب هرّبها ابنه إلى الشام و قدرت بثلاثة ملايين دينار.

و لكن الوزير اليازورى كان رجلا قادرا تمكن من إدارة دفة البلاد بمهارة، و اجتاز الأزمات الاقتصادية التى تعرضّت لها البلاد، و قضى على المجاعات التى كانت تطلّ بوجهها، و قد تجلّى كل هذا عند ما داهم الغلاء البلاد المصرية سنة ۴۴۶ ه.، و عند ما هبطت مياه النيل إلى منسوب أدنى ... و فى تلک الفترة لم يكن فى مخازن الدولة إلّا ما يكفى لحاجة القصور، و ارتفعت الأسعار بشكل جنونى، و اشتدّ الأمر على الناس، و انتهز التجار فرصة إفلاس الفلاحين و عجزهم عن دفع الضرائب المترتّبة

عليهم و خاصة الخراج. فاشتروا منهم محصول القمح قبل أن يحل موسمه بسعر بخس. و حملوه بعد حصاده إلى مخازنهم. و هنا، و إزاء هذا الوضع أمر الوزير اليازورى بمصادرة هذه الغلال، و عوّض التجار عن كل دينار دفعوه دينارا آخر.

و لما جمعت الغلال فى المخازن حدّد ثمن «التليس» بثلاثة دنانير، بعد أن كان بثمانية، ثم قرر أن توزع على الخبازين فى مصر، و القاهرة ما يكفى حاجة الاستهلاك اليومى. و بهذه الطريقة اجتاز المحنة بسلام.

و بعد اليازورى عادت الفوضى، و قامت المجاعات، و استمرّت سبع سنين، وصلت فيها البلاد إلى درجة من الفاقة و العوز لم يعرف مثلها فى التاريخ ...

حتى جاء «بدر الجمالى» فأعاد تنظيم الدولة، و مرافقها، و أدخل النظام على الدوائر كافة، و أنقذ الاقتصاد من الانهيار، و قضى على الفساد المهيمن فى كل مكان، كما نظّم الشؤون المالية تنظيما دقيقا.

و سامح الفلاحين بالخراج المقرر عليهم ثلاث سنين، و فى السنة الرابعة جبى نصف الخراج، و عمّر الريف، و أصلح الترع، و الجسور حتى صلحت الأحوال، و استغنى أهل الريف، و شعروا بالأمن، و الرخاء، و الرعاية من قبل الدولة، و لأجل تأمين الرقابة الفعلية أعاد

تقسيم البلاد إداريا إلى واحد و عشرين عملا، و الأعمال إلى نواح، و النواحى إلى كفور و قرى، كما شجع أصحاب رؤوس الأموال، و ذوى اليسار على الحضور إلى مصر، فكثر ورود التجار فى تلك الأيام، بعد أن كانوا قد نزحوا عنها أيام الغلاء.

كان لهذه السياسة الحازمة أثر بارز فى عودة الرخاء إلى البلاد، فتراجعت الأسعار حتى بيع «تليس» القمح بربع دينار، كما تحسنت ميزانية الدولة تحسنا مرموقا فضلا عن انتعاش الحياة العلمية و الفكرية.

و بالإمكان أن نضيف إلى أعمال «بدر الجمالى» تشجيعه العمران، و البناء. فقد ذكر أنه جدّد جامع «العطّارين» فى الإسكندرية، و أنشأ جامع «المقياس» و «الجامع العتيق» بأسنا، و جامع «أمير الجيوش» بأعلى جبل المقطّم، و مشهد الإمام الحسين «بعسقلان» فى فلسطين، كما عمّر الجامع الطولونى و المسجد النفيس، و المسجد العمرى، و أدخل الفن ألبيزنطى على أبواب القاهرة الثلاثة: أى باب زويلة، و باب النصر، و باب الفتوح.

... إن إنجازات بدر الجمالى مهما بلغت فلا تعادل ما خرّبه ابنه «الأفضل» فى الدولة الفاطمية ...

فى سنة ۴۴۲ ه. ثار عرب «بنى قرّة» بالبحيرة على الدولة الفاطمية، و كانوا قد استقروا فيها، و ملكوها، و عمروا ضياعها، و مزارعها، و قد انضمّ إليهم «الصلحيّون»- و اشتدت شوكتهم حتى ضاق بهم ولاة الإسكندرية، و كان الوزير اليازورى قد ولّى عليهم رجلا يقال له «المقرّب»، فأنفوا من الخضوع إليه، و طالبوا بعزله، و عند ما رفض طلبهم، شقوا عضا الطاعة، فاضطرّ الإمام المستنصر باللّه أن يجرد عليهم حملة عسكرية، ثم أتبعها بأخرى، فالتقت بهم «بكوم شريک» ... و هناک دارت الدائرة عليهم، و اضطروا إلى الفرار هم «و الصلحيّون» إلى برقة، ثم انقطع أثرهم بعد ذلک فى منطقة البحيرة.

و لما كانت مهمة الجند فى أعمال البحيرة هى الحفاظ على الأمن، و هذا يكلف الدولة نفقات باهظة، فإن اليازورى أرسل إلى «بنى سينس»

و هم قبيلة تنتسب إلى «طى» و كانت تقيم فى «الداروم» جنوبى غزة، فأقطعهم أراضى و ديار «بنى قرّة» و بذلک محى كل أثر لهم.

و نعود إلى بدر الجمالى ... فنقول إنه من سنة ۴۶۶ ه. إلى سنة ۴۶۹، ظلّ يتتبع المفسدين من الأمراء، و القواد و الأعيان الذين تمرنوا على الفساد، و أعمال الفتن، و خلق الاضطرابات. فكان أول عمل قام به من هذا النوع هو القضاء على الأمراء الأتراک. فقتل معظمهم فى وليمة أولمها لهم. ثم قبض على الباقين حيث أودعهم السجون. و بعد ذلک خرج إلى الوجه البحرى سنة ۴۶۷ ه. فقضى على قبيلة «لواتة» البربرية، و استصفى أموالها، و يقال إنه قتل منها عشرين ألفا، ثم توجه بعد ذلک إلى «دمياط» فقضى على المفسدين فيها ثم عبر إلى البر الغربى، فقتل العديد من الطائفة «الملحية» حتى وصل إلى الإسكندرية، فاستأصل المفسدين فيها. و بعد ذلک ذهب إلى الصعيد حيث اجتمع عليه بمدينة «طوخ العليا» جماعة من عرب «جهينة» و «الثعالبة» و «الجعافرة» لقتاله ... فسار إليهم، و طوقهم ليلا حتى أفنى أكثرهم قتلا، و قد غرق من فرّ منهم، و صادر أموالهم ... و من هناک سار إلى «أسوان» حيث قضى على ثورة «كنز الدولة- محمد بها» كما قضى على عرب «قيس» و «سليم» و «نزارة» و طرد كل من بقى منهم إلى برقة. و فى تلک الفترة وصلت إليه أوامر الخليفة الإمام المستنصر باللّه بالعودة إلى القاهرة «المعزية» لمواجهة خطر «أتسز» صاحب دمشق الذى قاد حملة جبارة، و أقبل يريد الاستيلاء على مصر لإقامة الدعوة العباسية فيها، و لكن «بدر الجمالى» عاد، و استقبله، و خاض معه عدة معارک انتهت بهزيمته شر هزيمة، و لكن لم يتم ذلک إلّا بعد أن عاثت جيوشه خرابا فى ريف مصر.

مرّ معنا أن الولاية الفاطمية فى المغرب كانت معقودة اللواء «للمعز بن باديس آل زيرى الصنهاجى» حتى عهد الخليفة السابع الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه.

و فى سنة ۴۴۳ ه خلع «المعز بن باديس» طاعة الفاطميين نهائيا، و أعلن الولاء للعباسيين، و كان يضطلع بشؤون الوزارة فى ذلك العهد اليازورى الذى كان فى باطنه يضمر العداء للمعز المذكور، و هنا أشار

##PAGE=202##

اليازورى على الخليفة الإمام المستنصر باللّه إرسال القبائل العربية المعروفة، «بنى هلال» و «زغبة» و «رباح» و «ربيعة» و «عدى».

و كانت موجودة فى الأراضى المصرية، و لما كانت تعيش حياة الفوضى، و لا تتمسك بالأنظمة أو تخضع للقوانين، فإن الإمام المستنصر باللّه رأى إرسالها إلى المغرب للاستيلاء عليه و اجتمع إلى رؤسائها و أزال كل ما بينهم من خلاف، كما ألزم الدولة بدفع الديّات المستحقة على بعض هذه القبائل، ثم أجزل لأمرائها العطاء، و زودها . بكل ما تحتاج إليه من مال، و عتاد، و سلاح، و أمرها بالمسير إلى المغرب بعد أن أمّر عليها «الحسن بن على بن ملهم بن دينار العقيلى» ليكون قائدها و مندوبا من قبله عليها، و ليكون حلقة الوصل بينها و بينه.

فلما علم المعز بن باديس بالمؤامرة سار إليهم قبل أن يتحركوا من «برقة»، فدارت المعارك الطاحنة بينهم و بينه، و لكنهم هزموه، و اندفعوا وراءه، و هو يتراجع حتى «المهديّة» بالمغرب ... و هناك طوقوها، و تمكنوا أخيرا من احتلالها، و الاستيلاء على قصور «الزيريين»، و على الأثر عاد «على بن ملهم» إلى القاهرة «المعزية» محملا بالأسلاب، و الغنائم التى نهبت من قصورهم، و من قصور الأمراء الموالين لهم، و من قصور القواد، و الولاة أيضا.

هذه الهجرة العربية إلى المغرب، أو بلغة أصح هذا الغزو العربى تبعته غزوات أخرى من عرب بنى هلال و أحلافهم الذين آثروا اللحاق فيما بعد بأخوتهم، و أبناء عمومتهم، بعد أن اطمأنوا إلى نجاحهم، و استملاكهم الأراضى الواسعة، و المدن الكبرى. هذا و من الجدير بالذكر ... أن جميع القبائل العربية التى كانت تقيم فى المغرب أعلنت عن ولائها و تأييدها و شاركت بالمعارك ضد البربر، و قد كان لهذا الفتح العربى صداه الطيب فى مصر، حتى أن الخليفة الإمام «المستنصر باللّه» كان يتلقى القرارات العليا

فيوافق عليها، و يباركها، و منها التقليد بتولية «موسى بن يحيى المرداسى» القيروان و باجه و زغبة و طرابلس، و قابس. و بتولية «الحسن بن سرحان» «قسطنطينة».

هذه الحركة التى انتهت باستيلاء العرب على المغرب، و اقتسامه و تدمير كل شىء غير عربى فيه، قد جعلت آل باديس الصنهاجيين

##PAGE=203##

يهرعون إلى تأدية الأتاوات، و الضرائب للعرب الذين ملكوا الأرباض و المدن. أما بالنسبة للخليفة الإمام المستنصر باللّه، فقد نفّذ مهمة تعريب المغرب، و أصبح حكامه العرب يدينون له بالولاء و الطاعة، فاعتبر المؤرخون أن هذه الثورة أحدثت فى تلك البلاد تعديلا جنسيا، و عنصريا بحيث امتزج العرب فيما بعد بأهل المغرب، و أصبح هذا القطر معروفا بعروبته، و يعود الفضل فى ذلك إلى الخليفة الإمام المستنصر باللّه الفاطمى.

تذكر بعض المصادر: أن المعز بن باديس قد ندم على ما فعل ... و بعد ذهاب الوزير اليازورى سنة ۴۵۲ ه. عاد، و اتصل بالخليفة و الإمام المستنصر باللّه طالبا منه الصفح. و يذكر التاريخ أنه أرسل إليه هدايا ثمينة، و منها أوراق مرصعة بالجوهر كانت للخليفة الفاطمى الأول «عبد اللّه المهدى»، و لكن الاضطرابات التى عمّت البلاد فى أواخر عهد الإمام المستنصر باللّه، جعلت العلاقات تصاب بفتور، و أخيرا بالانقطاع.

و ذكرت المصادر الفاطمية: أن يحيى بن باديس عاد سنة ۵۰۱ ه إلى طاعة الفاطميين، و لما مات خلفه ابنه على سنة ۵۰۹ ه. و قد أرسل إليه الخليفة الفاطمى الآمر وقتئذ رسولا من قبله ليحمل إليه التهانى. و التبريكات.

فى ديار الشام

مرّ معنا أن الخليفة الفاطمى السابع الإمام «الظاهر لإعزاز دين اللّه» قد استعان بالقائد «أنوشتكين الدزبرى»، و عهد إليه قيادة حملة عسكرية لاستعادة سيطرة الفاطميين على الشام، فخرج سنة ۴۲۰ ه. متوجها بادىء ذى بدء إلى «الرملة» ثم إلى «بيت المقدس» و هناك التقى بالخارجين قرب «الأقحوانة- طبريا» فتمكن بعد معارك عدة من قتل «صالح بن مرداس» و ابنه الأصغر، و هرب «إحسان بن الجراح» إلى الإمبراطور البيزنطى.

وصل «الدزبرى» إلى دمشق، و مكث فيها متحينا الفرص للاستيلاء على حلب، و فى سنة ۴۲۹ ه. استولى عليها، و أصبح الحاكم المطلق فى ديار الشام كلها، و لكن العلاقات ساءت بين الوزير الجرجرائى و الدزبرى، فاتهم الأول الثانى بمحاولة الاستقلال بالحكم، و لهذا ألّب

##PAGE=204##

عليه جيشه، و أغرى بعض القادة العسكريين على الخروج عليه، فحاول الدزبرى قتال المنشقين و لكنه فشل. فخرج إلى «بعلبک» و لكن واليها منعه من الدخول، ثم قصد «حماه» فصدّ عنها أيضا. فسار إلى «حلب» و دخلها بمساعدة «المقلّد بن منقذ الكفرطابى» سنة ۴۳۳ ه. و لما عاد إلى دمشق وصل سجل الخليفة الذى يتهمه فيه بالخيانة. فأرسل يستعطفه دون جدوى، و عند ما يئس رجع إلى حلب، و عكف على الشراب حتى مرض من الحزن، و مات سنة ۴۳۳.

بعد الدزبرى عاد الأمن يختل من جديد فى ديار الشام، و أخذ العرب يعيثون فسادا، و استبدّ حسان بن مفرج الطائى بفلسطين، و قام «الحسين بن حمدان» ناصر الدولة متولى دمشق من قبل الفاطميين يعمل لمنع وقوع دمشق فى أيدى العرب ثم إنه هاجم حلب بقصد انتزاعها من ثمال بن صالح بن مرداس، و لكنه عاد خائبا و من المعروف أن ثمال ظلّ محتفظا بحلب حتى جاء «المؤيد فى الدين»- هبة اللّه الشيرازى- داعى الدعاة، فأعاده إلى الحظيرة الفاطمية، و بعد ابن حمدان تولّى الحكم فى الشام «مظفّر الصقلبى» فقبض على ابن حمدان و اعتقله فى مدينة صور ثم فى الرملة، و فى هذه الفترة خرج «رفيق الخادم» بعسكر عدته ثلاثين ألفا بقصد محاربة بنى مرداس، و لكنهم ظفروا به، و سجنوه فى قلعة حلب، ثم أفرج أخيرا عن ابن حمدان، فذهب إلى القاهرة، و مات فيها.

أما أسرة بنى مرداس: فبعد ثمال تسلّم الحكم «عطية بن صالح بن مرداس» «أبو ذؤابة» و كان أخوه قد أوصى له بذلک سنة ۴۵۲ ه.

و لكن ابن أخيه «محمود بن شبل الدولة نصر بن صالح» انتزعها منه، فسار «عطية» إلى الرقة، و ملكها، و ما زال فيها حتى أخذها منه «مسلم بن قريش» سنة ۴۶۳ ه.

و مما تجدر الإشارة إليه أن «حلب» ظلّت على أوضاعها المتقلبة كما ذكرنا حتى استولى أخيرا عليها «ألب أرسلان» السلجوقى سنة ۴۶۳ ه.

هذا بالنسبة لحلب. أما الشام، فإن اضطراب الأحوال فى مصر جعل السلاجقة يتطلعون إليها، فجردوا حملتهم المشهورة سنة ۴۶۵ ه.

و بدأوا باحتلال المعاقل و البلدان، و عند ما استقرّت الأحوال فى الديار

##PAGE=205##

المصرية، وجّه الفاطميون الجيوش لاستعادة دمشق، لكنها عادت دون أن تتمكن من احتلال أى بلد. فأعادوا الكرة، و هنا استعان حاكمها بتاج الدولة «تتش بن ألب أرسلان» فجاء «تتش» إلى دمشق، و هزم الفاطميين ثم استولى على دمشق و قتل «اتسز» كما زحف إلى بعلبک، و أزال عنها الحكم الفاطمى.

و كنا قد ذكرنا أن «أتسز» قطع خطبة الفاطميين من ديار الشام، و لم تعد الخطبة إليها بعد ذلک، كما أنه حاول الاستيلاء على مصر نفسها، فهاجمها سنة ۴۶۹ ه. منتهزا فرصة انشغال «بدر الجمالى» فى القضاء على الفتن، و الثورات فى الصعيد. فاستولى على «الدلتا» و لكن بدرا عاد إلى القاهرة، و هاجم «اتسز» و ألحق بجيشه هزيمة منكرة، و عندئذ فرّ إلى الشام بمفرده- و فى تلک الفترة ثار عليه أهل غزة، و الرملة، و بيت المقدس، إلّا أنه استطاع إخضاعها بالسيف فيما بعد.

و قاد «بدر الجمالى» حملة لفتح دمشق سنة ۴۷۸ ه. فحاصرها مدة و قاتل. إلا أنه لم يتمكن من دخولها، فعاد إلى مصر. و فى سنة ۴۸۲ ه. أرسل قائده ناصر الدولة، فاحتل مدن الساحل: صيدا، و صور، و عكا، و جبيل، ثم احتل بعلبک. و هنا حاول السلاجقة استعادة ما استولى عليه الفاطميون، ثم مهاجمة مصر نفسها، فاجتمعت جيوش «تتش» فى دمشق، و جيش «اقسنقر» فى حلب و «بوران» فى الرها، و تعاهدوا على اللقاء فى حمص سنة ۴۸۵ ه. و بدأوا باحتلال بعض القلاع الفاطمية، و لكن هذه الحملة فشلت أمام طرابلس الشام نتيجة مساعى صاحبها «على بن عمار».

و توفى الخليفة الإمام «المستنصر باللّه» و ليس للفاطميين إلّا بعض مدن الساحل فى بلاد الشام. و بالنسبة للسلاجقة فإن الخلاف لم يلبث أن دبّ بينهم، فوقع النزاع بين تتش، و ابن أخيه «برکيارق» و ذلک سنة ۴۸۶ ه، و أدّى إلى قيام الحرب بينهما و انتهت هذه الحرب بمقتل «تتش» سنة ۴۸۸ ه. فاقتسم ابناه «دقاق» و «رضوان» أملاک أبيهما. فاستقل رضوان بولاية حلب، و دقاق بدمشق، و كانت الفرصة مهيأة فى هذه الفترة لاستعادة الشام و حلب للفاطميين لو لا وقوع الفتنة الكبرى بعد وفاة الخليفة المستنصر باللّه.

##PAGE=206##

امتدّ سلطان الفاطميين فى عهد المستنصر باللّه، إلى الشام، و فلسطين، و الحجاز و اليمن، و شمال أفريقيا، و صقلية، و كان اسمه يتردد فى الجوامع الإسلامية من المحيط الأطلسى غربا حتى البحر المتوسط شرقا. و هكذا بالنسبة لصقلية، و لكن بعض هذه البلدان لم تلبث أن خرجت الواحدة تلو الأخرى، و أوّلها صقلية التى استولى عليها «روجردز» الرومى كما ذكرنا، ثم تبعتها المدن الأخرى فى الشرق و الغرب.

لقد كان ذلک بداية النهاية كما قلنا. فالدولة الفاطمية كانت فى طريقها إلى الانهيار، و الزوال، و يعتبر عهد المستنصر باللّه عهد الشيخوخة الذى ينتهى بصاحبه إلى القبر، و كل هذا ظهرت آثاره واضحة منذ أن تسلّم الأرمنى المتآمر زمام الأمر فى الدولة الفاطمية.

سقوط بغداد

الدعوة الفاطمية قديمة فى المشرق، و يعتبر المشرق ساحتها و المسرح الذى مثلت عليه أدوارها. فالدعوة الإسماعيلية كما هو واضح لم تتوقف عن العطاء منذ أن كان مركز انطلاقها فى مدينة سلمية- فى سورية فى عهد الأئمة المستورين، و بعد أن تمركزت فى المغرب فالديار المصرية ... ازداد نفوذها، و تضاعف، و اتسعت الدعوة و أصبحت ترتكز على أسس متينة، و دعائم قوية.

أما الآن فاستيفاء للبحث عن عهد الخليفة الإمام المستنصر باللّه، لا بد من إعطاء لمحة عن الدعوة الإسماعيلية فى بلاد فارس، و العراق، و عن الدور الكبير الذى قام به الفيلسوف الداهية المؤيد فى الدين «هبة اللّه الشيرازى» داعى الدعاة. فهذا العبقرى تمكن بدهائه و مرونته من إعادة حلب إلى الدولة الفاطمية، و إحداث انقلاب عسكرى فى بغداد استهدف الخليفة العباسى القائم، و قد التحقت آنئذ العراق بالدولة الفاطمية فى مصر، و ظلّ هذا الوضع قائما مدة عام و نيف.

و لو أن المخطط الذى وضعه هذا الداهية نفذ، و لو أن القائمين على شؤون الدولة الفاطمية العليا أعاروا آراءه و نصائحه ما تستحق ...

إذن لتغيّر وجه التاريخ.

أجل ... لا يستطيع الباحث فى التاريخ، و هو يعرض أحداث الماضى، و سير حياة العظماء الذين لعبوا دورا مهما على مسرح الحياة إلّا أن يعرّج و لو هنيهة على رحاب علم من أعلام الأدب، و الفلسفة،

و الخطابة، و داهية من دهاة السياسة استطاع بمرونته، و عبقريته و صبره أن يحدث انقلابا عسكريا فى أكبر دولة عرفها ذلک العصر، و أعنى بها الإمبراطورية العباسية، ذلكم هو المؤيد فى الدين، و داعى دعاة الفاطميين «هبة اللّه الشيرازى» الذى ولد فى بلاد فارس فى القرن الرابع للهجرة، و المعروف فى تاريخ الأدب العربى بمناظرته مع «أبى العلاء المعرى». و بالرغم من أن المؤيد فى الدين فارسى الموطن إلّا أنه عربى الأصل، و قد عرف عنه بأنه وفد على مصر، و أقام فيها ثلاثين عاما و نيف حيث أنشد فى ربوعها أرق قصائده، و ألقى أروع محاضراته الفلسفية أو «مجالسه»- كما سمّاها- على الطلاب و الراغبين، و المستجيبين. فأثّر فى الحياة العقلية، و السياسية، و الأدبية تأثيرا لا حدود له.

و لم تقف فى سبيله، أو تمنعه من الانصراف إلى حقل السياسة العليا للدول الإسلامية، قضايا الأدب، و الشعر، و الفلسفة، و لعله سار على غرار ابن سينا، و أبى عبد اللّه الشيعى و منصور اليمن و غيره من الدعاة الإسماعيليين الذين جمعوا بين العلم و السياسة:

هو: «هبة اللّه بن أبى عمران بن داؤد ...» ولد فى شيراز سنة ۴۱۰ ه. والده كان حجة فارس فى عهد الخليفة الفاطمى السادس «الحاكم بأمر اللّه» و كل ما عرف عنه يتلخص فيما قاله المؤيد فى الدين عن نفسه بمذكراته:

«إن والدى كان فى هذا البلد متسما بهذا الاسم، و مرتسما بهذا الرسم، و كان له من المكنة، و اليد، و القدرة ما كان يغنيه أن يطأ عتبة الباب، أو يقاسى ذل الحجاب، و كان فى عهده الوزير «أبو غالب الواسطى» الملقب بفخر الدولة و وزير الوزراء، و المعروف باتساع مكنته، و انبساط يده، و نفوذه، فلم يعهد والدى قط داخلا إليه، أو مسلما عليه، بل كان هو يزوره، و يغشاه فى منزله».

من هنا ... يتبين أن والد «المؤيد فى الدين» كان داعيا فى إقليم فلوس، و أنه كان على جانب كبير من عزة النفس و المكانة حتى أن الوزير الواسطى كان يزوره فى منزله دون أن يزوره هو فى منزله أو فى إيوانه.

تبوأ المؤيد فى الدين بعد وفاة والده مرتبة داعى إقليم فارس، و بدأ نشاطه بأن اتصل بالملک البويهى «أبى كاليجار» الذى كان فى بدء

حياته يكره الشيعة ثم أصبح فاطميا بعد اتصال المؤيد به، و خاصة بعد أن حضر مجالسه العلمية، و استمع إلى مناظراته مع علماء «المعتزلة» و «الزيدية» و «أهل السنة» ... تلك المناظرات التى كان يتفوق بها على مناظريه، و يفحمهم بالأدلة، و البيانات، و الحجج الدامغة. و كل هذا عجّل بانتفاضة الأعداء عليه، و حسدهم، و خاصة طبقة العلماء، و رجال الدين، و القضاة.

و فى تلك الفترة شاءت الظروف أن يتصدع أركان أحد المساجد فى مدينة الأهواز، فيذهب المؤيد فى الدين للإشراف على ترميمه و تجديده، و تجرأ و أمر بنقش أسماء الخلفاء الفاطميين بالذهب على محرابه و أبوابه، كما أقام خطبة الجمعة باسم الخليفة الفاطمى المستنصر باللّه، مما أثار حفيظة قاضى الأهواز ابن المشترى، فأرسل كتابا إلى الخليفة العباسى «القائم» فى بغداد ينعى فيه الدولة العباسية و يؤكد سقوطها فى أيدى المؤيد فى الدين، فأرسل على الأثر «القائم» العباسى وزيره «على بن الحسن» المعروف «بابن المسلمة» إلى شيراز مع كتاب إلى «أبى كاليجار» يهدده بالاستعانة «بالسلاجقة» و إغرائهم بالاستيلاء على ما يمتلكه من البلدان إذا ظلّ المؤيد فى الدين فى فارس، فخاف «أبو كاليجار» عاقبة الأمور، و كان من أمره أن أوعز إلى المؤيد فى الدين بالخروج من شيراز، و لما لم يجد هذا بدا من الهجرة، سار إلى مصر متخفيا، و متجنبا الطرق العامة، و سالكا البرارى، و القفار حتى لا يقع بأيدى الكمائن التى أعدها له العباسيون، حتى وصل إلى القاهرة «المعزية».

أجل ... خرج المؤيد فى الدين من شيراز. فى فارس يتحمل لفح الهجير و الزمهرير ماضيا إلى غايته مسرعا دون أن يكون له فى رحلته الشاقة صديق أو رفيق ... إن أشرق الصباح توارى خائفا، أو جن الليل سار متحرزا، و فى الحالتين لا ينى عن التفكير فى ماضيه، و حاضره، و مستقبله، و كانت تلك الفترة من أكثر الفترات فى حياته ألما.

خرج المؤيد فى الدين من شيراز، و هو يتطلع إلى بغداد شزرا ...

و كان يعلم أن الخلافة العباسية لا تزال ترتجف هلعا عند سماع اسمه، و أن ساستها يتسقطون أخباره، فلقد أزعجهم تحليقه كالنسر الذى لا يعشق إلّا الذرى و القمم العالية.

و حطّ الرحال أخيرا فى القاهرة المعزية، و كانت آماله بأن الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر باللّه سيوليه عطفه، و يدنيه، و يكافئه على جهاده، و ينيله كل ما يتمناه، و لكن أنّى له الاتصال به؟ فالخليفة مشغول عنه بالخلافات، و الانشقاق الداخلى الذى ذرّ بقرنه فى صفوف حاشيته، و وزرائه، و قواده، و جعلهم يعدمون رشدهم، و يكيدون لبعضهم البعض. و يتآمرون على مصلحة

الدولة الكبرى، و على قضية البلاد العليا، هذا فضلا عما نجم من انتفاضات فى الأقاليم، و المناطق الفاطمية فى المغرب، و الحجاز، و صقلية، مما جعل كيان الدولة مهددا فى أغلب الأحيان و قد أوحى للمؤيد فى الدين هذه الأبيات:

إلهى أحاط اليأس من كل جانب — بنا و بنا ضاقت جميع المذاهب

غدونا بجور الدهر مأكل آكل — و صرنا بمسّ الضرّ مشرب شارب

غدت دعوة الأطهار من آل فاطم — شموسّ الهدى الشمّ الكرام المناسب

مبلبلة من قصد ناس مغالب — مزلزلة من كيد رجس المناصب

... وجد المؤيد فى الدين فى مصر أن أمر الدولة الفاطمية فى أيدى حفنة من الوزراء الوصوليين المستغلين. ففكر غير مرة فى الرحيل عنها، و لكنه اصطدم برغبة الخليفة فى البقاء، و الانتظار، و الصبر ...

فقدر عليه أن يعيش وسط الدسائس، و الوشايات، و المؤامرات. فكان يقرّب تارة، و تارة يبعد ... فهو بين الرضى و الغضب ... بين المد و الجزر، و هكذا فإن العباقرة فى كافة الأزمنة، و العصور، يتعثرون، و يحوطهم الحاسدون، و تطوقهم الغايات، و الأهواء، و السحب الدكناء، و العواصف الهوجاء.

و مهما يكن من أمر ... فإن المؤيد فى الدين عند ما وصل إلى القاهرة المعزية و استقرّ فيها تقرّب من «أبى سعيد هرون التسترى» و اتخذه واسطة للوصول إلى الخليفة «المستنصر باللّه»- و التسترى كما ذكرنا فى الصفحات السابقة كان مربيا لوالدة الخليفة، فمن هذه الجهة كان واسع النفوذ، و قابضا على أمور الدولة يتصرف بها كيفما شاء، و فوق ذلك فقد تسلّم نظارة الخاصة لأم الخليفة ... و لكنه ماطل و سوّف، و لم ينجز وعده.

و أخيرا قتل هذا الرجل سنة ۴۳۹ ه. بمؤامرة دبرها الوزير الأول

«صدقة بن يوسف الفلّاحى» فكان هذا الحدث مدعاة للمؤيد فى الدين لكى يتصل بهذا الوزير الذى بادر إلى تعيينه ناظرا على المجلس الخاص الذى يدخل منه الخليفة على والدته، و كان غرضه من هذا التعيين إفساح المجال أمامه لمقابلة الخليفة الإمام، و التحدث إليه، و لكن الظروف شاءت أن تبقى أبواب الخليفة موصدة فى وجهه ... مما جعله يرسل إليه هذه الأبيات:

أقسم لو أنک توجتنى بتاج کسرى ملک المشرق

و نلتنى کل أمور الورى من قد مضى منهم و من قد بقى

و قلت أن لا نلتقى ساعة أجبت يا مولاى أن نلتقى

لأنّ إبعادک لى ساعة شيّب فؤادىّ مع المفرق

فأجابه الخليفة الإمام المستنصر باللّه على الفور:

يا حجة مشهورة فى الورى و طود علم أعجز المرتقى

ما أغلقت دونک أبوابنا إلّا لأمر مؤلم مقلق

و لا حجبناک ملالا فثق بعهدنا و ارجع إلى الأليق

شيعتنا قد عدموا رشدهم فى الغرب يا صاح و فى المشرق

فانشر لهم ما شئت من علمنا و کن لهم کالوالد المشفق

إن کنت فى دعوتنا آخرا فقد تجاوزت مدى السبّق

مثلک لا يوجد فيما مضى من سائر الخلق و من قد بقى

و فی سنهٔ ۴۴۰ ه. عزل الوزیر «الفلّاحی» و سجن ثم قتل أخیرا انتقاما للتستری فولی بعده الیازوری الوزارهٔ الأولی، فکان حاله مع المؤید فی الدین حال الرجل الذی یخافه و یحسب له الحساب ... من جههٔ ثانیهٔ اعتبر وجوده قریبا من الخلیفهٔ، و والدته أمرا یعکّر علیه صفو عیشه، و ربما أفسد العلاقات بینه، و بین الأسرهٔ الحاکمهٔ، و هذا ما جعله، یعجّل بنقله إلی وظیفهٔ رئاسهٔ دیوان الإنشاء.

و هنا تبدأ حیاهٔ المؤید فی الدین السیاسیهٔ. فیباشر نشاطه، و اتصالاته، و تطلعاته، و لکن معارضهٔ رجال الحاشیهٔ برزت للعیان من جدید متخذهٔ أعنف المواقف ... فقد ساءهم أن یصل هذا الرجل «الأعجمی» الغریب إلی هذا المنصب الکبیر الحسّاس بهذه السرعهٔ، کما آلمهم ظهور الحقیقهٔ واضحهٔ. و قد عرف المؤید فی الدین کل هذا، و کان لسانه یردّد:

أنا فی دار غربهٔ و حقیق غیر بدع إن ذلّ فیها الغریب

##PAGE=211##

و یقول:

قد کنت افترس الأسود بفارس و الآن تنهض لافتراسی الشاهٔ

و مهما یکن من أمر ... فإن المؤید فی الدین بعد تسلمه المنصب المذکور تحسنت حالته المعیشیهٔ، فتمکن من العمل، و التفکیر، و التخطیط ... فأجری الاتصالات بالعراق، و الشام، و فارس، و أرسل الرسل إلیها لاستطلاع الأخبار، و الأحداث، و الوقوف علی کل ما یجری فی بلاط الدولهٔ العباسیهٔ، و بعد دراسهٔ مستفیضهٔ رأی بثاقب نظره، أن «الترکمانیهٔ» فی العراق إذا ما تمکنت من السیطرهٔ علی الحکم فإن مصالح الدولهٔ الفاطمیهٔ تتعرض للأخطار، و خاصهٔ البلدان و الأقالیم الواقعهٔ فی الشام، و حلب، و أعالی الجزیرهٔ. فهرع إلی الخلیفهٔ «المستنصر باللّه» و أطلعه علی هذه الحقائق، و هنا أطلق الإمام المستنصر باللّه یده فی المشرق، و وضع تحت تصرفه الإمکانیات المادیهٔ، و المعنویهٔ باعتباره خبیرا بأحوال المشرق عامهٔ، و عارفا بأموره و أوضاعه،

و هذه البادرة شجعته على العمل، و بذل المساعى للقضاء على الدولة العباسية و على خلفائها الذين ناصبوه العداء، و شردوه من أوطانه.

و تشاء الظروف فى تلك الفترة أن يزداد نفوذ القائد البويهى «أبى الحارث أرسلان البساسيرى» لدى «القائم» العباسى، و لما كان المؤيد فى الدين على علاقة وثيقة و قديمة به فإنه أجرى اتصالا، جديدا به و اتفقا على خطة للعمل، و تقرير سياسة معينة تهدف إلى الإطاحة بالحكم العباسى، و إبعاد هذه الطغمة عن الحكم فى العراق. و بعد مشاورات، و دراسات تمّ الاتفاق بينهما على الاجتماع فى العراق.

فاستأذن المؤيد فى الدين الخليفة الإمام المستنصر باللّه الذى استجاب له، و زوّده بالأموال، و الخلع، و الهدايا، و الألقاب ... و هكذا سار ميمما شطر المشرق.

فى الشام جنّد المؤيد فى الدين ثلاثة آلاف رجل من قبيلة «بنى كلب» و أرسلهم إلى الرحبة ليكونوا تحت إمرة البساسيرى، و فى حمص ضرب بأوامر الوزير اليازورى عرض الحائط، و كان هذا قد أمره بعدم الاتصال «بالمرداسيين» أصحاب حلب، فأرسل إلى «ثمال بن صالح بن مرداس» كتابا دعاه فيه إلى الاجتماع، و بالفعل تمّ اللقاء فى

«موقع الرستن» الواقع على ضفاف نهر العاصى بين حمص و حماه، و هنا تمكن بحسن سياسته، و بعد نظره و دهائه، من استمالته بعد أن كان قد أعلن استقلال حلب عن الدولة الفاطمية، ثم عقد معه اتفاقا على العمل العسكرى المشترك، و سارا معا إلى حلب، و فى معرة النعمان وافاهم بعض ضباط البساسيرى لمرافقة المؤيد فى الدين إلى العراق، و بعد أن أقام فى حلب مدة قصيرة سار إلى الرحبة و معه «ثمال» و فى الطريق وصل إليهم رسول «نصر الدولة أحمد بن مردان» صاحب ميافارقين و ديار بكر، و كان يحمل رسائل التأييد، و الترحيب.

وصل المؤيد فى الدين إلى الرحبة، و فيها خرج البساسيرى مع أركان حربه- و جنوده لاستقباله، فحمل لهم المؤيد فى الدين تأييد الخليفة الإمام المستنصر باللّه، و عطفه، و دعمه، و تأييده، و بعد أن عرضت الأمور، و درست الأوضاع اتصل «بنور الدولة» الأمير دبيس بن فريد الأسدى صاحب «الحلة»، و أمير العرب على بلاد ما بين النهرين، فأقنعه بضرورة اللحاق بالبساسيرى، و وضع قواته تحت إمرته، و بعد أن تمّ كل شىء على غاية ما يرام، زحف البساسيرى على بغداد و كان ذلك سنة ۴۴۸ ه و لكن «قتلمش» ابن عم القائد «طغرلبك» و «قريش بن بدران» صاحب الموصل اعترضا جيشه فى «سنجار» و هى

على مقربة من الموصل، فنشبت بينهم المعركة المشهورة التى انتهت بانتصار البساسيرى و هزيمة الأعداء. و مما يجب أن يذكر أن «قتلمش» قتل فى المعركة بينما لجأ قريش إلى الأمير دبيس، فعفا عنه، و ضمّه إلى جيشه، بعد أن منح لقبا فاطميا بالاتفاق مع المؤيد فى الدين.

و هذه المعركة أوحت للشاعر «ابن حيوس» هذه الأبيات:

عجبت لمدعى الآفاق ملكا و غايته ببغداد الركود

و من مستخلف بالهون يرضى يذاد عن الحياض و لا يذود

و أعجب منهما سيف بمصر تقام به بسنجار الحدود

كان المؤيد فى الدين من شهود المعركة الحاسمة، و عند ما حقق البساسيرى الانتصار الأول طلب إليه المؤيد فى الدين أن يتريث بالزحف على بغداد، ثم عاد إلى حلب، و غايته إرسال المزيد من الجند إلى البساسيرى من القبائل العربية فى الشام، و الجزيرة، و كان قد

لمس ترددهم فى البداية. فنزل فى «بالس» و فيها تمكن من الاتصال بشيوخ «بنى عقيل» و «بنى كلاب» و «نمير» و «خفاجة». فأقنعهم، و استمالهم، و جندهم، و لم يغادر المكان إلا بعد أن ساقهم إلى البساسيرى.

كانت ردود الفعل لدى «القائم» العباسى عنيفة، و خاصة عند ما وصلته أخبار معركة «سنجار» و انهزام جيوشه، و مقتل قواده، فأوعز إلى القائد «طغرلبك» بتسلم القيادة العامة، و التصدى للبساسيرى، و لكن المؤيد فى الدين الداهية تمكن فى تلك الفترة من إغراء «إبراهيم بن نيال» أخى «طغرلبك» لأمه، فأمده بالمال الوفير، و شجعه على القيام بثورة ضد أخيه، و انتزاع القيادة منه، و بالفعل وقع ما كان ينتظره «المؤيد فى الدين» و انقسم جيش «التركمانية» إلى فريقين متحاربين، و هذا ما شجع البساسيرى على الإسراع بالزحف، فدخل بغداد سنة ۴۵۰ ه. و رفع على شرفات قصورها الأعلام الفاطمية، و كان أول شىء فعله قتل الوزير «ابن سلمة» فأخرج من محبسه مقيدا و كانت عليه جبة من صوف، و طرطور من لبد أحمر، و فى رقبته مخنقة

جلود بعير، فبصق أهل الكرخ فى وجهه عند اجتيازه بهم لأنه كان يتعصب عليهم، و عند ما وصل إلى العسكر «البساسيرى» نصبت له خشبة، و أنزل عن الجمل ثم ألبس جلد ثور، و جعلت له قرون فى رأسه، كما وضع فى فكيه كلّابان من حديد، و صلب فظلّ يضطرب حتى مات فى آخر النهار.

أما بالنسبة للخليفة العباسى «القائم» فإن البساسيرى أمر باعتقاله و اشترط عليه التنازل عن الخلافة للفاطميين لقاء الإبقاء على حياته، فرضى بذلك و وقع وثيقة اعترف فيها بأنه لا حق له، و لا لأحد من العباسيين فى الخلافة، و أن هذا الحق للفاطميين وحدهم، و بعد أن سلّم «للبساسيرى» ثوبه، و عمامته، و شباكه أى كرسى الخلافة، سمح له بالخروج، فذهب و أقام فى «حديثة- عانة» الواقعة على مقربة من «الأنبار». و من المعروف ... أن البساسيرى، بعد ذهاب الخليفة العباسى من بغداد أرسل الثوب، و العمامة و الشباك إلى الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر باللّه، كما أعلن فى الجامع «المنصور» و فى كافة مساجد العراق بخطبة الجمعة اسم «المستنصر باللّه»، و هكذا أصبحت بغداد تابعة للقاهرة «المعزية» و لأول مرة فى التاريخ.

##PAGE=214##

و مما تجدر الإشارة إليه ... أن الشعب العراقى فى بغداد قابل هذا الفتح السريع بمظاهر الفرح، و التأييد. فتألفت المواكب، و سارت الجموع فى الشوارع و هى ترقص، و تهلل، و تردد.

»يا بنى العباس صدّوا ملككم كان معارا

ملك الأمر معدّ و العوارى تستردّ«

بعد هذا الانتصار الحاسم الذى تمّ بتدبير المؤيد فى الدين، و بعد أن استقرّت الأحوال فى بغداد، و أصبحت العراق تابعا للدولة الفاطمية ...

عاد المؤيد فى الدين إلى مصر و هو يعتقد أنه حقق أكبر خدمة للدولة الفاطمية، و أن رجال الدولة سوف يخفّون لاستقباله و الترحيب به، و لكن آماله خابت لدى وصوله إلى القاهرة «المعزية»، فلم يستقبله أحد بل على العكس رأى الوجوم باديا على الوجوه، و كأنه قد اقترف جريمة كبرى، و بالرغم من كل هذا فإنه قابل الخليفة «المستنصر باللّه» و قدّم له تقريرا عن كل الوقائع ... ثم نصح الدولة بأن تتعجل بتقديم المساعدات من أموال، و محاربين، و رجال إلى البساسيرى، و إلّا فإن الأمور قد

تفلت من يديه، و لكن لم يستجب أحد لهذا المطلب فالوزير أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى كان يضمر العداء للبساسيرى، قد أشار على الخليفة أن يهمل الرد على مراسلات المؤيد، و بالتالى عدم إرسال المساعدات للبساسيرى خوفا من أطماع هذا القائد بعد نجاحه.

أجل ... لم يدم الحال طويلا مع البساسيرى، فبعد أن فرغ طغرلبک من قتال أخيه إبراهيم، و القضاء على ثورته، زحف على بغداد بقوات كبيرة، و عند ما أيقن البساسيرى أنه لا قبل له بمواجهته بالجيش الموجود تحت إمرته، و لا سيما و أن الخلاف قد دبّ فى صفوف جيوشه أى بين العرب و الأتراک، و إن المساعدات المالية، و العسكرية التى وعد بها لم تأت من مصر، و كل هذا جعله فى حالة من اليأس.

فقرر الخروج من بغداد مع جيشه إلى الكوفة، و كان ذلک سنة ۴۵۱ ه. و عند ما دخل طغرلبک إلى بغداد أحضر الخليفة العباسى القائم، و أعاده إلى قاعدته و قصره، كما أرسل قائده «خمارتكين الطغرائى» فى ألفى فارس إلى الكوفة، و أضاف إليهم سرايا «ابن منيع الخفاجى» كما سار هو فى إثرهم على رأس جيش آخر، فلم

يشعر البساسيرى، و الأمير دبيس بن مزيد إلّا و الجيوش قد أقبلت، و هنا تفرقت جيوش البساسيرى عنه، و بدأت تخرج من الكوفة، فلحقها ابن مزيد يروم إرجاعها و لكنه لم يتمكن.

و أخيرا، لم يبق مع البساسيرى إلّا قلة من الرجال، و بالرغم من ذلک حمل على «خمارتكين» و لكن فى نهاية المعركة وقع أكثر أصحابه أسرى و هم: «أبو الفتح بن وزّام» و «منصور و بدران، و حمّاد» أبناء الأمير دبيس بن مزيد «نور الدولة»، و إبّان المعركة أصيب البساسيرى بسهم طائش، فلحق به من عرفه و هم من رجاله كما ذكر التاريخ، و كان قصدهم أخذه حيا، و حمله إلى «طغرلبک» فلم يستطيعوا تحقيق أمنيتهم لأن السهم أصاب منه مقتلا ... مما حملهم على حزّ رأسه، و حمله إلى بغداد حيث جعل على رأس رمح طيف به فى أنحاء العاصمة العباسية، ثم صلب قبالة «باب النوبى».

إلى هنا ... طويت صفحة من تاريخ المؤيد فى الدين، و إلى هنا يتوقف نشاطه السياسى و هنا أى فى المرحلة الأخيرة بدأ الغموض يكتنف حياته ... و الأقوال كثيرة، و لكن الأرجح أنه فاء إلى العزلة، و تفرّغ للشؤون العلمية و الأدبية، ثم يعود ليرثى أصحابه الذين استشهدوا فى سبيل نصرة الدولة الفاطمية، و هو بعيد عنهم، و لا يملک ما يساعدهم، أو يخفف عنهم الأذى و الموت، و كان لسان حاله يردد:

أبحت حمى دمى فيهم و فيهم | حسرت شبيبتى و ربيع عمرى

و فيهم سرت عن وطنى غريبا | أجوب الأرض قفرا بعد قفر

»أضاعونى و أى فتى أضاعوا | ليوم كريهة و سداد ثغر«

[٤٠] و مما تجدر الإشارة إليه: أن المؤيد فى الدين نفى إلى الرملة بأمر من الوزير «عبد اللّه بن المدبر» ثم أعيد فيما بعد إلى القاهرة.

كان المؤيد فى الدين من أكابر العلماء فى عصره، عارفا بجميع العلوم، قوى الحجة فى مناظراته، و مناقشاته مع مخالفيه، عظيم الإقناع، مؤثرا فى السامع، و يكفى أن يكون القاضى اليمنى «لمك بن مالك» و «ناصرخسرو» و «الحسن بن الصبّاح»، من تلاميذه الذين درسوا

عليه العقائد الإسماعيلية، و قواعد الفلسفة، و قد صدق أبو العلاء المعرى حين قال عنه:

«و سيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين لا زالت حجته باهرة، و دولته غالبة (...) لو ناظر «أرسطاطاليس» لجاز أن يفحمه، أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه».

توفى المؤيد فى الدين سنة ٤٧٠ ه. فى القاهرة «المعزية» و دفن فى دار العلم، و صلّى عليه الخليفة الإمام المستنصر باللّه.

ترك المؤيد فى الدين عددا من المؤلفات. و باعتقادى أن أهمها و أقومها «سيرته» أو «مذكراته» ففيها صورة صادقة دقيقة لما كانت عليه مصر و بغداد فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى.

---

[٤٠] (*) هذا البيت للشاعر العرجي.

فقد تحدث عن بلاط الخليفة و انتقده، كما تحدث عن الوزراء، و رجال الدولة الذين استغلوا طيبة قلب الخليفة فتلاعبوا بالبلاد، و بالمقدرات لمصلحتهم الشخصية، حتى اضطربت أمور مصر، و أدى الأمر إلى المحنة التى عرفت فى التاريخ «بالشدة العظمى المستنصرية».

فى الواقع ... لم يأت المؤيد فى الدين فى هذا الحديث بشيء جديد على المؤرخين فإن كل هذا مسطّر فى كتب التاريخ، و لكن الجديد الذى لا نكاد نرى له مثيلا فى كتب التاريخ الإسلامى هو: أن المؤرخ المؤيد فى الدين تحدث بصراحة، و على مسمع من الوزراء، و وجّه الانتقادات، و ذكر العيوب ... بينما لم يعودنا المؤرخون أن يوجهوا انتقادا أو لوما إلى الملوك، و الأمراء بل كان أكثرهم يمرون بعيوبهم مرّ الكرام، دون أن يتجاسروا على ذكرها، هذا بالإضافة إلى تغيير الحقائق التى كانوا يسجلونها فى كتبهم لجلب منفعة، أو دفع مضرة.

و نلاحظ: أن المؤرخ ابن خلدون تحدث فى مقدمته حديثا طويلا عن هؤلاء المؤرخين، و ضرب أمثلة عديدة لأقوال بعضهم، و ناقشها مناقشة دقيقة، و اضطرّ إلى دفعها أخيرا.

أما المؤيد فى الدين فقد كتب ما كتبه فى سيرته، دون أن يتطلع إلى منفعة يبتغيها، أو يخشى من أذى يلحق به، فكانت كتابته على هذا النحو جديدة على التاريخ الإسلامى و يكفى أن تقرأ أقوال المؤيد فى الدين عن حالته النفسيّة قبل أن يدخل مصر، و بعد أن استقر بها

##PAGE=217##

لندرک أنه كان صادق اللهجة فى حديثه، دقيقا فى تعبيره عن شعوره، و إحساسه.

##PAGE=219##

٤١

الانهيار الكبير

[٤١] تامر، عارف، تاريخ الاسماعيليه،4جلد، رياض الريس للكتب و النشر – لندن، چاپ: اول،1991 م.

##PAGE=221##

بداية النهاية

للدول أعمار، تطول و تقصر بحساب و لأسباب، و لكن ندر أن داهم الفناء دولة و هى فى أوج منعتها، و عزّ شبابها، اللهم إلّا إذا كان فناء يباغتها من حيث لا تحتسب، و حتى مثل هذه النهاية ليست من الصدفة فى شىء، بل نرى أن الدول تقوم لأغراض و تفنى بعلل، قد لا تبين للمرء لأول وهلة.

و الدولة الفاطمية، موضوع حديثنا، كانت فى عهد الخليفة الثامن الإمام المستنصر باللّه، على جانب من العزّة و المنعة و الألق عظيم، و كان سلطانها يظلّ بظلّه رقعة شملت مناطق، من العالم الإسلامى نائبة، بل إنه- كما بتنا نعلم- بلغ بغداد عاصمة بنى العباس، حينا من الدهر. بيد أن النجاح الواسع هذا كان يحمل فى أثنائه نذر زوال و فناء، و فى تاريخ الدولة الكثير من غامض القضايا و غريب الأسرار، مما لا بدّ من جلاء أمره و كشف ملابساته و الحكم على حقيقته: أ هو ابن صدفة محض أم أنه ثمرة السعاية و التآمر و التدبير.

الصدفة، لا تستمرّ تاريخا بكامله. نقول هذا و فى بالنا سيرة القائد الأرمنى بدر الجمالى و كيف انخرط فى صفوف الدولة الفاطمية و تقدم مترقيا، حتى بلغ به الأمر أنه تسلّم مقاليد الأمور الزمنية و الدينية على حد سواء، و صار يقف موقف الندّ إزاء كبار دعاة الدولة المتصلين بالإمام، و هذا لعمرى، غريب عجيب لا يمكن البتّ بأمره على أنه ابن صدفة بل على أن الرجل كان مدسوسا على الدولة فى تدبير ناقع تدخل فى جملة تفصيلاته خبر إسلام بدر و اعتناقه الدعوة عقيدة .

و لبدر الجمالى، أياد بيضاء على الدولة الفاطمية، لا جرم، فما نحن

##PAGE=222##

بالذى ينكر جهد الرجل و حسن بلائه فى سبيل الدولة و ما قام به من أعمال لإعادة الأمن و الاستقرار فى أيام شدة و امتحان عصفت بالدولة، و لكننا نستهجن أن يبلغ ثمن ما قدّمه بدر، أضعاف ثمن ما قدّمه جوهر الصقلّى مثلا و هو من نعرف جهادا و بلاء و ولاء. نعم، نستهجن أن يكون ثمن أمانة المستخدم فى الدولة، منحه رتبة دينية، هى من أساس بنية الدولة، و لا ينالها المرء إلّا بعلم و معرفة و قدرة فكرية، أين منها بدر الجمالى؟

تزوج الخليفة الإمام المستنصر باللّه، ابنة بدر الجمالى، و كان فى آخر عهده بالكهولة و أول عهده بالهرم، و له من الأولاد نزار و محمد و عبد اللّه و جعفر و داؤد و كانوا كلهم أبناء امّ واحدة. فأنجبت ابنة بدر له ابنه «المستعلى» الذى كان من الأسباب التى أدت إلى الانقسام فى الدعوة الإسماعيلية، فالأفضل بن بدر، الذى جعله أبوه نائبا عنه، أخذ يعدّ العدة لتنصيب المستعلى خليفة دون أخيه نزار مع أن هذا هو الموصى له، فى حياة أبيه المستنصر، و بشهادة الشهود من كبار الدعاة و رجال الدولة.

و الوصية التى تنصّ على نزار خليفة و إماما، لم تكن بنت يومها، و لا «فلتة»، بل كانت مبدأ معمولا به على مدى خمسة و ثلاثين عاما، حتى إذا انتقل الإمام المستنصر باللّه إلى رحاب ربّه، تسلّم الأفضل بن بدر زمام الأمور فى الدولة و فرض ابن أخته «المستعلى» على رقاب الخلق خليفة، و فتك بنزار و أخوته و أفراد أسرته فى جريمة مروعة مهوبة، و رائده فى ذلك الحقد على نزار الذى لطالما أعلن فى مجالسه أنه «لا بد من إبعاد هذا الفلان» يعنى الأفضل.

ولّى المستعلى الأمر و دبّ السقام فى الدولة، فانفصلت عنها الأقاليم الخاضعة لحكمها، تباعا، و ظلت مصر تصارع النهاية حتى قضى الأمر و طويت صفحة من أخلد صفحات التاريخ الإسلامى، و لكن ذلك لم يأت صدفة، فبموت المستنصر باللّه، ماتت الشرعية، و انقسمت الدعوة على نفسها و صار أهلها يحاربون بعضهم البعض بعد أن كانوا أخوة يقين و جهاد و غاية واحدة. و لمّا سقطت الدولة تفرّق رجالها فى أرجاء العالم الإسلامى، و قصاراهم إعادة بناء ما تهدّم و لقد أخفقوا فى بقاع و أمصار عديدة و لم تقم للدعوة قائمة إلّا فى مكانين

فى بلاد فارس، و فى بلاد الشام، حيث قامت فيهما دولة نزارية كان لها شأن كبير لو لا أن عمرها كان قصيرا.

بدر الجمالى

مات بدر الجمالى فى القاهرة «المعزية» سنة ۴۸۷ ... أى قبل وفاة الخليفة الإمام المستنصر باللّه ببضعة أشهر ... و مما يجب أن نشير إليه أنه ترك وصية تقضى بتعيين «الأفضل» فى مركزه ... و قد ثبت أن بدرا كان يعد الأفضل لخلافته منذ عام سنة ۴۷۹ ه. و يستنيبه عند ما يخرج من القاهرة، كما أنه كان يدربه على شؤون الحكم و السلطة، و قد أيّد ذلك كل من المؤرخ المقريزى و ابن ميّسر، بأن والده أصدر أوامره بأن يدعى له على المنابر بعد الدعاء للخليفة، و لأمير الجيوش.

و بالفعل نفذّت الوصية بعد وفاته، و أمر الخليفة المستنصر باللّه إنشاء سجل خاص قرىء فى الديوان على مسمع من أمير المؤمنين، و من سائر أعيان الدولة، و أشرافها، و أمرائها، و جنودها، و خاصها و عامها، و قد ظهر الأفضل على أعين الناس مجلّلا برداء التفخيم و التعظيم، و بأزهى المفاخر و المعالى.

و مهما يكن من أمر ... فإن أية معارضة لم تظهر إلّا من أحد المقربين من بدر الجمالى و هو أرمنى أيضا و يسمّى «لاوون» و كان رفيقا لبدر الجمالى، و منعما عليه، و قد ظهر عنه طموحه بالوزارة و اقترافه الدسائس، و لكنه لم ينجح فى مسعاه، فلقد قتله، الأفضل.

أما بالنسبة للثروة التى خلّفها ... فقد ذكرت المصادر: بأنه جمع ثروة طائلة فى ظروف عصيبة، و فى وقت كانت البلاد المصرية تعانى من المحن و الكوارث ... فقد قدّر الخبراء ثروة «بدر الجمالى» بالملايين، و استدلوا على ذلك حينما ذكروا بأن أحد كتابه اشترى «سمكة» من عنبر بألف دينار حرقها فى النار فى جلسة واحدة، كما أن الشاعر «علقمة بن عبد الرزاق العليمى» مدح بدرا فخلع عليه من كانوا عنده من أصحابه المؤيدين المنتفعين ما بلغ مقداره سبعين حملا، و أجازه «بدر» من ماله الخاص بعشرة آلاف.

و مما يجب أن يذكر: أن احتياجه من السكر كان مئة قنطار بالرطل الشامى، و قد كان مشغوفا باقتناء الجواهر الثمينة، و خلّف من الأموال بعد عمارة سور القاهرة ستة آلاف ألف دينار و أربعمائة ألف ألف درهم فى دار الوزارة، و من الجواهر، و الياقوت أربعة صناديق،

و من الذهب، و الفضة، و المراكب أى السروج المحلّاة ما تعجز الأقلام عن وصفه، كما خلّف ألف قصبة من الزمرد لأنه كان مغرما غراما عظيما بهذا الجوهر الذى كان يرسل رجاله لتجميعه من مختلف الأقطار.

كل هذا باستثناء ما تركه من المزراع، و الخيول، و المراكب، و البقر، و الغنم، و الجواميس، و غيرها من الحيوانات الأهلية التى كانت تدر عليه الأرباح الطائلة.

وقائع الفتنة

مات بدر الجمالى، فاستلم ابنه الأفضل منصبه، و بعد موت بدر بأشهر توفّى الخليفة الإمام المستنصر باللّه، فانتهى بوفاته عهد من الشرعية و الهيبة، و خلأ الجو للأفضل بن بدر الذى بلغت به الجرأة على الحق و الحقيقة، أنه أذاع على الناس، فور وفاة الإمام المستنصر باللّه، سجّلا يقول فيه بأن الإمام قد أوصى و هو على فراش الموت و بمحضر من الشهود، بالإمامة و الخلافة لابنه المستعلى.

كانت الناس ترتقب الواقعة هذه، فنزار لم يكن يخفى امتعاضه و غيرته على الدولة و العقيدة و لا استياءه من الأفضل و جسارته على ارتكاب كل عظيم بحقها، و كان يردد دائما، قبل وفاة أبيه، أنه لا بد من إبعاد الأرمنى، و هو كلام بلغ أسماع الأفضل فأستعدّ للأمر و كان السجلّ المذكور أول الغيث.

و لكن السجلّ لم يأت بالنفع المرجو منه، فنزار خليفة بالنص منذ عقود تربو على الثلاثة، و قواد الدولة و دعاة العقيدة، لا يمكن لهم بأى حال التسليم بسابقة خطيرة كهذه، ليس لها ما يبررها، و لا لها ما يدعمها.

لم يسكت الإمام نزار بل أذاع، هو أيضا، سجّلا على الناس، اتهم فيه الأفضل بالاعتداء على أقدس مقدسات الفاطمية، ألا و هى الإمامة، و ذكّر الناس بالوصية القائمة منذ ثلاثين عاما و نيّف، و التى تنصّ عليه خليفة و إماما. و الإمام نزار لم يذع على الملأ ما أذاعه إلّا بعد ما بايعه كبار القواد و عاهدوه على الولاء و الجهاد أمامه، فاستنفر عندئذ أنصاره و مريديه و مضى إلى الإسكندرية و كان حاكمها قد انتصر له، و من هناك سأل أخوته الأربعة و أسرته الالتحاق به ففعلوا.

##PAGE=225##

و لكن الأفضل كان يعد للأمر عدته منذ زمن بعيد، فلم تدهمه الأحداث، بل جرّد جيشه و ضمّ إليه رجالا بايعوا نزارا بالأمس، و مضى إلى الإسكندرية فخاض معارك طالت أسبوعا حتى انتهت «بالنصر» الذى ذهب ضحيته افتكين قائد الجيش الفاطمى فى الإسكندرية، و جلال الدين بن عمار، أمير جيش كتامة و كانا من أنصار الإمام نزار، و اعتقل الإمام و أخوته الأربعة، و أولادهم و اقتادهم إلى القاهرة المعزية مكبلين بالأصفاد و هناك طرحهم فى السجن.

و فى سنة ٤٩٠ ه فتك الأفضل بنزار و بعض أولاده. و ثمّة من يقول إنهم ماتوا جوعا و عطشا، و من يقول بأنه أعدمهم الواحد تلو الآخر، بهدف القضاء على كل ورثته و لكنه رغم كل محاولاته استطاع بعض أبناء نزار النجاة و القيام بحملة لمحاربة الأفضل.

تلك الأسرة الكريمة، التى طالما نال منها سيف البغاة و حكام السوء، و التى ضحّت بأفضل أبنائها فى كل عصر، و ثالثة المآسى هذه، لن تكون الأخيرة بل ستلحق بها مجزرة ألموت على يد هولاكو، و كل هذا ما كان ليحدث لو لا انحراف أهل الإثم و الفساد و التوائهم على الحق.

قتل الإمام نزار و صار أخوه المستعلى خليفة، خاض إلى دست الخلافة فى دم أخوته و أهله، و كان زاهدا بالحكم برما بالناس، ميّالا للعزلة، بادى الأسى و الوجوم، فلقد كان ينظر إلى الأفضل بن بدر و هو يصرّف أمور الدين و الدنيا من دونه، و ينظر إلى

الغلاء و قد استفحل و الأوبئة و قد انتشرت، و تبلغه الأخبار عن دمشق و كيف أزيل أسمه من الخطبة فى مساجدها و استبدل باسم الخليفة العباسى.

و فى عهد المستعلى، تسلّم الأفضل بن بدر بيت المقدس من الأرمن، و احتل الصليبيون سواحل الشام و أنطاكية و بيت المقدس، فخرج الأفضل فى عشرين ألف لمقاتلتهم و لكنه رجع خائبا ثم أعاد الكرة و لم يفلح و أخيرا واقعهم فى عسقلان و كانوا قد ملكوا الرملة و بيت المقدس، و لكنهم دحروه و قتلوا جميع قواده، أما هو فلقد نجى بنفسه هاربا فى البحر.

و فى عهد المستعلى أخذ الحسن بن الصباح، أحد أبناء نزار و اسمه على «الهادى» و هو الإمام العشرون، إلى بلاد فارس، و كان الوحيد

الذى نجى من سيف الأفضل، و هناك فى ألموت فى بلاد فارس، أعلنت الدولة الإسماعيلية النزارية و على رأسها الإمام الشرعى و الخليفة القانونى ابن الخليفة الشرعى القتيل.

الآمر بأحكام اللّه

ولد فى القاهرة المعزية فى ١٣ محرم سنة ٤٩٠ ه و بويع بالخلافة ١٣ صفر سنة ٤٩٥ ه. و كان له من العمر خمس سنوات و فى تلك الفترة تسلّم الأفضل شؤون الحكم بالنيابة عنه، و بعد أن كبر، و ترعرع تسلّم الصلاحيات و لكنه ظهر أنه لم يكن أداة طيعة بيد الأفضل، بل كان كثيرا ما يقف منه موقف المعارض.

اغتيل فى ١٤ ذى القعدة سنة ٥٢٤ ه. و قد بلغ من العمر أربعة و ثلاثين عاما عند ما كان فى هودج يقوم بنزهة بين الجزيرة و القاهرة، و قد حمل إلى القصر و لكنه لم يلبث أن فارق الحياة.

المستعليون يتهمون النزاريين بأنهم قتلوه انتقاما لنزار، و بعضهم يتهم الأفضل لأنه أراد التخلص من خليفة لا يحترمه، و لا يستمع إليه، و يحد من صلاحياته ... و فى عهده بدأ شبح الانهيار، و الوهن على الدولة، و وقع غلاء شديد، و نقص فى المواد الغذائية، و عمّ الفساد، و الرشوة، و السرقة على يد كبار الموظفين و صغار المستخدمين، و ساءت الأوضاع لدرجة أنها أعطت ما يشبه الإنذار بأن النهاية أصبحت قريبة.

كان الآمر يطمح إلى تأليف جيش كبير و الزحف لاستخلاص بلاد الشام ثم الوصول إلى بغداد و لكن الأحداث الداخلية، و وجود الأفضل على رأس السلطة منع كل خير. من مآثره و أعماله:

بناء جامع الأقمر فى القاهرة، و تجديد قصر القرافة، و فتح مكتبة دار العلوم للمطالعة و التدريس.

الطيّب بن الآمر

يقول المستعليون- البهرة: بأن الآمر بأحكام اللّه مات و امرأته حامل بغلام ذكر يسمّى أو سمّوه «الطيّب» و لهذا عهدوا بالخلافة الزمنية إلى أعضاء من الأسرة الفاطمية تحت اسم «نائب للخليفة»، و قد جاء تسلسلهم كما يلى:

الحافظ، و الظافر، و الفائز، ثم رابعهم و آخرهم العاضد. و هؤلاء

النواب تسلموا الحكم بالنيابة لأنهم لا يتمتعون بالنص من الإمام الأصيل، و لأنهم من أطراف الأسرة.

هذا و لم يثبت، و لا يوجد أى دليل يؤكد حمل امرأة الآمر بأحكام اللّه، و أنها وضعت طفلا اسمه «الطيب» ... فهناك مصدر آخر يؤكد بأنها وضعت أنثى اسمها «صفية» لم تلبث أن ماتت.

و مما يجب أن نشير إليه ... أن الفرقة المستعلية الإسماعيلية «البهرة» نقلت نشاطها إلى اليمن بعد انهيار الدولة الفاطمية، حيث عاشت فى تلك البلاد حياة العزلة السياسية، و انصرفت إلى شؤون الدعوة الدينية متخذة «داعيا مطلقا» كقائم بمهمة الإمام، و كحامل للصلاحيات نفسها. و هذه الفرقة يوجد منها أعداد فى الهند، و باكستان و نجران بالسعودية، و اليمن و يعرفون «بالبهرة» و سنتحدث عن كل هذا بالتفصيل فى الأجزاء القادمة.

الأفضل الجمالى

ذكرنا فى الصفحات الأولى: أن الأفضل الجمالى تسلّم الحكم بالقوة، و بعد تمكنه من السيطرة على ابن شقيقته المستعلى، و على ولده الآمر بأحكام اللّه من بعده، شرع بإقامة قواعده، و تحصين أوكاره، و إشباع رغباته و نزواته، حتى وقت اغتياله، و كان له من العمر سبع و خمسون عاما.

ولد الأفضل الجمالى فى عكا سنة ۴۵۸ ه.، و قتل فى أحد شوارع القاهرة سنة ۵۱۵ ه عند ما خرج عليه عدد من الرجال من دكان دقّاق بالملاحين، و تختلف المراجع فى سبب قتله، و الدوافع للقتل، و القاتلين. فالبعض يذكر: أن الإسماعيلية النزارية قتلوه انتقاما و ثأرا لنزار بن المستنصر باللّه، و هناك من يقول إن «الآمر بن المستعلى» ضاق ذرعا بتحكمه و سيطرته و استبداده بعد تسلّمه الحكم، و هكذا وقعت بينهما المباينة، و أخذ كل منهما يخطط لاغتيال الآخر، و عند ما عزم الآمر على قتله داخل القصر ... جاء إليه ابن عمه «الأمير عبد المجيد» و حذره من ذلک، و أشار عليه بأن يستميل «المأمون البطائحى» باعتباره ثقة الأفضل، ثم يمنّيه بالوزارة لقاء تدبير قتله، فتمّ الأمر وفق ما دبره الأمير عبد المجيد. و ذكر أن قتلته قتلوا فى الحال حتى يضيع سرهم معهم.

##PAGE=228##

كان الأفضل قبل توليته الوزارة و القيادة يحمل لقب: «عز الدولة» و «غياث المسلمين» و «صفوة أمير المؤمنين». و لما اشترک مع أبيه فى الحكم أصبح يحمل الألقاب التالية: «الأجل الأفضل» و «سيف الإمام» و «جلال الإسلام» و «شرف الأنام» و «ناصر الدين» و «خليل أمير المؤمنين» و «أبو القاسم شاهنشاه»، و بعد وفاة أبيه اتخذ جميع هذه الألقاب مع زيادة كلمة «الأفضل» التى صارت فيما بعد نعتا خاصا طغى حتى على اسمه. أما الأحداث التى وقعت فى عهده فيمكن إجمالها كما يلى:

فى سنة ۴۹۰ ه. وقع فى مصر غلاء شديد، و حلّت مجاعة كبرى طغت على أرجاء البلاد المصرية، و فقدت المواد الغذائية، و انتشرت الأوبئة ... و كنا ذكرنا أن الخطبة قطعت فى مساجد دمشق و استعيض عن اسم المستعلى الفاطمى باسم الخليفة العباسى.

و فى هذا العام خرج «الفرنجة» من القسطنطينية، و غايتهم استملاک سواحل بلاد الشام و غيرها. فملكوا أنطاكية بادىء ذى بدء و منها تقدموا بزحفهم ... و يبدو أن الدول العربية لم تدرک أهداف الحركة الصليبية. بادىء الأمر، و لم تتبين غرضها فظنتها مثل الحملات التى كان يشنها البيزنطيون بين الحين و الحين، لذلک لم تقم باتخاذ أى إجراء لدرء هذا الخطر الداهم و لعلّ الخلافات الداخلية، و الخصومات المتأججة بين الفاطميين و العباسيين وقفت حائلا دون اتخاذ أى موقف مشترک ... و هكذا وجد الصليبيون الطريق مفتوحا أمامهم لامتلاک معظم بلاد الشام، و لم يستفق المسلمون من سباتهم حتى كان الجيش الصليبى يوطّد أقدامه فى بلاد الشام.

كانت مصر فى تلک الفترة، أى قبل أن يتسلّم بدر الجمالى قيادة جيوشها فى حالة سيئة من البؤس و الفوضى، فقد صورها المؤرخون بصورة واضحة فقالوا:

إن الجيش فى تلك الفترة انقسم على نفسه إلى فئات أخذت كل منها تعيث فسادا فى البلاد، و بالرغم من نجاح بدر فى القضاء على عوامل الفساد، و إخراج البلاد من أزمتها الاقتصادية إلّا أن هذا ترك أثرا سيئا فى بنية الجيش الذى ضعفت قوته الحربية.

فصار عاجزا عن استرداد ما ضاع من ممتلكات الفاطميين فى

الشام، و عند ما جاء الأفضل ثارت الأهواء، و حدثت النزاعات، و وقع ما كان ينتظره الناس، عند ما اقترف جريمته النكراء بقتل الإمام نزار و أسرته، و انقسام الإسماعيلية إلى جبهتين متعاديتين هما: النزارية و المستعلية ... و كل هذا كان له أهمية خاصة بالنسبة للجيش و لعزيمته فى الدفاع، و فى الفتوحات.

هذا من الناحية الداخلية ... أما من الناحية الخارجية فإن مصر أصبحت فى تلك الفترة أمام خطر خارجى يهدف إلى احتلالها، و القضاء على الحكم القائم فيها و هو الخطر السلجوقى الذى داهم بلاد الشام، و استولى على معظم أجزائها، حتى أصبح يهدد مصر نفسها، و نظامها الفاطمى. و من الثابت أن العداء بين هاتين القوتين كان عداء عنيفا عميقا يجعل أية مهادنة بينهما غير ممكنة زد على ذلك ما لمسناه من التسامح الدينى الذى كان ينعم به المسيحيون فى بلاد الإسلام، و المسلمون فى بيزنطة. فكان للمسلمين مساجدهم فى القسطنطينية، و غيرها من بلاد الروم كما كانت كنيسة القيامة فى القدس فى حماية المسلمين، و كان المسيحيون يفدون إليها دون عائق، كما أن الفاطميين استعانوا أكثر من مرة بوزراء من المسيحيين و اليهود، و كان من المألوف أن يستعين الحكام المسلمين فى بعض الأحيان بالبيزنطيين ضد بعضهم البعض، أو يستنجد البيزنطيون بالأساطيل المصرية ضد منافسيهم المسيحيين فى جزيرة صقلية. و الأفضل، كما يبدو، لم يكن يرى مانعا يمنعه من الاتصال بالصليبيين لأنه كان ينظر إليهم كمرتزقة تابعين للإمبراطور البيزنطى. لهذا عند ما علم الأفضل بوصول الإنفرجة إلى أنطاكية أرسل إليهم مندوبا يدعوهم إلى المفاوضة مقترحا تقسيم بلاد الشام ...

فيكون الشمال من نصيب الفرنجة، و يستولى الفلسطينيون على فلسطين، و لكى يجعل لاقتراحه قوة و فاعلية، فإنه جنّد فرقة كبرى، و خرج بها إلى فلسطين. فاستولى على بيت المقدس فى رمضان سنة ٤٩١ ه.

و من الجدير بالذكر ... أن الصليبيين استقبلوا هذا المندوب بالتكريم بالرغم من أنهم لم يدخلوا معه فى أية مفاوضات، و عاد المندوب محملا بالهدايا، و بعد ذلك أكمل الصليبيون زحفهم، و كانت وجهتهم بيت المقدس، و من الجدير بالذكر أنهم استغلوا التفكك الحاصل بين

##PAGE=230##

الحكام المسلمين، و ساروا على مبدأ «فرّق تسد». فأرسلوا إلى «دقّاق» صاحب دمشق يطلبون منه عدم التدخل ما دام ليس لهم مطمع فى ممتلكاته. و بعد أن أمنوا، و تمكنوا من تجميد كل نشاط إسلامى معارض، ساروا فى طريق ساحل البحر، فوصلوا إلى بيت المقدس التى كان الأفضل قد سبقهم إلى احتلالها، و دارت معركة عنيفة. و أخيرا تمكن الصليبيون من إحراز الانتصار، و احتلوها.

و مهما يكن من أمر، فإن سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين، و قتل ما يقارب من سبعين ألف مسلم، أيقظ النفوس، و أوقع الحماس فى العالم الإسلامى، و لم يتمكن العباسيون فى بغداد من التحرك، أو من مد يد المعونة بسبب الاختلافات الحاصلة بين الأمراء الحاكمين للمقاطعات و الفتنة التى وقعت بين أمراء «السلاجقة» بعد مقتل «ألب أرسلان» و خاصة الاختلاف بين السلطان «بركيا روق» و أخيه محمد.

أما فى مصر فقد أدرك الأفضل، بعد فوات الأوان، طبيعة الحركة الصليبية، و ما ترمى إليه من تهديدها لمصر خاصة، و للإسلام بوجه عام، فدعا إلى الجهاد، و تجنّد له، و أرسل إلى أمراء السلاجقة رسائل يعلن فيها استعداده لتناسى الماضى، و ما بينهم و بينه من الخلافات، و لكن أمراء السلاجقة فى الشام لم يستجيبوا إلى ندائه.

و أخيرا: خرج إلى عسقلان فى شهر رمضان سنة ٤٩٢ ه، و لدى وصوله أرسل إليهم كتابا يعلن فيه سخطه، و نقمته على ما فعلوه بالمسلمين، و يبدو أنه كان ميالا للدخول معهم فى مفاوضات إلّا أن الصليبيين لم يردوا عليه، و بادروه بالتأهب، و حشد القوات. و بعد ذلک دارت رحى معركة ضروس بين جيش مصر و الصليبيين كانت حصيلتها إبادة جيش مصر، و استسلام من نجا منه. أما الأفضل فقد لاذ بالفرار، و تخلّص من المعركة بأعجوبة، فعاد بالبحر متخفيا إلى مصر تاركا عسقلان تحت رحمة الصليبيين الذين لم يتفقوا على دخولها، و الاحتفاظ بها.

بعد هذه المعركة التى كانت درسا للأفضل، عاهد اللّه بأن لا يخرج لمعركة ثانية و خاصة مع الصليبيين، و لكنه استمرّ بإرسال الجيوش للقتال، الحملة تلو الحملة حتى أنه كثيرا ما كان يعهد لأولاده بقيادة هذه الحملات.

##PAGE=231##

و من الجدير بالذكر ... أنه حاول مرة ثانية إجراء ما يشبه الوحدة مع دمشق بعد أن وجد استجابة من أميرها «طغتكين» و لكن كل هذا لم يقدر له البروز على مسرح الأحداث و لم يحدّ من أطماع الصليبيين، و من الواضح أن الأفضل مات، و لم يبق بيد الفاطميين من بلاد الشام سوى عسقلان، و صور.

خرج الأفضل من القاهرة سنة ۴۹۱ ه كما ذكرنا على رأس حملة كبرى بقصد الاستيلاء على بيت المقدس، و كان يحكمها آنئذ «سلمان و إيلغازى» إبنا «ارتق» فرفضا تسليم المدينة، و عندئذ حاصرهما مدة أربعين يوما، و فى نهاية المطاف سلّم أهلها، فدخلها و استقرّ بها ...

و من الجدير بالذكر أنه أكرم «سلمان و إيلغازى» و خلع عليهما و تركهما أحرارا، و لكن هذا الانتصار لم يدم طويلا، و لم يهنأ به الأفضل إذ سرعان ما وصل الصليبيون إلى أبواب بيت المقدس، و كانوا قد أتموا فتوحاتهم فى بلاد الشام. و من الواضح الجلى أن انقسام القوى الإسلامية، و العداء القديم العنيف بين بغداد و القاهرة مكّن الصليبيين من تحقيق انتصاراتهم السريعة، و أكثرها تمّ دونما أية مجابهة.

هذا و كنّا قد ذكرنا بأن الفاطميين فى عهد الأفضل قد فقدوا كل ممتلكاتهم فى ديار الشام، و لم يحدثنا التاريخ أنهم عادوا، أو أن حكمهم ظهر على مسرح هذه البلاد من جديد ... اللهمّ إلّا بعد زوال الدولة الفاطمية، فالتاريخ، و الوقائع دعمت و ذكرت قيام «دولة مصياف» الإسماعيلية النزارية بقيادة «سنان راشد الدين». و لا بد من الإشارة أيضا إلى أن الدولة الفاطمية قطعت كل صلة لها بشمالى أفريقيا و ذلک سنة ۵۰۹ ه. و هكذا فعلوا بالنسبة لجزيرة صقلية.

أما بلاد «النوبة» فإن علاقات الدولة الفاطمية بها قد ساءت، و طرأ عليها ما يشبه الانتفاض ... فالمصادر التاريخية توضح: أن الأخبار وردت إلى الأفضل سنة ۵۰۱ تفيد بأن ملک النوبة قد جهّز جيوشه، و حشدهم فى البر و البحر، معولا على الاندفاع و احتلال الممتلكات الفاطمية الواقعة على حدود بلاده، و عندئذ سيّر الأفضل جيوشه إلى «قوص» و وجه أوامره إلى والى قوص بأن يسير بنفسه إلى أطراف بلاد النوبة. فورد الخبر بوثوب شقيق الملک عليه، و قد تمكن أخيرا

من قتله، و عندئذ تفاقمت الفتنة، و أصبحت المملكة فى حالة من الفوضى.

لم تبق لمصر الفاطمية بعد وفاة الخليفة الثامن الإمام المستنصر باللّه أية ممتلكات لا فى الشرق، و لا فى الغرب. عدا مصر التى ظلت وحدها تتنازعها الأيدى المخرّبة الغريبة التى تسرّبت إلى الحكم فى الظلام بصورة غير شرعية.

و مهما يكن من أمر ... فإن النظام و الأمن فى تلك الفترة اضطربا اضطرابا مخيفا فى جميع أرجاء الدولة الفاطمية بعد مقتل الأفضل، و لكن يقظة «المأمون البطائحى» الذى تولّى الوزارة بعده جعلته يعيد الأمور إلى نصابها، و يحفظ الأمن فعزل والى عسقلان لارتيابه بأمره و عين مكانه واليا آخر.

دار الأفضل

عند ما تسلّم «بدر الجمالى» شؤون الوزارة الأولى، و القيادة العليا للجيش، فى عهد الخليفة الإمام المستنصر باللّه ... بنى دارا فى حارة «برجوان»، قد عرفت فيما بعد بدار «المظفّر». و يذكر بعض المؤرخين أنها عرفت أيضا بدار الوزارة. و من المرجح أنها الدار المرموقة و الوحيدة فى القاهرة، و قد كان «الأفضل» قد جدّد بناءها، و أدخل عليها تحسينات عديدة، و كان موقعها فى شمال القصر الكبير الشرقى ... و يفصل بينهما رحبة باب «العيد» التى عرفت «بدار القباب» و فى الغالب، فإن الأفضل اتخذها دار سكن فقط، و لم يحوّل إليها الدواوين من القصر، إلى أن بنى «دار الملك» على ساحل مصر، فنقل إليها الدواوين من القصر ... يؤيد ذلك ما ذكره التاريخ عنها:

أنها من إنشاء الأفضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش، و قد قام ببنائها، و إنشائها سنة ٥٠١ ه. فلما كملت تحوّل إليها من دار «القباب» بالقاهرة، و سكنها، و حوّل إليها الدواوين، من القصر، فصارت فيها، و جعل فيها أيضا الأسمطة، و اتخذ بها مجلسا سمّاه «مجلس الوصايا» كان يجلس فيه من حين لآخر. أما دار القباب فقد أصبح بعد ذلك سكنا لأولاده، و مما تجدر الإشارة إليه ... أن الأفضل ازدادت كراهيته لأولاده لأنه لم يستطع ضبط أمورهم و جعلهم يخضعون له فى كل شىء ... و هذا ما جعله منذ سنة ٥٠١ ه يحتجب

عنهم فى أكثر الأوقات، و لهذا استقروا فى القاهرة، و انقطعوا فى دار الأفضل القديمة المعروفة بدار الوزارة.

إذن ... فالأفضل اتخذ من دار الملك مقرا للحكم، و ترك دار القباب لسكنى أولاده، و قد ظلّ الحال على هذا الوضع حتى قتل «الأفضل» و عندئذ نقلت الدواوين مرة أخرى من دار الملك إلى القصر، و ظلّت هكذا إلى حين قام الخليفة «الآمر بن المستعلى» بمصادرة بيوته، و ممتلكاته فى كل مكان ... أمّا متى صارت دار «القباب» مقرا للوزراء. فنرجح أن ذلك حدث عند ما أصبح «أحمد بن الأفضل» الملقب «كتيفات» وزيرا للحافظ سنة ٥٢٥ ه. و فى هذا العام تمكن من السيطرة و استلام الحكم، بعد أن سجن الحافظ، و استعاد أملاك أبيه التى صادرها «الآمر بأحكام اللّه» و من بينها دار القباب. و من المرجح أنه فى تلك الفترة قد انتقل إليها، و سكنها مع دواوين الوزارة و ظلّت مركزا للدولة، و مقرا للوزراء حتى عهد «صلاح الدين الأيوبى» الذى

سكنها أيضا ... هذا و يذكر التاريخ أن الملك «الكامل محمد» استقرّ بالقلعة، فتحولت عندئذ إلى دار ضيافة للملوك و للوزراء، و للشخصيات الكبرى التى كانت تفد إلى مصر ... و يصفها التاريخ:

بأنها كانت محاطة بسور مبنى بالحجارة، و قد بقى جزء بدون سور مدة طويلة، و كانت الدار تشمل قاعات و مساكن، و حديقة كبرى فيها مئة و عشرون مقسما للماء الذى يجرى فى بركها، و مطابخها، كما كانت تنقسم إلى قسمين رئيسيين أحدهما :

دار الحرم، و الآخر دار السّلام الذى كان مخصصا للإدارة و لشؤون الحكم، و قد ذكر أن فى إحدى قاعات هذا الدار كانت «كرسى الخلافة العباسية» و هو المقعد الكبير الذى كان قد أرسله «البساسيرى» من بغداد إلى الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر باللّه، و قد ذكرنا ذلك فى الأجزاء السابقة. و من الجدير بالذكر أن الأفضل كان يجلس عليه.

.. إن كرسى الخلافة المذكورة قد ظلّت بالدار المذكورة حتى عمّر «ركن الدين بيبرس» الخانقاه الركنية، و عندئذ أخذ من دار الوزارة أكثر محتوياتها، و من جملتها المقعد العباسى، و هذا المقعد جعله فى القبة التى دفن تحتها.

##PAGE=234##

أحداث و مفاجات

ذكرنا فى مكان آخر من هذا الجزء بأن «الأفضل بن بدر الجمالى» قتل كما قيل بأيدى النزارية ... و قد أيّد ذلك أكثر المؤرخين، و ذكرنا أيضا بأن الأفضل هو الذى أقام «المستعلى» و سمّاه خليفة بعد وفاة والده الإمام المستنصر باللّه، و ذلك للحفاظ على قيادته و زعامته باعتبار المستعلى ابن شقيقته .. و مما يجب أن يذكر: أن المستعلى لم يعمّر طويلا، و أن عهده، و عمره كانا قصيرين. فبعد موتهأقام الأفضل ابنه «الآمر بأحكام اللّه» و سمّاه خليفة و كان له من العمر خمسة أعوام ونيف، و هذا الخليفة بعد أن كبر، و مارس شؤون الحكم و الخلافة ضاق ذرعا بأعمال الأفضل السابقة و اللّاحقة، فنقم عليه، و أخذ يوجه الأنظار ضده، ثم بدأ يسلبه الصلاحيات الواحدة تلو الأخرى، مما جعل الأفضل أيضا يخطط من جهته للتخلص منه، و لكن الأقدار لم تساعد الأفضل فقتل قبل أن يتمكن من تنفيذ مخططه .. و ينسب إلى الآمر بأحكام اللّه تدبير قتله، و لكن هناك من يقول عكس ذلك، و على العموم فإن الآمر هلّل للحدث الرهيب المفاجىء، و ارتاح ضمنا لوقوعه، و ما زال الارتياح يتفاعل فى داخله حتى قتل اغتيالا من قبل النزارية أخيرا.

و فى هذه الفترة تصدّى «الحافظ» للحكم و هو أحد أعمام الآمر بأحكام اللّه متخذا لنفسه صفة النيابة أو الوصاية، أو ما يسمّى الكفالة لطفل «منتظر» زعموا أنه من صلب الآمر، و أطلقوا عليه اسم «الطيّب» ... و رشحوه للخلافة، و للإمامة.

و فى تلك الفترة قام «أحمد بن الأفضل» فاستولى على الوزارة و على القيادة، و بقوة السلاح استطاع القبض على الحافظ، و إيداعه السجن، ثم قام بحملة تفتيش على الطفل المسمّى «الطيب» الذى قيل إن امرأة الآمر بأحكام اللّه قد ولدته بعد وفاة أبيه. و كان أحمد يبغى قتله، و لكنه لم يعثر له على أثر، لأن اتباعه قالوا أنه دخل كهف الاستتار منذ اليوم الأول من ولادته. أما أحمد فإنه بادر إلى إلغاء الشعائر الدينية التى أحدثتها الفرقة «المستعلية» و أسقط منها اسم «الخليفة» و استبدلها ب «الإمام المنتظر».

إن أكثرية المصادر التاريخية تذكر: بأن أحمد بن الأفضل الملقب «كتيفات» كان قاسيا و عنيفا، و قد ارتكب جرائم عديدة فى القصر إبان

قيامه بالحملة التفتيشية على «الطيب» المزعوم، و لكنه مع كل أسف لم يجد له أثرا.

و فى سنة ٥٢٦ ه. قتل اغتيالا بعد حكم تعسفى شديد استمرّ سنة و نيف، و بعد موته خرج الحافظ من سجنه، و أعلن من جديد بأنه «الخليفة».

و سعى جاهدا لأخذ مبايعة كبار رجال الدولة على هذا الأساس، و كل هذا أوقع انشقاقا جديدا فى الفرقة المستعلية، فقامت فرقة لمساندته و دعمه فى الخلافة تعرف «بالحافظية» بينما قامت فرقة أخرى معاكسة قالت: بأن «الحافظ» لا ينحدر من أسرة الفاطميين، و أن وجوده فى الخلافة ضرورة اقتضتها الظروف الطارئة و أن مركزه لا يخرج عن كونه وصاية مؤقتة، و هذه الفرقة تسمّت «بالطيّبة». و قد كان من نتيجة ذلك أن خرجت اليمن عن طاعة مصر فى أواخر عهد «الملكة الحرة، أروى الصليحى» و هذه الملكة كانت تعلن فى مجالسها و أمام المقربين منها عن استنكارها لأعمال الأفضل، و عن إقرارها و اعترافها بصحة إمامة نزار.

أعمال الأفضل

من المعلوم أن بدر الجمالى أمير الجيش مات و ترك لولده و لخليفته فى القيادة دولة كبرى مستقرة هادئة ناعمة البال، و خليفة لا يخيّب له رجاء، و لا يرفض له طلب، و لكن الأفضل لم يكن يملك من المواهب، و بعد النظر ما يكفل له السير فى الدروب السهلة. فمن الواضح أنه لم يسر على نهج أبيه فى حكم الدولة، كما لم يستطع فى فترة حكمه الطويل أن يوطّد الأمن و الرخاء فى البلاد المصرية، و لا أن يحتفظ بالأقطار الأخرى التى انفصلت عن الدولة، و أعلنت استقلالها.

و جاءت النزارية بأساليبها الجديدة، و مخططاتها الهادفة إلى تفويض دولة الأفضل لتطغى على كل شيء فى الديار المصرية، و لتضع الأفضل أمام الأخطار و الرعب الذى كان يلاحقه أينما سار و حيثما توجه.

و مهما يكن من أمر .. فإن الأفضل بالرغم مما فعله، و اقترفه من جرائم بحق الأسرة النزارية الفاطمية، فإنه كان يوجه اهتمامه للشؤون الزراعية، و لتحسين الأرض .. و التاريخ الذى لا يرحم ذكر:

أنه سنة ٥٠١ ه. أمر بحل جميع الإقطاعات، و ذلك عند ما شكا أصحاب الملكيات الصغيرة من قلة دخل إقطاعهم بالنسبة لإقطاعات

##PAGE=236##

الأمراء، و كبار الملاكين، و رجال الدولة كما أجرى مساحة عامة فى البلاد، و أعاد توزيع الإقطاعات على المتزايدين من الأجناد، و الأمراء، و فى ذلك يقول المؤرخ المقريزى:

إن المأمون البطائحى الذى كان رئيسا لديوان الخراج عند ما رأى من اختلال أحوال الرجال العسكريين و المقطعين و تضررهم من كون إقطاعاتهم قد خسّ ارتفاعها، و ساءت أحوالهم لقلة المتحصل، و أن إقطاعات الأمراء قد تضاعف ارتفاعها، و ازدادت عن غيرها، و إن فى كل ناحية الفواضل للديوان جملة تجيء بالعسف، و يتردد الرسل من الديوان الشريف بسببها ...

فخاطب الأفضل فى أن يحل الإقطاعات جميعها، و يردها كلّها، و عرفه أن المصلحة فى ذلك تعود على المقطعين، و الديوان، لأن الديوان يتحصل له من هذه الفواضل جملة يحصل بها بلادة مقررة ...

فأجاب إلى ذلك، و حلّ جميع الإقطاعات، و مسحها، و اختبر دخلها، و أخذ كل من الأقوياء، و المتميزين، يتضررون، و يذكرون لهم بساتين، و أملاك، و معاصر فى نواحيهم. فقال له كل من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل فى الإقطاع، و هو مخير إن شاء باعه، أو شاء أجّره، فلما حلّت الإقطاعات أمر الضعفاء من الأجناد أن يتزايدوا فيها، فوقعت الزيادة فى إقطاعيات الأقوياء إلى أن انتهت إلى مبلغ معلوم، و كتبت السجلات بأنها باقية فى أيديهم إلى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد، و أحضر الأقوياء و قال لهم:

ما تكرهون من الإقطاعات التى كانت بيد الأجناد؟ فقالوا: كثرة غيرها، و قلة متحصلها، و خرابها، و قلة الساكن بها ... فقال لهم: ابذلوا فى كل ناحية ما تحمله، و تقوى رغبتكم فيه، و لا تنظروا فى العبرة الأولى ... فعند ذلك طابت نفوسهم، و تزايدوا إلى أن بلغت إلى الحد الذى رغب كل منهم فيه، فأقطعوا فيه، و كتب لهم السجلات على الحكم المتقدم، فشملت المصلحة الفريقين و

طابت نفوسهم، و حصل للديوان بلاد مقررة بما كان مفرقا فى الإقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار، و بذلک طابت نفوس الجميع، و أقبلوا على زراعة الأرض.

و نلاحظ من هذه التدابير تطورات اقتصادية مهمّة أولها زيادة مدة الضمان من أربع سنوات إلى ثلاثين سنة، و قد يكون الغرض من ذلک

##PAGE=237##

أن يخلق الاستقرار الذى يشعر به المقطع، فى هذه المدة الطويلة حافزا على أن يولى كل عناية لإقطاعه، و ثانيها أن أغلب المقطعين أصبحوا من الأمراء، و الأجناد، و الموظفين ذوى المرتبات الثابتة نظرا لقدرتهم على التزايد فى حين أن أفراد الشعب، و الفلاحين لم يعودوا على ما يبدو قادرين على الدخول فى هذه المزايدات، و ذلک لما تعرضوا له من هزات اقتصادية أثناء الشدة العظمى فى أواخر أيام الخليفة الإمام المستنصر باللّه، و ثالثا فإن إعطاء الإقطاعات الفقيرة التى كانت فى يد الأجناد للأمراء القادرين من عوامل إصلاحها مما لدى أصحابها الجدد من القدرة المادية على الإصلاح، كما نلاحظ أيضا أن الأملاک الخاصة للمقطعين فى إقطاعاتهم القديمة لم يمس بل ترک لكل واحد منهم الحرية فى التصرف كما يشاء.

و لما بلغ الأفضل أن بعض أصحاب الأملاک فى الصعيد الأعلى قد أضافوا إلى أملاكهم من أملاک الدواوين أراضى اغتصبوها، و مواضع مجاورة لأملاكهم تعدّوا عليها. و ضموها إليها، أمر بإقرار جميع الأملاک، و الأراضى، و السواقى بأيدى أربابها فى ذلک الحين من غير انتزاع شىء منها، و أن يقرر عليها من الخراج ما يجب تقريره، ...

«و قد أنعمنا و تجاوزنا عما سلف، و نهينا من يستأنف، و سامحنا من خرج عن التعدى إلى المألوف، و جرينا فى العفو و المعروف، و جعلناها توبة مقبولة من الجماعة الجانين، و من عاد من الكافة أجمعين فلينتقم اللّه منه، و طولب بمستأنفه و أمسه، و برئت الذمة من ماله، و نفسه، و تضاعفت عليه الغرامة، و العقوبة ... و قد فسحنا مع ذلک لكل من يرغب فى عمارة أرض حلفاء دائرة، و إدارة مهجورة معطلة فى أن يسلم إليه ذلک، و يقاس عليه، و لا يؤخذ منه خراج إلّا فى السنة الرابعة من تسليمه إياه، و أن يكون المقرر على كل فدان ما توجبه زراعته لمثله خراجا مؤيدا، و أمرا مؤكدا».

فلما سرت هذه المصالح إلى جميع أهل و أصحاب هذه الأعمال حصل الاجتهاد فى تحصيل مال الديوان، و عمارة البلاد ... إلى جانب ذلک وجه «الأفضل» عناية للرى ... ففى عهده جدّد حفر خليج أمير المؤمنين سنة ٥٠٢ ه، و جعل حفره بأبقار البساتين

التى عليه، و أقام عليه واليا بمفرده، و منع الناس من أن يطرحوا فيه شيئا، كما أمر بحفر الخليج الذى عرف بخليج «أبى المنجا» و كان الأفضل قد

حفره بناء على نصيحة «أبى المنجا بن شعيا اليهودى» الذى كان مشرفا على البلاد الشرقية التابعة لديوان الخلافة، و ذلك لأن الماء لم يكن يصل لهذه الجهات إلّا من خليج «السردوس» و غيره من الأماكن البعيدة. و ابتدأ الحفر سنة ٥٠٦ ه. و تمّ فى عامين، و يقال إن الأفضل ركب فى النيل مع حاشيته بعد أن رمى فيه حزمة من «البوص» و أخذ يتتبعها حتى رماها الماء فى المكان الذى ابتدأ الحفر منه، و كان هذا الخليج سببا فى ازدهار هذه البلاد التى يرويها، و قد غلب على الخليج اسم «أبى المنجا» برغم من محاولة الأفضل تسميته باسمه.

و من الجدير بالذكر ... أن التقدم الزراعى بلغ أعلى درجة فى عهده.

فحرث الأرض حتى أن الأفضل استجلب «أردبين» من نوع جديد من القمح، و أراد تجربتها فى الزراعة. فأرسل أحدهما إلى والى «الصعيد»، و الآخر إلى والى «الدلتا» ... فجاءه الجواب من أحدهما:

بأن الأرض كلها مزروعة، و ليس هناك مكان لبذر هذا القمح، فى حين ذكر الثانى أنه بذر الأردب ... فعرف اهتمام الأول بالزراعة بحيث لم يجد مكانا غير مزروع يمكن زراعة هذا القمح فيه، فى حين أهمل الثانى الزراعة حيث بقيت هناك أرض معطلة زرع فيها هذا الأردب، و كان أن كافأ الأول، و عاقب الثانى.

و اهتمّ الأفضل اهتماما بالغا بالحالة الاقتصادية و خاصة الزراعة، فما أن علم أن ضامن أى أرض لا يأمن أن يزيد عليه آخر، فتنزع منه قبل انقضاء مدة ضمانه، حتى أبطل ذلك، و أقرّ كل ضامن على أرضه، إلى أن تنتهى مدة ضمانه، ما دام منفذا لتعهداته.

و قد أصدر لذلك منشورا جاء فيه ما نصه:

«إن أى واحد من الناس ضمن ضمانا من باب، أو ربع، أو بستان، أو ناحية، أو كفر، و كان لأقساط ضمانه مؤديا، و لما يلزمه من ذلك مبديا، و للحق متبعا، فإن ضمانه باق فى يده، لا تقبل زيادة عليه مدّة ضمانه على النقد المعقود عملا بالواجب، و

النظام المحمود. فأما من ضمن ضمانا، و لم يقم بما يجب عليه فيه، و أصرّ على المدافعة، و المغالطة التى لا يعتمدها إلّا كل سفيه سيء الطباع ... فذلک الذى فسخ حكم ضمانه بنقضه الشروط المشروطة عليه».

كان الضمّان يعجزون عن مبالغ ضمانهم جميعها فتبقى عليهم فى

##PAGE=239##

أكثر الأحيان مبالغ عرفت «بالبواقى» فكانت الدولة تتسامح فى بعض الأحيان تخفيفا عنهم، و هذا ما اتخذه المأمون البطائحى من قرارات بإعفاء الضمّان من دفع ما عليهم من بواقى، و لا شک بأن المسامحة بهذه المبالغ الطائلة دليل على أن خزانة الدولة كانت عامرة حتى أمكن التخفيف عن أصحاب الضمانات بإلغاء المبالغ المستحقة عليهم. و لما وجد المسؤولون أن بعض الناس قد اجتازوا أرضا بالإصلاح أو غيره، دون أن يدفعوا عنها خراجا لمدة طويلة، و لما قدّر عليهم الخراج عن هذه السنين وجد أنه يستنفد ثروتهم، أعفوهم من خراج السنين السابقة، و هذا يدل على التشجيع لإصلاح الأراضى البور التى أعفى كل مستصلح لقسم منها، من دفع خراجها لمدة أربع سنوات.

و مما تجدر الإشارة إليه أن الأفضل أعفى سكان مصر، و القاهرة، ممن يستأجرون مساكن، أو حوانيت، أو حمامات، أو غيرها من أملاک الدولة بأجرة شهر رمضان من كل سنة تخفيفا عنهم، و إكراما للشهر المبارک.

و من الغريب جدا ... أن بعض المؤرخين، أشادوا بالأفضل، و وصفوه بالعدل، و حسن السيرة فى الرعية، و التجار، و المزارعين، و يبدو أنه كان يغرقهم بأمواله، و عطاياه. و مما ذكروه عنه: أنهم لم يعرفوا أن أحدا صودر فى زمانه أو أسقط حقّه. و أضافوا إلى أقوالهم هذه القصة و هى أنه لما حضر الأفضل إلى الإسكندرية كان فيها يهودى عرف عنه أنه كان يبالغ فى سب الأفضل و لعنه و شتمه ... فقبض عليه، و أراد قتله، و عند ما عدّد عليه ذنوبه ... قال له: إن معى خمسة آلاف دينار، فخذها و اعتقنى، و أعف عنى فأجابه: و اللّه لو لا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتک ... و هكذا عفا عنه، و لم يأخذ منه شيئا:

مخلفات الأفضل

أطنبت المراجع التاريخية فى التحدث عن الثروة التى خلّفها «الأفضل ابن بدر الجمالى» حتى أن الخليفة الفاطمى العاشر «الآمر بن المستعلى» ظلّ أربعين يوما فى دور الأفضل و تحت يديه الكتاب يحصون و يسجلون ما وجد فى دوره و ذلک تمهيدا لنقلها إلى القصر، و أنه لمن الغريب كيف استطاع هذا الأفضل جمع هذه الثروة الكبيرة

##PAGE=240##

فی وقت کانت البلاد تعانی من ویلات الحروب الصلیبیة، و ضیاع معظم ممتلکاتها. فقد وجد لدیه ستة ملایین و مائتان و خمسون ألف دینار، و خمسون أردبا دراهم ورق ... و وجد فی حجرة نومه قمطران علیهما حلیة من الذهب، مملؤان جواهر ما بین عقود مفصلة بالیاقوت و الزمرد و سبح و قطمر فیه إحدی عشرة شرابة طول کل واحدة منها شبران بجواهر ما یقع علیها قیمة و صنادیق فضة مملوءة مصاغات ما بین عصائب و تیجان ذهب مرصعة بالجواهر النفیسة، و ثلاثون راحلة أحقاف من الذهب العراقی، و دواة من الذهب قوّم ما فیها من الجواهر بإثنی عشر ألف دینار و مئة مسمار من ذهب وزن کل مسمار منها مئة دینار فی عشرة مجالس، فی کل مجلس عشرة مسامیر علی کل مسمار مندیل مذهب بلون من الألوان أیمّا أحب منها لبس، و خمسمائة صندوق کسوة لخاصته من دبق تیسنی، و صندوقان کبیران فیهما إبر ذهب مصاغة برسم الجواری و النساء.

و خلّف من الرقیق، و الخیل، و البغال، و المواکب من الطیب، و التجمل، و الحلی الشیء الکثر. و خلّف من البقر، و الجوامیس، و الغنم، ما بلغ قیمة ألبانها فی العام ثلاثون ألف دینار. و ترک تسعمائة ثوب من الدیباج الملّون، و تسعین ألف ثوب عتّابی، و ثلاث خزائن کبیرة ممتلئة بالثیاب الدییقیّة من صنع تنیس و دمیاط، کما ترک أربع حجرات ملأی بالمقاطع، و الستور، و الفرش و الوسائد، و المساند، و الدیباج، و خزائن أخری مملوءة بالثیاب المصنوعة من الدیبلج، و المحلّاة بالذهب إلی غیر ذلک من الستور، و الطنافس، و الأبسطة التی وجد منها أربعة آلاف، کما خلّف خمسمائة قطعة بلور، و ألف عدل من متاع الیمن، و الإسکندریة، و الغرب، و سبعة آلاف مرکب «أی سرج» ...

أما ما وجد من الذهب، و الأحجار الکریمة، فلا یمکن أن یوصف.

و ترک سبعمائة طبق ما بین فضة و ذهب، و ما لا یحصی من الصحاف، و أکواب الشراب و الأباریق، و القدور، و أوانی اللبن و غیرها ... و کلها من الذهب و الفضة کما کان هناک الکثیر من الأوانی الصینیة المملوءة بالجواهر التی کان بعضها علی هیئة عقود، و البعض الآخر منثورا. و کان الأفضل، حین یجلس للشراب یجعل فی مجلسه صوانی الذهب، و علیها الأوانی المملوءة بالجواهر، فعند الشراب تفرغ الأوانی فی الصینیة فتملأها، و یجعل بدله الشراب.

##PAGE=241##

و کان الأفضل مغرما بأنواع الطیوب من المسک و العنبر، و کانت له خزانة للطیب مملوءة بأسفاط العود، و غیره مکتوب علی کل منها وزنه و نوعه، و وجد من أوانی المسک، و الکافور، و العنبر ما لا یمکن عده، و کان من ذخائره دکة عاج و أبنوس

محلّاة بالفضة عليها قطعة من العنبر مثمنة الشكل تزن ألف رطل فى أعلاها تمثال طائر من ذهب أرجله من المرجان، و منقاره من الزمرد، و عيناه ياقوتتان و كان ينصبها فى بيته فيضوع عرفها، و يعم القصر، و قد صارت إلى صلاح الدين الأيوبى، و كان يضع ملابسه على تمثال من العنبر حتى تكتسب رائحة. و فى مجلس شرابه وضعت ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات. أربع منهن بيض من الكافور، و أربع سود من عنبر عليهن أفخر الثياب، و أثمن الحلى، و بأيديهن أحسن الجواهر، و كان الأفضل إذا دخل المجلس، و وطىء القبة نكّسن رؤوسهن إجلالا له، فإذا أخذ مكانه استوين قائمات.

و كان فى بيت «الأفضل» ثمانون جارية. منهن خمسون حظية، لكل واحدة منهن حجرة تخصّها و خزائن مملوءة بالكسوة، و آلات الديباج و الذهب، كما كان بدار الملك مجلس يعرف بمجلس العطاء يجلس فيه الأفضل لتصريف الأمور، و كان به ستة ظروف من الديباج الأطلس من كل لون إثنان فى كل منهما خمسة آلاف دينار، و وضع فى قاعة «اللؤلؤ» و فى دار الحرم ظرفان فى أحدهما خمسة آلاف دينار، و فى الثانى دراهم ... و كان الأفضل يتصدق بها.

نهاية الأفضل

ذكرنا أن الأفضل قتل ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥ ه و كان له من العمر سبع و خمسون سنة، إذ أن مولده بعكا كان سنة ٤٥٨ ه.

و من المؤكد أن أولاده و أخوته و أبناء أخيه «الأوحد» و «المظفّر» قتلوا جميعا و كان عددهم نحو مائة ما بين كبير و صغير، و لم يسلم منهم سوى ولد صغير نحيف هو «أحمد» الملقب «كتيفات» الذى أصبح وزيرا فيما بعد، ثم قتل أخيرا. و هكذا انتهت حياة هذه الأسرة الغريبة التى تسربت إلى حرم الدولة الفاطمية، فتمكنت من السيطرة، و بسط نفوذها، و التعجيل بالقضاء على الدولة الكبرى، و ذلك حين قسمتها إلى شطرين متنافسين كان كل شطر يعمل للقضاء على الثانى.

##PAGE=242##

و الحقيقة فإن ما حلّ فيها فى نهاية المطاف كان طبيعيا.

و مهما يكن من أمر ... فلا الدولة المستعلية، و لا دولة ألموت النزارية استطاعتا إعادة الدولة الفاطمية إلى سابق عهدها، فالدولة الفاطمية التى نحن بصدد التحدث عنها انتهت بعد وفاة الخليفة الثامن و الإمام الثامن عشر المستنصر باللّه.

##PAGE=243##

[فهارس و المصادر]

فهرس الاعلام

أ

الأمر بن المستعلى ٢٢٧

ابن ميمون ١١٨

ابن نسطورس، زرعة بن عيسى ٥٤

ابن نسطورس، صاعد بن عيسى ٥٤

ابن بدوس، محسن ٧٣، ١٣٢

ابن بشر، عبد اللّه ١٤٨

ابن تغرى بردى، أبو المحاسن ١٣٤

ابن الجراح، حسان بن مفرج ٣٦

ابن جهور ١٥٤، ١٥٨

ابن حوقل ٩٨

ابن حيوس ٢١٢

ابن خلدون ١٨، ٢١٦

ابن الخياط ١٨٢

ابن داؤد، هبة اللّه بن أبى عمران ٢٠٧

ابن زينور، منصور بن أبى اليمن ١٩٤

ابن سلمة ٢١٣

ابن سينا، أبو على ١٠٩، ١١٠، ١١٣، ١١٤، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٢

ابن العبرى ١١٨

ابن عقيل، المشرق بن أسعد ١٩٢

ابن مرداس، ثمال بن صالح ٢١١

ابن مرداس، صالح ١٣٥، ٢٠٣

ابن مرداس، عطية بن صالح ٢٠٤

ابن مرداس، ناصر بن صالح ١٣٥

ابن طرف ١٦٠

ابن أبى أصيبعة ١٠٤، ١١٧

ابن أبى حاشد، يحيى ١٥٩

ابن أبى الزجال، الحسن بن على ١٢٥

ابن أبى سفيان، معاوية ٥٧

ابن أبى طفيل، يوسف بن موسى ١٤٧

ابن أبى عامر، المنصور ٣٧

ابن أبى عقامة، الحسن ١٦٩

ابن أبى العوام ٦٣

ابن أبى كدينئ، الحسن بن أسد ١٩٢– ١٩٦

ابن أبى الهاشم، حمزئ ١٧١

ابن أبى يعفر ١٧١

ابن الاخشيد ٢٦

ابن النعمان، عبد العزيز بن محمد ٢٨

ابن الهيثم، محمد بن الحسن ٥١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤

ابن يونس المصرى، أبو الحسن على بن أبى سعيد ١٠٥، ١٠٦، ١١٥

أبو عبد اللّه الشيعى ١٢٥

أبو العلاء المعرى ٥٠، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٢٢، ١٤٢، ٢٠٧

أبو القاسم بن المغربى ٣٥

أبو كاليجار ٢٠٧

أبو الوفاء مبشر بن فاتن ١٠٥

احسان بن جراح ١٣٥

أحمد بن الأفضل ٢٣٣

أحمد بن عبد الكريم ١٩٢

الأحول، سعيد ١٦٦

الأخشيدى، بشارئ ٣٣

أخوان الصفا ٦٩، ٩٨، ١١٦

أرخن، عثمان ١١٧

أردبين ٢٣٨

ارسانيوس ٦٢

أرسطو ١١٩

أرسلان، الب ٢٠٤، ٢٠٥

أريسطيس (البطريرک) ٣٤

أسعد بن شهاب ١٦٩

أسعد بن وائل ١٤٩

أسماء بنت شهاب ١٥١، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٧، ١٧٥، ١٧٧

الأشعرى ١١٨

الأصبهانى، الحسين بن اسماعيل ١٧٩

أفتكين ٣١، ٢٢٥

##PAGE=244##

الأفضل بن بدر الجمالى ١٨٣، ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٤١

الأفغانى، جمال الدين ١١٨

الأكحل ٤٣

أم ولد ١٣

الأموى، هشام المؤيد باللّه ٣٨

الأنبارى، الحسن بن على ١٨٩

الأندلسى، يحيى بن على ٣٥

أنوشتكين الدزبرى ٢٠٣

أوروبا ٥٠

ب

البابلى، عبد اللّه بن حمد ١٩٠، ١٩١

باديس بن بلكين ١٣٢

باديس بن زيرى ٤٢

باسيل الثانى ٢٥، ٢٩، ٣٢، ٣٣

باكون، روجيه ١١٩

بدر الجمالى ١٩٦، ١٩٧، ١٩٩– ٢٠١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٣٥

بديع الزمان الهمذانى، أحمد بن الحسن بن يحيى ١٢٠، ١٢٢

البساسيرى ٢١٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢٣٣

البسطامى، أبو الفتح أحمد ٩٧

بطليموس (الحكيم) ١٠٤

بيبرس، ركن الدين ۲۳۳

البيرونى ۱۱۱

البيهقى ۱۰۲، ۱۱۷

ت

التسترى، سهل بن هرون ۱۸۷، ۱۹۳، ۲۰۹

التميمى، اسماعيل بن محمد بن حامد ۷۱

التنيسى، محمد بن حامد ۱۹۴

ج

الجراج، المفرج بن دغفل ۳۱

الجرجرائى، الحسين بن أحمد ۱۸۹

الجرجرائى، على بن أحمد أبو القاسم ۱۳۱، ۱۳۲، ۱۳۹، ۱۸۷

جعفر بن أحمد بن عباس ۱۴۷

جعفر بن الفضل بن فرات ۵۳

جعفر بن فلاح ۴۱

جعفر بن القاسم ۱۵۷

جعفر تاج الدولة ۴۳

جلال الدين بن عمار ۲۲۵

الجنبی، مدافع بن حسن ۱۷۱

الجوزجانی ۱۰۹، ۱۱۷

جیاش بن نجاح ۱۷۸

جیش بن الصمصامۀ ۱۷، ۲۴، ۲۵، ۲۸، ۳۱، ۳۳، ۳۴

ح

الحاکم بأمر اللّه ۱۳– ۱۹، ۲۱، ۲۴– ۲۹، ۳۲، ۳۴– ۳۷، ۴۱– ۴۴، ۴۸، ۴۹، ۵۱، ۵۵– ۶۳، ۶۵– ۷۳، ۷۷، ۸۳، ۸۵، ۸۶، ۸۷، ۹۱، ۹۳، ۹۶، ۱۰۱، ۱۰۵، ۱۱۵، ۱۲۳، ۱۲۶، ۱۲۹، ۱۳۰، ۱۳۳، ۱۳۷

الحریری ۱۲۰

حسان بن الجراح ۳۲

الحسن بن زولاق ۴۹

الحسن بن سدید ۱۹۴

الحسن بن سرحان ۲۰۲

الحسن بن الصباح ۲۱۵

الحسن بن عمار ۲۲، ۲۳، ۲۹، ۳۳، ۴۴، ۵۳

الحسن بن الهیثم ۱۱۵

حسین بن دواس ۷۲، ۷۳

الحسین بن سلامۀ ۱۴۹

الحسین بن علی بن نعمان ۸۸

الحسین بن ناصر ۳۲

حسین، طه ۱۹

حسین، محمد کامل ۱۹

الحسینی، الحسین بن جعفر ۳۶

الحسینی، شکر ۱۶۲

حماد بن بلکین ۱۲۴

الحمیری، ابن المفضل بن أبی البرکات ۱۸۲

خ

الخارجی، أبو مخلد بن کیداد ۳۷

الخشنامی، أبو علی الحسین بن محمد ۱۲۱

الخوارزمی، أبو بکر ۱۲۱

د

دبیس بن مزید ۲۱۵

دوبور ۱۰۴

دوزی، رینهارت ۱۹

ر

الرازی، أبو حاتم ۱۰۸، ۱۱۴

الرازی، فخر الدین ۱۱۸

الرعیانی، هبۀ اللّه بن محمد ۱۹۳

الروزباری، صالح بن علی ۵۳

الروزباری، الحسین بن صالح ۱۳۱

الروزباری، علی بن صالح ۴۴

ز

الزریعی، محمد بن سبأ ۱۸۲

الزواحی، سلیمان بن عبد اللّه بن عامر ۱۴۸، ۱۵۱

الزواحی، عامر بن سلیمان ۱۵۷، ۱۷۱

الزوزنی، حمزۀ بن علی بن أحمد ۷۱

س

السامانی، نوح بن نصر ۱۱۰

السامری، سلامۀ بن عبد الوهاب ۷۱

ست مصر ۱۲۹

ست الملک ۲۱، ۲۲، ۲۴– ۲۶، ۴۳، ۵۵، ۶۲، ۶۳، ۷۶، ۷۷، ۱۳۷

السجستانی، أبو یعقوب ۱۰۸، ۱۱۴

سحنون بن سعید ۱۲۴

سعد الدولة، أبو الفضائل بن حمدان ۳۷

السلاجقة ۲۰۴، ۲۰۵

سلیمان بن جعفر ۳۳

السموتی، علی بن أحمد ۷۱

سوید بن الحارث ۷۶

ش

الشابشتی، أبو الحسن علی بن محمد ۵۰

الشاوری، جعفر بن عباس ۱۵۷

الشاوری، عبد اللّه بن عباس ۱۴۷

شتروطمان ۱۹

الشیرازی، صدر الدین ۱۱۸

ص

الصادق المأمون ۱۰۷

صاعد بن مسعود ۱۹۰

الصقلبی، ریدان ۲۷

الصقلبی، مظفر ۲۰۴

الصقلی، برجوان ۲۲، ۲۶– ۲۸، ۳۱، ۳۴، ۳۵، ۴۴، ۵۳

الصقلی، جوهر ۳۰، ۳۴، ۴۹، ۲۲۲

الصقلی، حسین بن جوهر ۲۶، ۲۸، ۴۴، ۵۳، ۸۶

الصقلی، یانس ۲۵، ۳۴، ۳۵

الصلیحی، أبو السعود بن أسعد بن شهاب ۱۷۸

الصلیحی، أحمد بن المظفر ۱۵۸

الصلیحی، أروی ۱۴۹، ۱۷۵، ۱۷۶، ۱۸۰

الصلیحی، أسعد بن شهاب ۱۶۲

الصلیحی، الرواح بنت الفارع بن موسی ۱۷۷

الصلیحی، سبأ بن أحمد ۱۷۵، ۱۸۰

الصلیحی، شمس المعالی علی بن سبأ بن أحمد ۱۷۸

الصلیحی، علی بن عبد اللّه ۱۸۲

الصلیحی، علی بن محمد ۱۴۸، ۱۵۰، ۱۵۱، ۱۵۶، ۱۵۷، ۱۶۲، ۱۶۶، ۱۶۹

الصلیحی، مالک بن شهاب ۱۷۰

##PAGE=246##

الصنهاجی، بادیس بن بلکین بن زیری ۱۲۳

الصنهاجی، بادیس بن منصور ۳۴

الصنهاجی، یوسف بن زیری ۳۴

ط

طاهر بن وزیر ۱۹۴

الطائفة الملکیة– القبطیة ۱۳

الطائی، حسان بن مفرج ۲۰۴

طلیع، أمین ۷۰

الطوسی، نصر الدین ۱۱۶

الطویل، إینال ۳۸

الطیب، أبو عبد اللّه ۱۷۹

ظ

الظاهر لإعزاز دین اللّه ۱۲۹– ۱۳۵، ۱۳۷– ۱۴۲، ۱۴۸، ۱۸۷– ۱۸۹، ۲۰۱، ۲۰۳

ع

عباس بن المکرم ۱۵۸

عبد اللّه بن الحسین ۱۰۸، ۱۰۹، ۱۱۰

عبد اللّه بن المدبر ۲۱۵

عبد اللّه المهدی ۱۴۷، ۲۰۳

عبد الغنى بن نصر بن سعيد ۱۹۴

العداس، على بن عمر ۵۲

عبده، محمد ۱۱۸

عبود، مارون ۱۲۰

العزيز باللّه ۱۳– ۱۶، ۲۱– ۲۳، ۲۹، ۳۱، ۳۴، ۴۴، ۴۹، ۵۱، ۶۲، ۱۳۷

العقاد، عباس محمود ۱۹

العقيلى، الحسن بن على بن ملهم بن دينار ۲۰۲

علّاقة ۳۱

العلوى، أبو ابراهيم بن موسى بن إسحق ۱۰۱

على بن ابراهيم بن نجيب الدولة ۱۸۰

على بن أبى طالب ۲۰

على بن الأنبارى ۱۹۳

على بن جعفر بن فلاح ۲۸، ۴۴

على بن الفضل ۱۴۷

على بن المكرم ۱۷۸

على بن ملهم ۲۰۲

على بن يونس ۵۱

العليمى، علقمة بن عبد الرزاق ٢٢٣

عماد الدين، إدريس ١٠٧، ١٧٠

عمار بن محمد ٥٤، ١٣٠، ١٣١

عمران بن الفضل ١٦٥

عنان، محمد عبد اللّه ١٨

العيانى، القاسم بن جعفر بن الإمام منصور ١٥٩

غ

غاليلو ٥١

الغزالى، أبو حامد ٩٨

الغزنوى، محمود ١٠٨، ١١١

الغزنوى، ناصر الدين ١٠٩

ف

الفارابى، أبو نصر ٩٨

الفارقى، عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد ١٩١

فائق الخادم ٣٢

فتكين الضيف ١٠٧

فحل بن تميم ٢٨، ٣٤، ٣٥

الفرغانی، الحسن ۶۷

الفضل بن عبد اللّه ۴۰

الفلاحی، صدقة بن یوسف ۱۸۹، ۲۱۰

فهد بن إبراهیم ۲۵، ۲۸

ق

القائم بأمر اللّه ۴۰

القرشین، محمد بن وهب ۷۱

قریش بن بدران ۲۱۲

قسطنطین الثامن ۱۳۹

##PAGE=247##

۴۲

القصوری، أحمد بن محمد ۵۴

القفطی ۱۱۷

القلقشندی ۱۲۰

القمی، الحسین بن علی ۱۶۹

[۴۲] تامر، عارف، تاریخ الاسلامیلیه، 4جلد، ریاض الریس للکتب و النشر – لندن، چاپ: اول،1991 م.

ک

کافور ۲۶

الکرمانی، أحمد حمید الدین ۵۰، ۵۱، ۷۷، ۹۷، ۱۰۸، ۱۱۴، ۱۱۵، ۱۲۲، ۱۴۲

الکندی، صالح بن مرداس ۷۱

ل

لمک بن مالک ۲۱۵

لیوت، مارغو ۱۰۲

م

المأمون البطائحی ۱۸۱، ۲۳۶، ۲۳۹

المامونی، أبو طالب عبد السّلام بن الحسین ۱۱۰

الماشلی، الحسین بن علی بن محمد ۱۹۱

المتنبی، أبو الطیب ۱۲۲

محمد (الأمیر) ۲۲

محمد بن الأزری ۱۸۲

محمد بن جعفر ۱۶۴

محمد بن القاسم بن عاصم ۵۰

محمد بن مهنا ۱۷۹

محمد بن النعمان ۱۴، ۲۲

المسبحی (الأمیر) ۵۰، ۷۴، ۷۷

المستعلی ۲۲۲

المستنصر باللّه ۴۴، ۱۳۱، ۱۳۲، ۱۴۰، ۱۴۸، ۱۵۵، ۱۶۲– ۱۶۶، ۱۷۷، ۱۸۳، ۱۸۷– ۱۹۰، ۱۹۷– ۲۰۰، ۲۰۵، ۲۰۶، ۲۰۹– ۲۱۱، ۲۱۴، ۲۱۶، ۲۲۱، ۲۲۴، ۲۳۲، ۲۳۳، ۲۳۷، ۲۴۲

المعز بن بادیس ۲۰۱

المعز لدین اللّه ۱۵، ۳۲– ۳۴، ۴۴، ۴۸، ۱۲۴، ۱۲۶، ۱۳۰

معضاد الظاهر ۱۳۲

المغربی، أبو الحسن بن علی ۳۵، ۳۶

المغربی، محمد بن جعفر ۱۹۱

المقریزی ۱۸، ۷۴، ۲۳۶

المليجی، عبد الحاکم ۱۹۴

منجوتکین ۲۴، ۳۳

المنصور باللّه ۳۷، ۴۰

منصور بن عبدون ۵۳

منصور الیمن ۱۴۷

موسی بن الحسین ۱۳۱

موسی بن داؤد ۱۴۲

مؤمن بن حسین ۷۶

المؤید فی الدین، هبۀ اللّه الشیرازی ۱۰۱، ۱۰۲، ۱۴۲، ۲۰۴ ۲۱۲، ۲۱۴– ۲۱۶

میسور الخادم ۲۵

میکلر ۱۸

ن

الناتلی، أبو عبد اللّه ۱۱۰

ناصرخسرو ۲۱۵

الناصر الدیلمی ۱۵۹

نجیب بن عفیر ۱۶۵

نزار بن المستنصر ۱۸۳، ۲۲۷

النسفی ۱۰۸

النعمان بن حیون ۱۳۹

نیوتن ۱۰۴

ه

هرون بن محمد بن رحیم ۱۴۸

الهیثمی، عمرو بن یحیی ۱۶۹

و

الوحیدی، فاتک ۱۳۴

الوزان، الحسن بن طاهر ۵۴

الوزان، مسعد بن طاهر ۱۳۱

الوزان، المسعود بن طاهر ۵۴

ی

یارتکین ۳۶

الیازوری، الحسن بن علی بن عبد الرحمن ۱۸۹، ۱۹۰، ۲۰۳، ۲۱۰

الیازوری، محمد ۱۹۵، ۲۰۰

الیامی، عمران بن الفضل ۱۷۸، ۱۷۹

یعقوب بن کلس ۴۴، ۴۹، ۵۳، ۱۳۹

یمن الخادم ۲۵

الیمنی، عمارة ۱۵۰، ۱۶۸

الیهودی، أبو المنجا بن شعیا ۲۳۸

یوسف بن أحمد بن الأشج ۱۴۸

یوسف بن محمد ۱۶۵

##PAGE=249##

فهرس الأماكن

ا

الاسكندرية ٤٠، ٩١، ١٩٢، ٢٢٤، ٢٣٩، ٢٤٠

أصبهان ١١١، ١١٢، ١١٨

أفاميا ٣٣

أفريقيا الشمالية ١٢٤، ٢٠٦

الأندلس ١٢٦، ١٤١

أنطاكية ٢٢٥

ب

باكستان ٢٢٧

برقة ٣٤، ٣٨، ٣٩

البصرة ١٠٢

بغداد ٣١، ١١٨، ١٤١، ٢١٥

بلاد الحجاز ١٦٣، ١٦٧

بلاد الشام ١٤، ٢٥، ٢٩، ٣٠، ٣٦، ٣٧، ٤٦، ٩٧، ١٣٤، ٢٠٥، ٢٢٨

بلاد فارس ٩٧، ١٠٧، ١١٤، ١٤١، ١٤٢، ٢٢٦

بلبيس ١٤

بلخ ١٠٩

البهرة ٢٢٧

ت

تاهرت ١٠٨

تونس ١١٨

ج

جبال حراز ١٥٩

جبل شبام ١٥٧

جبل مسار ١٥٧، ١٧٥

جبل المقطم ٧٣، ١٠٥

جرجان ١١١

جزيرة دهلک ١٦١

ح

الحسين التبعى (بلاد) ١٦١

حضرموت ١٦١

خ

خراسان ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١٢١

د

دمشق ٢٥، ٣٣، ١٠٣، ١١٨، ١٩٠

دهستان ١١١

ديار بكر ٢١٢

ر

رعين ١٧١

الرقة ١٣٥

الرملة ٣١، ٣٦، ٢٠٣

س

سجستان ١٢١

السعودية ٢٢٧

ص

صقلية ٩٦، ٢٣١

صنعاء ١٥٩، ١٦٤، ١٦٨، ١٧٤

ع

عدن ١٧٧

العراق ٥٠، ٨٤، ٩٧، ١٠٧، ١٤٢، ٢٠٦، ٢١١

العريش ٣٢

##PAGE=250##

عسقلان ٢٤، ٢٥، ٢٠٠

غ

غزة ٢٥

غزنة ١٢١

ف

الفرما ٣٢، ١٣٩

الفسطاط ١٠٥

فلسطين ٢٩، ٣١، ٣٢، ٢٠٠

ق

القاهرة ٥١، ٦٧، ٩٨، ١٣٢، ٢١٤

القسطنطينية ٣١، ٣٤، ٣٦، ١٣٩، ٢٠٢، ٢٢٨

القيروان ٣٨

ك

كركانج ١١٠

كرمان ١٢١

كهلان ١٧١

الكوفة ٢١٤، ٢١٥

م

مخلاف جعفر ١٤٩، ١٥١

مخلاف يربوع ١٤٩

مصر ١٤، ٢٢، ٢٩، ٣٣، ٣٥، ٣٧، ٣٩، ٤١، ٤٥، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٩، ٦٨، ٦٩، ٧٧، ٨٢، ٩١، ١٠٣، ١٠٩، ١١٣، ١١٥، ١١٨، ١٢٣، ١٣٧– ١٤٠، ١٥٥، ١٦٥، ١٩٩، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٤، ٢٢٢، ٢٢٨، ٥٠،

معرة النعمان ٩٨، ٩٩، ١٠١، ٢١٢

المغرب ٢٢، ٢٥، ٢٩، ٣٤، ٤٢، ٤٨، ٩١، ١٠٨، ١١٣، ١١٨، ١٢٣، ١٣٢، ١٧٥، ٢٠٢، ٢٠٣

المغرب الأقصى ٣٨

مكة ١٦١

ميا فارقين ٢١٢

المنصورية ٤٨، ١٢٥، ١٣٣

المهدية ٤٠، ٢٠٢

ن

نجران ٢٢٧

نیسابور ۱۱۱، ۱۲۱

ه

هراة ۱۲۱

همدان ۱۱۱، ۱۵۴

هودج ۲۲۶

و

واد قفر ۳۹

واد بینون ۱۷۵

وادی الفرات ۱۳۵

وهران ۱۷۱

ی

یحصب ۱۷۱

الیمن ۹۷، ۱۴۷، ۱۴۸، ۱۵۰، ۱۵۱، ۱۵۴، ۱۵۵، ۱۵۹، ۱۶۳، ۱۷۶، ۱۸۲، ۲۴۰

الیونان ۱۰۴

##PAGE=251##

فهرس القبائل و العائلات و الفرق

أ

آل باديس ٢٠٢

آل الجراح ٣٦، ٤٠

آل زيرى ٤٢

آل الكرندى ١٤٩

آل المغربى ٣٥

الأتراك ٨٤، ١١٢، ١٤٠، ١٩٨

الأحباش ١٦٠، ١٦١، ١٦٦، ١٧١

الأخشيديون ٤٩

الأرقاء ٢٣

الأسرة الكلبية ٩٦

الإسماعيليون ٤٨، ٩٧، ١٠٧، ١٠٩، ١١٣، ١١٤، ١١٦، ١٢١

الأقباط ٦٢

الأمويون ٧٦

ب

بنو أبى الطيب ١٦٣

بنو الجرّاح ٣٢

بنو الحارث ١٧٥

بنو حمدان ۳۶، ۳۷

بنو رباح ۲۰۲

بنو ربیعۀ ۲۰۲

بنو زغبۀ ۲۰۲

بنو زیاد ۱۴۹

بنو شهاب ۱۵۷

بنو شیبۀ ۱۶۳

بنو صعب ۱۷۵

بنو العباس ۲۲۱

بنو عبد الواحد ۱۴۹

بنو عدی ۲۰۲

بنو قرۀ ۴۰، ۷۴، ۲۰۰، ۲۰۱

بنو کلب ۲۱۱

بنو معن ۱۴۹، ۱۵۱، ۱۶۱

بنو المیکالی ۱۲۱

بنو نجاح ۱۶۶، ۱۸۱

بنو هلال ۲۰۲

البويهيون ٤٨، ١١١

البيزنطيون ٢٥، ٣٦

ت

تهامة ١٦٠، ١٦٧

ح

الحمدانيون ٢٥، ٣٠، ٣١، ٣٧، ٤٨

خ

الخوارج ٣٨

ر

الروم ١٤، ٢٤

ز

الزيريون ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٣، ٢٠٢

س

السامانيون ١٠٩

السليمانيون ١٦٣

ش

الشعوبيون ١٣٣

ع

العباسيون ١١١، ١٢٤، ١٢٥، ٢٠٨، ٢٣٠

##PAGE=252##

غ

الغزنويون ١٠٩، ١١٠

ف

الفاطميون ٢٧، ٣٠– ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٣، ٤٤، ٤٩، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٠٩، ١٢٥، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٦، ٢٠٣، ٢٣١

ق

القرامطة ٢٩، ٤٠

ك

كتامة ٢٢– ٢٥، ٣١، ٧٢

الكتاميون ٢٩

ل

لواتة ٢٠١

م

الملكانية ٦٢

ن

النزاريون ٢٢۶

ه

الهمدانيون ١۵٩

##PAGE=253##

المصادر

المصادر العربية

ابن سينا فى موانع اخوان الصفاء- عارف تامر.

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا- المقريزى.

اثبات التبوأت- السجستانى- عارف تامر.

أخبار مصر- المسبحى.

أخبار ملوک بنو عبيد و سيرتهم- ابن حمّاء القاضى.

أخبار ملوک بنو عبيد و سيرتهم- فوندر.

أروى بنت اليمن- عارف تامر

أساس التأويل- النعمان بن حيّون- تحقيق عارف تامر.

استتار الأمن- مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة.

أعيان الشيعة- محسن الأمين العاملى.

افتتاح الدعوة «النعمان بن حيّون» تحقيق وداد القاضى.

الإمام المستنصر بالله الفاطمى- عبد المنعم ماجد.

البيان المغرب فى أخبار المغرب- ابن عذارى.

تاج العقائد (على بن الوليد) تحقيق عارف تامر.

تاريخ أخبار القرامطة- ثابت بن سنان و ابن العديم.

تاريخ الاسلام السياسى و الدينى- حسن ابراهيم حسن.

تاريخ الإسماعيلية السياسى حتى سقوط بغداد- طه أحمد شرف.

تاريخ جوهر الصقلى- على ابراهيم حسن.

تاريخ الرسل و الملوک- الطبرى.

تقويم البلدان- أبو الفداء.

تميم بن المعز لدين اللّه- عارف تامر.

ثورة القرامطة الاشتراكية- عارف تامر.

جوهر الصقلى «القائد»- عارف تامر.

الحاكم بأمر اللّه- عارف تامر.

الحاكم بأمر اللّه المفترى عليه- عبد المنعم ماجد.

الحاكم بأمر اللّه و أسرار الدعوة الفاطمية- محمد عبد اللّه عنان.

حركات الشيعة المتطرفين- محمد جابر عبد العال.

حضارات الاسلام- جوستاف فون جرونبوم.

دراسات فى العصور العباسية المتأخرة- عبد العزيز الدورى.

دعائم الاسلام (النعمان بن حيّون) تحقيق آصف فيضى.

دولة النزارية- طه أحمد شرف.

راحة العقل و الكرمانى- محمد مصطفى حلمى و محمد كامل حسين.

##PAGE=254##

الرياض- (الكرمانى)- تحقيق عارف تامر.

سيرة الاستاذ جوذر الكاتب- محمد كامل حسين و محمد عبد الهادى شعيرة.

سيرة جعفر الحاجب- (اليمانى) مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة.

شرح ديوان ابن هانىء الأندلسى- عارف تامر.

صلة تاريخ الطبرى- غريب بن سعد.

الصليحيون فى اليمن- حسين همذانى.

عبقرية الفاطميين- محمد حسن الأعظمى.

عبيد اللّه المهدى- إمام الشيعة الإسماعيلية و مؤسس الدولة الفاطمية- حسن ابراهيم حسن.

العزيز بالله- عارف تامر.

العصر العباسى الأول- شوقى ضيف.

العصر العباسى الأول- عبد العزيز الدورى.

عيون الأخبار- ادريس عماد الدين.

الغزالی بین الفلسفۀ و الدین- عارف تامر.

الغلو و الفرق الغالیۀ فی الحضارۀ الاسلامیۀ- عبد اللّه سلوم السامرائی.

الفاطمیون فی مصر- حسن ابراهیم حسن.

الفرق بین الفرق- الإمام أبو منصور البغدادی.

فرق الشیعۀ- النوبختی.

فصول و أخبار (مخطوط- نور الدین أحمد).

فی أدب مصر الفاطمیۀ- محمد کامل حسین.

القرامطۀ- عارف تامر.

کتاب البلدان- الیعقوبی.

کشف أسرار الباطنیۀ و أخبار القرامطۀ- الحمادی الیمانی.

کنوز الفاطمیین- زکی محمد حسن.

لمعۀ من أخبار المعز- مؤلف مجهول.

المجالس المستنصریۀ- الداعی ثقۀ الإمام.

المجالس و المسایرات- النعمان بن حیّون.

المجلۀ الذهبیۀ- علی محمد جبارۀ.

مروج الذهب- المسعودی.

معجم البلدان- یاقوت الحموی.

المعز لدين اللّه– حسن ابراهيم حسن و طه أحمد شرف.

المعز لدين اللّه– عارف تامر.

الملل و النحل– الشهرستانى.

الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين– عارف تامر.

المؤيد فى الدين هبة اللّه الشيرازى– محمد كامل حسين.

الناصر لدين اللّه– سيمون حايک.

##PAGE=255##

نزهة الأفكار– ادريس عماد الدين.

النظم السياسية– حسن ابراهيم حسن و على ابراهيم حسن.

النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام و العراق– محمد جمال سرور.

نور مبين قبل اللّه المتين– على محمد جبارة.

الهمة فى آداب اتباع الأئمة– محمد كامل حسين.

وفيات الأعيان– ابن خلكان.

المصادر الأجنبية

##PAGE=256##